د أحمد باشميل

موسوعة الغزوات الكبرى ١

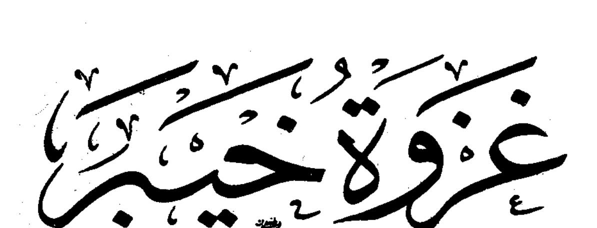
غزوة خيبر

المكتبة السلفية

محمد احمد باشميل

من معارك الإسلام الفاصلة

ـ ٦ ـ



غزوة خيبر

قدم للكتاب
الكولونيل عبد الله التل
قائد معركة الحفاظ على القدس
عام ١٩٤٨



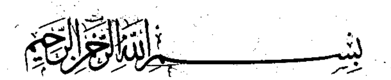
المكتبة السلفية

غزوة خيبر



مقدمة الكتاب

بقلم الكولونيل عبد الله التل



وصلى الله على نبينا وسيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعد ، لقد سرنى أن اطلعت على مسودة (غزوة خيبر) .. الكتاب السادس من السلسلة التاريخية التى شرع الأخ الأستاذ محمد أحمد باشميل فى إصدارها تحت اسم (معارك الإسلام الفاصلة) .

لقد رأيت فى هذا الكتاب (كما فى غيره من مؤلفات الأخ باشميل التاريخية) كنوزاً ثمينة من التاريخ الإسلامى الطافح بالبطولات والأمجاد .. نقب عنها قلم الأستاذ باشميل وأزال عنها الأتربة السميكة الحاجبة لها .. ثم عرضها على (حقيقتها الأصيلة الناصعة) عرضاً شيقاً وبأسلوب سهل يجعل القراء (على اختلاف درجاتهم الثقافية) يفهمون - دونما عناء أو إرهاق للذهن - حقيقة التاريخ الإسلامى المجيد .

إن الأخ الأستاذ محمد أحمد باشميل لم يأت بجديد فى التاريخ (من حيث الجوهر) ، فالتاريخ لا يحتمل الاختراع بأن يضيف إليه الكاتب ما ليس فى طياته . الأمر الذى ابتعد عنه المؤلف مخالفاً بذلك كثيراً من الكتاب الذين تناولوا التاريخ الإسلامى بالعرض والتحليل ، وسمحوا للخيال (لا الحقيقة) أن يلعب دوراً كبيراً فيما كتبوا كما فعل جورجى زيدان فى سلسلته التاريخية المشهورة .

ولكن الجديد الذى أتى به الأخ الأستاذ باشميل هو الاستقراء الدقيق والعرض الواسع الأدق للتاريخ الإسلامى ، ولكن داخل إطار جوهر هذا

التاريخ .. إذ لم يخرج (فى أية ناحية من نواحى عَرضه وبحثه وتحليله فى مؤلفاته) عن إطار هذا الجوهر ، الأمر الذى أعطى سلسلته التاريخية هذه قيمة تاريخية أكبر .

لأنه لم يُخرْج هذه السلسلة كقصص للتسلية وقتل الوقت ، يتخللها الحديث عن الحب الموهوم والغرام المتخيَّل بقصد تشويق القارئ وجذبه لا أقل ولا أكثر .. وإنما أخرجها كمراجع حقيقية لتاريخ حقيقى يرجع إليها واثقاً من يريد الرجوع إليها والاستدلال بها .

أسأل الله تعالى أن يجزى الأخ الأستاذ باشميل خير الجزاء على هذا المجهود الذى يبذله خدمة للتاريخ الإسلامى ، فى وقت يتعرض فيه هذا التاريخ المشرق المجيد لحملات ظالمة يشنها عليه مفكرون محسوبون على العرب والمسلمين ، قاصدين من وراء ذلك أن يقطع المسلمون (والعرب خاصة) صلتهم بهذا التاريخ الخالد الوضّاء ، ولكن الله بالمرصاد لهؤلاء العملاء المأجورين فسيكبتهم انتصاراً لدينه حتى ينقلبوا خاسرين إن شاء الله .

***

إن معركة خيبر – كما سيراها القارئ فى هذا الكتاب – هى من أعظم المعارك الحاسمة فى تاريخ الإسلام ، وهى – كما يقول المؤلف – أطول معركة خاضها النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام فى عهد النبوّة . وآخر معركة انتهى بها الوجود اليهودى الذميم فى جزيرة العرب .

لقد عرض المؤلف فى كتابه هذا لتاريخ اليهود فى خيبر – منذ وطئت أقدامهم الدخيلة هذه التربة العربية حتى تم تطهير الجزيرة من أوضارهم بالتصفية العسكرية الشاقة التى قام بها النبى محمد ﷺ وأصحابه والتى هى موضوع هذا الكتاب .

كذلك أثبت المؤلف فى الفصل الأول من كتابه هذا أن العنصر اليهودى ، عنصر دخيل على الجزيرة العربية ، لا تربطه بعرب الجزيرة أية رابطة من دم أو لغة أو دين .

كما نوه عن أحقاد اليهود وتعصبهم وخبثهم وعزلتهم وانطوائهم على أنفسهم ومكرهم وخداعهم ، مما جعل صلاتهم بعرب الجزيرة محدودة إلا

فى مجال التآمر والغدر والتواطؤ مع الوثنيين على ضرب المسلمين والإطاحة بهم .

وعرض المؤلف لأهمية خيبر وخطورتها (فى ذلك العهد) على الإسلام والمسلمين ، ولا سيما بعد أن نزح إليها من يثرب يهود بنى النضير الأغنياء الأقوياء الذين هم (بين اليهود) فى منزلة السادة والأشراف .

وقد تحدَّث المؤلف فى شىء من التفصيل المفيد عن كيف تحولت خيبر إلى قاعدة خطيرة للعدوان والتآمر على الإسلام والمسلمين ، وكيف كانت هى المُخَطط والمدَبّر والمنطلَق الحقيقى لغزوة الأحزاب الرهيبة التى كادت قوات الأحزاب المتحالفة فيها أن تعصف بكيان المسلمين وتقتلع جذور الإسلام كليّاً لولا عناية الله تعالى التى أنقذت الإسلام والمسلمين بمعجزة .

كما فصَّل الأسباب التى جعلت النبى ﷺ ينتهج سياسة الشدة فى معاملة هؤلاء اليهود ، ويقرر نقل المعركة إلى عقر دارهم فى خيبر لتصفيتهم تصفية نهائية عن طريق الحرب ، بعد أن تأكد لديه أن اللين والتسامح مع هؤلاء اليهود لا يزيدهم إلا جرأة فى مجال الغدر والعدوان والتآمر على المسلمين .

ثم شرح المؤلف بشىء من التفصيل المرغوب المعارك التى دارت للاستيلاء على حصون خيبر ، وأثبت بالأسانيد أن الرسول ﷺ كان قمة فى الشجاعة والإقدام ، وقدوة فى التسامح والرحمة ، وأن صحابته – عليه الصلاة والسلام – كانوا نماذج نادرة فى التاريخ كله من حيث الصبر والطاعة والإيمان والشجاعة . وأثبت كذلك أن القلة المؤمنة الصابرة تغلب الكثرة الكافرة . فلم يخض المسلمون تحت قيادة محمد عليه الصلاة والسلام معركة إلّا كانوا فيها قلة مؤمنة منتصرة . ولم يطمس المؤلف الحقائق التى عرفت عن يهود خيبر من حيث شجاعتهم واستماتتهم فى الدفاع عن حصونهم ، وإنما شرح ذلك بأسلوب صادق صريح جعل للمعارك أهمية ورونقا وطعماً .

ولكم تمنيت أن يصل هذا الكتاب وكتب الأستاذ باشميل الأخرى إلى أيدى ضباطنا وجنودنا فى الجيوش العربية كافة ، ليطلعوا على صحائف

مشرقة من تاريخ نبيهم العظيم وصحابته الأبطال البررة الذين قبسوا من شجاعة الرسول وسماحته وكرم أخلاقه ما جعلهم يوطدون دعائم الإسلام فى ظروف قاسية مريرة رغم ما لاقوه من أحقاد اليهود وجبروتهم وطغيانهم ومكرهم وغدرهم ، ولكى يقارن ضباط الجيوش العربية وجنودها بين بطولات كتائب المسلمين الأولى وهزائمنا فى حزيران يوم هرب أكثر من ربع مليون ضابط وجندى أمام قلة قليلة من هؤلاء اليهود ، مما ألحق بالمسلمين عاراً أبدياً لا يمحوه إلا عودة هذه الأمة لدينها وتاريخها وأصولها العريقة ونبذ المبادىء الزائفة المستوردة من أعداء أمتنا وديننا .

وتحية إلى الأستاذ محمد أحمد باشميل الذى كرس حياته للدفاع عن دينه وأمته ووطنه والإسهام فى إحياء التراث الإسلامى بأسلوب شائق وقلم حرّ صادق هو فى صراع دائم مع الباطل ، راجياً له دوام التوفيق ، مؤملًا أن يواصل إصدار الكتب عن معارك الإسلام الحاسمة كالقادسية واليرموك وحطين وعين جالوت .

عمان

عبد الله التل

قائد معركة القدس سنة ١٩٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد المؤلف

الحمد لله ولا نعبد إلا إيّاه ، وصلى الله وسلم على نبيه ورسوله محمد الذى اختاره لأداء رسالته واجتباه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين .

وبعد ، فهذا هو الكتاب السادس(١) من سلسلتنا التاريخية (معارك الإسلام الفاصلة) نضعه بين أيدى القراء الكرام ، آملين أن نكون قد وُفّقنا فى إخراجه ، ونسأله تعالى أن يجعل كل أعمالنا خالية ومبرّأة من شوائب السمعة والرياء وخالصة لوجهه تعالى ، إنه مقلب القلوب وهو على كل شىء قدير .

— ١ —

يتضمن هذا الكتاب تفاصيل أطول معركة خاضها المسلمون فى العهد النبوى ، وهى معركة خيبر التى بانتصار المسلمين فيها تم اقتلاع جذور الوجود اليهودى الدخيل فى منطقة خيبر التى هى آخر وأقوى معقل للوجود الأجنبى فى جزيرة العرب .

وامتداداً لاستسلام يهود خيبر (وعددهم عشرة آلاف مقاتل) للمسلمين ، استسلمت للمسلمين بقايا جيوب المقاومة اليهودية فى (فدك)

---

(١) سبق للمؤلف أن أصدر من هذه السلسلة التاريخية كتباً أربعة وهى :
١ — غزوة بدر الكبرى ، ٢ — غزوة أحد ، ٣ — غزوة الأحزاب ،
٤ — غزوة بنى قريظة ، والكتاب الخامس من هذه السلسلة هو (صلح الحديبية) .

و(وادى القرى) و(تيماء) وكل مناطق الشمال .

وبذلك انتهت آخر مرحلة من مراحل الوجود اليهودى العابث الزنيم ، الذى ظل يعبث بسكان جزيرة العرب أكثر من ألفى سنة . وبالقضاء على الكيان اليهودى العابث فى خيبر ، بدأ سكان الجزيرة (فى ظل الإسلام الوارف) يتذوقون حلاوة الأمن والاستقرار ، وأخذت أقاليم الجزيرة العربية تلفها (بسرعة) أجنحة دولة الإسلام الفتية ، فبعد أقل من تسعة أشهر مضت على سقوط خيبر سقط فى أيدى المسلمين أعظم معقل للشرك والوثنية وهى مكة المكرمة ، ولم تمض سنتان على تطهير المسلمين خيبر من سلطان اليهود حتى دانت كل نواحى الجزيرة العربية بدين الإسلام .

— ٢ —

كان النبى ﷺ – منذ هاجر من مكة إلى المدينة ، ومنذ دانت يثرب بالإسلام وخضعت لحكمه والتزمت بتعاليمه – وهو يعامل اليهود الموجودين فى المنطقة معاملة اللين ، وينتهج إزاءهم سياسة الصفح والتسامح كلما قاموا بنقض حلف أو خالفوا نصوص معاهدة ، أو حتى لجأوا إلى تدبير مؤامرة تستهدف حياته ﷺ أو هدم أركان النظام الإسلامى الوليد .

فقد كان يستبعد فى معاملاته التأديبية (لهؤلاء اليهود عنصر الشدة والعنف) حتى أن كل العقوبات التى أنزلها بهم جزاء تآمرهم وغدرهم ونكثهم للعهود ، لم يصل منها شيء إلى سفك الدم وإزهاق الأرواح .

فكان النفى من المدينة مع مصادرة بعض الممتلكات ، هو أقصى عقوبة ينزلها النبى ﷺ بهؤلاء اليهود ، بالرغم من إدانتهم بما يبيح قتلهم ، وبالرغم من قدرة النبى ﷺ على إبادتهم .

لأن الهدف من العقوبة (كما هى روح الإسلام فى التسامح) ليس الانتقام وإشفاء الغليل بالولوغ فى الدم ، وإنما الهدف دفع الخطر وحسم مادة الشر واستئصال أسباب القلق والمشاغبة ، ليعيش المجتمع الجديد فى جوّ من الهدوء والاطمئنان بعيداً عن حياة الدس والفوضى والأحقاد والضغائن .. حياة ما قبل الإسلام حيث اليهود لهم اليد الطولى فى تغذيتها وتصعيدها ، لأن كيان هؤلاء اليهود الدخلاء لا يقوم إلا على انتشار

الأمراض الاجتماعية الفتاكة التى عملوا (فى غفلة من الزمن) على تعميقها فى مختلف قطاعات المجتمع العربى الجاهلى الوثنى .

وما دام أن حسم شر هؤلاء اليهود ودفع خطرهم يمكن تحقيقه بنفيهم وإبعادهم عن يثرب وأهلها ، فقد استبدل النبى ﷺ عقوبة هؤلاء اليهود المستحقين للقتل بنفيهم من المدينة ليذهبوا أحراراً إلى حيث شاءوا من بلاد الله خارج الجزيرة أو داخلها .

— ٣ —

وآخر من عفا عنهم النبى ﷺ واكتفى بنفيهم من المدينة – بعد أن ثبتت إدانتهم بنكث العهد ومحاولة اغتياله – هم يهود بنى النضير ، الذين حاولوا الغدر به حين شرعوا فى عملية اغتياله وهو فى ديارهم آمناً فى ظل حلف قائم بينه وبينهم (١) .

لقد اختار يهود بنى النضير (عند نفيهم من المدينة) مدينة خيبر ، فأقاموا بها وجعلوا منها وطناً لهم بدلا من المدينة . لأن خيبر بها أعظم قوة حربية لليهود فى بلاد العرب .

لقد كان من المفروض أن يرعوى هؤلاء اليهود فيجنحوا للسلم ويقدروا روح التسامح التى عاملهم بها النبى ﷺ بالرغم من ثبوت شروعهم فى جريمة اغتياله وهو فى ديارهم آمناً وفى حالة عهد وتحالف معهم ، حيث كف عن دمائهم (مع قدرته على سفكها) وسمح لهم عند نفيهم من المدينة أن يحملوا معهم كل مايقدرون على حمله من الأموال ، فحملوا أغلاها ، وقد حملوا معهم إلى خيبر شيئاً عظيماً من الذهب والفضة ، لأن يهود بنى النضير يعتبرون من أغنى الفئات اليهودية فى جزيرة العرب .

ولكن طبيعة اليهود (هى .. هى) لاتتغير (غدر ، وفتك عند المقدرة، وهدوء واستكانة عند العجز) ، طبيعة لاأخلاقية ذميمة تلازمهم فى كل عصر وزمان .

---

(١) انظر تفاصيل محاولة هؤلاء اليهود اغتيال النبى ﷺ بكاملها فى كتابنا (غزوة الأحزاب) .

ولهذا فإنه لم يكد يستقر بهم المقام فى (خيبر) ويشعروا بأنهم على شىء من القوة والمنعة حتى شرعوا فى تحويل خيبر إلى قاعدة رئيسية للعدوان والتآمر على المسلمين .

وكان من أخطر نتائج هذا التآمر (غزوة الأحزاب الرهيبة) التى تعرض لها النبى وأصحابه فى المدينة ، وعانوا من محنها وأهوالها ما لم يعانوا مثله فى أية مرحلة من مراحل صراعهم مع أعداء الإسلام كما فصلناه فى كتابينا (غزوة بنى قريظة وغزوة الأحزاب) .

— ٤ —

لقد كانت هذه الغزوة الرهيبة (القرشية الغطفانية فى مظهرها واليهودية فى جوهرها) بمثابة درس قاس وعاه المسلمون ، واتضح لهم على ضوئه أن العنصر اليهودى ، خبيث كالسرطان ، لا يفيد معه أى علاج غير الاستئصال ، وأنك إن لم تستأصله وتجتثه بسرعة اجتثّ الحياة واستأصلها من جسدك .

واتضح للقيادة الإسلامية فى المدينة على أثر هذا الدرس القاسى الذى استفادته من غزوة الأحزاب الرهيبة ، أن مقابلة غدر اليهود وخيانتهم وتآمرهم ونكثهم باللين والتسامح بقصد إصلاحهم وترويض نفوسهم الشريرة ، وإعطائهم الفرصة ليعودوا إلى جادة الصواب ويتبعوا الحق الذى عرفوه فجحدوه ، إنما هو بمثابة مسكنات ، لا تجدى فى القضاء على هذا السرطان (الوجود اليهودى) وإنما تمنحه الفرصة ليغتال الحياة والعافية (ببطء) فى الجسد الذى يكون فيه .

— ٥ —

وعلى أساس هذه النظرة الواقعية الجديدة التى أوجدتها (لدى القيادة الإسلامية فى المدينة) كوارث وبلايا حملة الأحزاب الباغية ، التى كادت تعصف بالكيان الإسلامى كله وتقتلعه من الجذور ، والتى جاءت من خيبر قبل أن تجىء من مكة وصحارى نجد . وعلى أساس هذه النظرة عدل النبى الأعظم ﷺ عن سياسة اللين التى كان ينتهجها إزاء تصرفات هذا العنصر المخرب الهدام .

فالتزم (في معاملة هؤلاء اليهود الذين اتضح من تصرفاتهم أنهم لن يرضوا بأقل من الإطاحة به وقطع تيار دعوته) التزم فى معاملتهم سياسة الحزم والشدة والعنف ، لا رغبة فى الانتقام وشفاء الغليل ، فالنبى ﷺ كما دلت تصرفاته الحكيمة بعيداً كل البعد عن هذه الروح ، وإنما كان باعث هذه السياسة الحازمة الجديدة التىَ انتهجها مع هؤلاء اليهود (بعد زلزلة الأحزاب) هو الرغبة الشريفة فى أن يسود المنطقة جوّ من الطمأنينة والأمن والاستقرار .. دلت التجارب العملية المتكررة على أنه لا يمكن توفيره للناس ما بقى لليهود سلطان أو نفوذ فى جزيرة العرب كلها .

— ٦ —

وأول نتيجة لالتزام هذه السياسة الصارمة الجديدة إزاء تكرار غدر اليهود وتآمرهم ، إنزال المسلمين (فى السنة الرابعة من الهجرة) تلك العقوبة الصارمة بيهود بنى قريظة فى المدينة حيث تم إعدام حوالى ثمانمائة منهم جزاء ارتكابهم – ضد المسلمين – تلك الجرائم الخسيسة البشعة التى حوت معانى الغدر والخيانة والنكث والتآمر ، والتى أقدموا عليها فى أحرج ظرف يمر به المسلمون ، بقصد المشاركة فى القضاء عليهم ومحو كيانهم من الوجود .. حيث انقلبوا على المسلمين وناصبوهم العداء بل وأعلنوا عليهم الحرب ، وهم فى أحرج موقف يواجهون فيه ساعة مصيرهم ، وعقربها يهتز زاحفاً نحو الصفر ليعلن نهايتهم على أيدى قوات الأحزاب الضاربة المحيطة بالمدينة من كل جانب .. لولا المعجزة التى جاءت من عند الله بدحرهم وتشتيت شملهم .

فقد كان بين يهود بنى قريظة والمسلمين معاهدة حلف عسكرى (بالإضافة إلى معاهدة عدم الاعتداء) تنص بأن يلتزم الفريقان معاً بواجب الدفاع عن يثرب ضد أى عدوان خارجى ضد أى منهما [١] .

غير أن يهود بنى قريظة عندما أطبقت جيوش الأحزاب الضاربة على المسلمين فى المدينة نقضوا تلك المعاهدة غدراً وخيانة ، مستغلين وقوع

---

(١) انظر كامل بنود هذه المعاهدة فى كتابنا (غزوة أحد) ص ٣٤ وفى كتاب : الوثائق السياسية للدكتور محمد حميد الله .

المسلمين فى ذلك المأزق الحرج .

ولم يكتف بنو قريظة بنقض العهد وإلغاء الحلف الذى بينهم وبين المسلمين ، بل سارعوا إلى وضع أيديهم فى أيدى الغزاة ، الأمر الذى ضاعف من محنة المسلمين وزاد من كربهم ، حيث جعلهم تصرّف بنى قريظة هذا بين شقّى الرحا .. جيوش الأحزاب من الأمام ويهود بنى قريظة (حلفاء الأمس) من الخلف بضواحى المدينة . وكم هو فظيع أن ترى حليفك ، قد انحاز إلى أعدائك الغزاة وشهر السلاح ليضربك به من الخلف فى الوقت الذى تتوقع فيه أن يكون واقفاً بهذا السلاح إلى جانبك لصد العدوان عليك كحليف يزن كلمته التى أعطاها بميزان الشرف ، ولكنهم اليهود وكفى .

ومن هنا (وعلى قدر بشاعة الجريمة التى ارتكبها يهود بنى قريظة) جاء العقاب صارماً رادعاً كأعنف ما يكون .. ثمانمائة مقاتل من يهود بنى قريظة أعدمهم النبى ﷺ فى ليلة واحدة بعد محاكمة نزيهة عادلة [1] .

— ٧ —

لقد كانت محاكمة يهود بنى قريظة وما نتج عنها من عقوبة حازمة صارمة ، نقطة التحوّل الأولى فى سياسة قيادة المسلمين فى المدينة من اللين إلى الشدة فى معاملة اليهود الغادرين .

إذ تكوّن لدى المسلمين (على ضوء التجارب المريرة المتلاحقة) اقتناع كامل بأن انتهاج سياسة اللين والعفو والتسامح إزاء ما يرتكبه اليهود من جرائم الغدر والنكث والخيانة والتآمر ، لم ولن تغيِّر من طبيعة الدس والتخريب والتآمر السابحة فى دماء هؤلاء اليهود ، شيئاً ، بل أطمعتهم ووسّعت من دائرة الأحلام التى كانت تراود كبار زعمائهم بالعودة إلى يثرب وبسط ظل سلطانهم الأسود الدخيل عليها من جديد .

ولم يعد هناك شك لدى قيادة المسلمين العليا فى المدينة – بعد الذى حدث فى غزوة الأحزاب المزلزلة – أن خيبر (بعد أن استوطنها المنفيون من يهود بنى النضير) أصبحت القاعدة الرئيسية للعدوان على المسلمين ، وأن

(١) انظر رد المؤلف لشبهات الطاعنين المنتقدين لهذه المحاكمة فى كتابه الرابع (غزوة بنى قريظة) الفصل الرابع .

هؤلاء اليهود لن يكفوا عن السعى – بكل الوسائل – للقضاء على المسلمين مهما بلغ المسلمون فى التسامح والعفو .

لذلك صار من البدهى – بل من المحتم على المسلمين والحال هذه – أن تكون خطوتهم التالية (بعد تصفية الوجود اليهودى فى يثرب) غزو اليهود فى خيبر لهدم سلطانهم ، وذلك كعمل حربى وقائى لابد من القيام به ، لضرب قواعد العدوان ونسف أوكار الكيد والتآمر ، والتى إن لم يضربها المسلمون ويدمِّروها سيظل كيانهم معرضا للخطر الدائم فى أية لحظة من قبل هذه القواعد اليهودية التى نسجت فى أوكارها بخيبر خيوط مشروع حرب الأحزاب العدوانية الشاملة ضد المسلمين ، والتى لا يستبعد أن يحوك اليهود فى ظلماتها ، (إذا ما تركوا وشأنهم أحراراً) مؤامرة حرب أحزاب شاملة ثانية ضد المسلمين قد تكون أعظم وأخطر من حرب الأحزاب الأولى [1]

— ٨ —

وعلى ضوء التقييم الصحيح للأحداث وربط الأسباب بالمسببات وعلى ضوء التحليل الدقيق لبواعث عدوان الأحزاب المخيف على المسلمين ، اتضح للقيادة العليا فى المدينة أن قوات الأحزاب الوثنية التى تمكن المسلمون (بأعجوبة) من دحرها ، وقوات بنى قريظة التى أنزل المسلمون بها ذلك العقاب الصارم الرادع .. اتضح للمسلمين أن كل هذه القوات لا تمثل فى الواقع إلا ذنب الأفعى ، وأن الذى يمثل رأس هذه الأفعى على الحقيقة هو العناصر اليهودية التى كانت لا تزال قابعة فى أوكارها بخيبر .

لذا فإن نجاح القيادة الإسلامية فى المدينة فى صد العدوان الوثنى الرهيب أمام الخندق ، وتمكنها من إبادة عناصر الغدر والخيانة من يهود بنى قريظة إنما هو فقط بمثابة قطع ذنب الأفعى لا غير .

ذلك أن كل ما لاقاه المسلمون على أيدى الأحزاب الوثنية وعصابات

---

(١) وفعلا حاول يهود خيبر السعى لدى أعراب نجد لشن حرب أحزاب جديدة ضد المسلمين حينما قرروا إيفاد بعثة برئاسة رأسهم وسيدهم (أسير بن زارم) إلى ديار غطفان لإقناعهم بالمشاركة فى غزو جديد ضد المسلمين فى المدينة ، كما فصلناه فى كتابنا الخامس «صلح الحديبية» .

الغدر القرظية من أهوال وويلات وزلازل جعلت المدينة بإسلامها ودمائها وأعراضها وأموالها فى مهب العاصفة .. ما كان ليحدث لولا خيبر التى انبعثت منها وحدها شرارة كل تلك الأهوال والمصائب التى حاقت بالمسلمين فى المدينة .

وحيث أن قطع ذنب الأفعى مع الإبقاء على رأسها لايعنى شيئاً لمن يريد حماية نفسه من خطر هذه الأفعى القاتلة ، **فإن إتباعه** الرأس الذنب أمر لابد له من الإقدام عليه .

وعلى أساس هذا المنطق السليم قرر النبى ﷺ القيام بغزو خيبر ليتبع ذنب الأفعى رأسها ، فنسف آخر وأخطر معقل لليهود الدخلاء فى جزيرة العرب باحتلاله منطقة خيبر فى أوائل السنة السابعة من الهجرة .

ثم تداعت بعد سقوط خيبر بقية الأوكار اليهودية فى فدك وتيماء ووادى القرى ، فوقعت جميعها فى أيدى المسلمين .

وبذلك تخلصت جزيرة العرب من داء أخطر غدة سرطان كانت تفتك طيلة قرون عديدة بكيانات الشعوب التى كان يواطنها هؤلاء اليهود الدخلاء .

ولعل فى الدور الرئيسى الذى قامت به العقيدة الإسلامية فى مجال الانتصارات الساحقة التى حققها فى خيبر ألف وأربعمائة من المسلمين ينقصهم كل شىء إلَّا الإيمان على أربعة عشر ألف مقاتل من اليهود وأحلافهم الذين لا **ينقصهم أىّ شىء يحتاجونه** لكسب الحرب سوى الإيمان .. لعل فى تفهم المسلمين - والعرب خاصة - لدور العقيدة الرئيسى هذا حافزاً يحفزهم على العودة إلى ربهم والتمسك بالعقيدة الإسلامية الصادقة .. هذا التمسك الذى بدونه يستحيل عليهم بلوغ مايصبون إليه ويتوقون من عزة وكرامة واستقرار وانتصار .

نسأل الله تعالى أن يلهمنا جميعاً الرشد ويجنبنا مزالق الانحراف لنسير على

صراطه المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم بهدايته وتوفيقه من خيار هذه الأمة ، إنه سميع مجيب .

محمد أحمد باشميل

جدة .. المملكة العربية السعودية
١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م

(م ـ ٢ * خيبر)

موجز عن تاريخ اليهود فى خيبر

- **كيف ومتى جاء اليهود إلى خيبر .**
- **حياد يهود خيبر عبر القرون**
- **لماذا تحولت خيبر إلى قاعدة للعدوان على المسلمين ، بعد حيادها ؟؟!**
- **دور خيبر فى عدوان الأحزاب على المسلمين عام الخندق .**
- **كيف تم إجلاء اليهود من خيبر .**

قبل الدخول فى تفاصيل معركة خيبر الفاصلة والتى (بانتصار المسلمين الساحق فيها) تلاشى الوجود اليهودى الدخيل من جزيرة العرب نهائياً .. قبل الدخول فى تفاصيل هذه المعركة ، لا بد من إعطاء القارئ الكريم لمحة عن تاريخ وأعمال وتصرفات يهود خيبر قبل أن يقوم النبى ﷺ بغزوهم والقضاء على سلطانهم .

جغرافية خيبر :

تعتبر خيبر – ولا تزال منذ أقدم العصور – واحة واسعة ذات تربة خصبة معطاء وذات عيون ومياه غزيرة .

وتربتها تربة جيدة للغاية ، تصلح لزراعة الحبوب والفواكه على اختلاف أنواعها ، كما أنها تعتبر من أكبر واحات النخيل فى جزيرة العرب .

ويكفى لصحة هذا القول أن المسلمين أحصوا من النخيل ما بالنطاة (وهو أحد أودية خيبر الكثيرة) فوجدوا بها أربعين ألف نخلة .

وتقع خيبر فى الشمال الشرقى للمدينة وعلى بعد حوالى سبعين ميلا منها ..

متى جاء اليهود إلى خيبر :

منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة كانت منطقة يثرب والمناطق الشرقية والغربية وكل المنطقة الشاسعة الممتدة فى الحجاز من يثرب حتى الحدود الشمالية المتاخمة للشام خاضعة لسلطان العمالقة ، وهم قوم جبابرة من العرب البائدة [١] .

بل كانت المناطق التى تشمل كل ساحل الخليج العربى وعمان ونجد والحجاز حتى الشام كانت خاضعة لسلطان العمالقة منذ تبلبلت الألسنة وبعد التفرق بعد عهد النمرود بن كنعان بن حام بن نوح .

أما صلة بنى إسرائيل بمنطقة خيبر فهناك اختلاف بين المؤرخين فى الوقت الذى اتصل فيه هذا العنصر الدخيل بخيبر .

فبعضهم يقول : إن الوجود اليهودى الدخيل فى خيبر يعود إلى التاريخ الذى استوطن فيه اليهود منطقة يثرب بعد وفاة نبى الله موسى عليه السلام على أثر عودة الحملة العسكرية التى ذكر الإخباريون الإسلاميون أن نبى الله موسى أرسلها (قبيل موته) لإخضاع وإبادة جبابرة العمالقة الذين يقطنون يثرب والمناطق الشمالية والشرقية والغربية من الحجاز بما فى ذلك خيبر . هذه الحملة التى (كما يقول المؤرخون الإسلاميون) مات نبى الله موسى

---

(١) يقسم مؤرخو العرب ، الأجيال العربية إلى أنواع ثلاثة :

١ ــ العرب البائدة ، وهم الذين انقرضوا انقراضاً كاملا ولم يبق لهم من عقب أو نسل ، ومن هؤلاء طسم وجديس وعاد وثمود والعمالقة وعبيل .

٢ ــ العرب العربى ، وهم القحطانيون الذين كانوا أول من تكلم العربية وموطنهم الأصلى اليمن وحضرموت .

٣ ــ العرب المستعربة ، وهم العدنانيون وكل أبناء نبى الله إسماعيل منهم ، لأن لغة إسماعيل الأصلية (لغة أبيه إبراهيم عليه السلام) السريانية ، إلا أن إسماعيل جد العدنانيين كان أول من تكلم العربية لغة أصهاره القحطانيين الذين تزوج منهم ونشأ بينهم فى مكة .

انظر تفصيلا أوسع عن قصة اتصال اليهود بجزيرة العرب ، فى الفصل الأول من كتابنا الرابع (غزوة بنى قريظة) .

وهى فى طريق عودتها من الحجاز بعد أن أبادت جميع العمالقة المفسدين فلم يسمح لها خلفاء النبى موسى عليه السلام بالإقامة فى الشام بسبب أن رجال هذه الحملة أبقوا على أسير واحد من العمالقة لم يقتلوه ، وذلك مخالف لشريعة اليهود ، التى تقضى كما فى الإصحاح العشرين من سفر التثنية فى التوراة بإعدام جميع أسرى العدو .

ويقول هؤلاء المؤرخون أن رجال هذه الحملة لما منعهم خلفاء النبى موسى من دخول الشام عادوا إلى الحجاز واستوطنوا يثرب والمناطق الشمالية والشرقية من الحجاز وأن يهود خيبر ، هم من بقايا رجال هذه الحملة التى استوطنت يثرب وخيبر منذ حوالى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد .

وقد ذكر هذا القول ابن خلدون وأبو الفرج الأصبهانى والسمهودى [١] وغيرهم .

ويرى الفريق الآخر من المؤرخين (وبينهم بعض الأوربيين) أن الوجود اليهودى فى خيبر لم يكن إلا بعد الميلاد بحوالى ثمانين سنة .

ومن هذا الفريق الإمام الطبرى الذى ذكر فى تاريخه أن أول قدوم اليهود إلى الحجاز إنما كان بعد أن وطئ بختنصّر الشام وخرّب بيت المقدس .

وقد أشار الدكتور جواد على فى كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام) ج٦ ص ١٧ قائلاً : (وزعم أن يهود خيبر من نسل (ركاب) المذكور فى التوراة ــ الملوك الثانى الإصحاح العاشر الآية ١٥ - ٢٨ ــ وأن يوناذب (جندب) تبدّى مع أبنائه ومن اتبعه وعاش عيشة تقشف وزهد وخشونة وأن نسلهم هاجر بعد خراب الهيكل الأول إلى الحجاز حتى بلغوا خيبر فاستقروا بها واشتغلوا بزراعة النخيل والحبوب وأقاموا فيها قلاعاً وحصوناً تحميهم من غارات الأعراب عليهم وقد أُخرجوا منها وأُجلوا عنها فى زمان عمر بن الخطاب) اهـ .

وبعض المؤرخين يذكرون أن يهود خيبر ليسوا من بنى إسرائيل ، وإنما

---

(١) انظر كتاب العبر لابن خلدون القسم الأول المجلد الثانى ج ٢ ص ١٦٨ والأغانى للأصبهانى قصة اليهود ج ١٩ ووفاء الوفاء للسمهودى ج ١ ص ١٥٦ وما بعدها .

هم من أبناء العرب الذين دانوا باليهودية ، وقد ذكر ابن إسحاق (كما رواه عنه ابن هشام) أن عائلة مرحب فارس خيبر المشهور الذى قتله على بن أبى طالب هو من قبيلة حمير .

وهناك رأى آخر يشير إلى أن صلة بنى إسرائيل بخيبر ويثرب كلها إنما كانت فى عهد نبى الله الملك داود ، (أى بعد موسى وقبل المسيح) .

وقد ذكر هذا الرأى السمهودى فى كتابه (وفاء الوفاء) ج ١ ص ١٥٨ فقال :

إن نبى الله داود غزا العماليق فى المدينة فسلط الله عليهم الدود فى أعناقهم فهلكوا عن آخرهم .

وذكر بعض المؤرخين أن سبب نزول اليهود خيبر والحجاز هو أن بعض علمائهم كانوا يجدون صفة رسول الله ﷺ فى التوراة وأنه يهاجر إلى بلد فيه نخل بين حرتين فأقبلوا من الشام يطلبون الصفة ، فلما رأوا تيماء وفيها النخل ، نزلها طائفة منهم ، وظن طائفة أنها (خيبر) فنزلوها ومضى أشرافهم وأكثرهم إلى يثرب فنزلوها واستوطنوها .

نقل هذا (أيضاً) السمهودى فى كتابه (وفاء الوفاء) ج ١ ص ١٦٠ عن ابن النجار ، إلا أنه (كما هى عادة المؤرخين القدامى) لم يحدد التاريخ الذى جاء فيه هؤلاء اليهود إلى خيبر ويثرب . وإنما اكتفى بذكر السبب فقط .

والذى لا جدال فيه (حسب ما رواه الإخباريون الإسلاميون) هو أن اليهود لجأوا إلى الحجاز (وخيبر من الحجاز) فى فترتين رئيسيتين :

الفترة الأولى حوالى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد بعيد وفاة نبى الله موسى عليه السلام .

والفترة الثانية بعد الميلاد عقب استيلاء الرومان على فلسطين وتخريب الهيكل عام ٧٠ ميلادية وعقب تنكيل (هيدريان) بالعبرانيين عام ١٢٢ م .

وقد أشار سفر (صموئيل الأول) من التوراة إلى أن اليهود سكنوا يثرب وأعالى الحجاز (وخيبر من أعالى الحجاز) سكنوها (كما يقول السفر)

منذ العهد الذى أرسل فيه نبى الله موسى ذلك الجيش لإبادة العمالقة فى منطقة يثرب وخيبر وكل أعالى الحجاز [1] .

وقد جزم الدكتور جواد على الذى هو أكثر المؤرخين اعتناء بتاريخ العرب قبل الإسلام جزم فى كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام) [2] بعدم صحة ماتناقله الإخباريون من أن الوجود اليهودى فى خيبر وكل أعالى الحجاز يرجع إلى أواخر عهد النبى موسى عليه السلام قائلاً :

أما متى دخل اليهود منطقة يثرب وكيف استقروا فى خيبر والمناطق الأخرى فعلم ذلك عند الله . وليس الذى يرويه أهل الأخبار عن إرسال موسى جيشاً إلى الحجاز واستقرار ذلك الجيش فى يثرب بعد فتكه بالعماليق وبعد وفاة موسى ، ثم ما يذكرونه من هجرة داود مع سبط يهوذا ثم عودته إلى إسرائيل [3] .. وأمثال هذا إلا قصصاً من هذا النوع الذى ألفنا قراءته فى كتب أهل الأخبار ، لاأستبعد أن يكون مصدره يهود تلك المنطقة أو من أسلم منهم لإثبات أنهم ذوو نسب وحسب فى هذه الأرضين قديم .. وأنهم كانوا ذوى بأس شديد ، وأن تاريخهم فى هذه البقعة يمتد إلى أيام الأنبياء وابتداء إسرائيل وأنهم لذلك الصفوة المختارة من العبرانيين .

غير أن الدكتور جواد على إذا كان قد نفى أن يكون اليهود قد استوطنوا خيبر ويثرب وباقى مناطق الشمال قبل الميلاد (كما يذكر المؤرخون الإسلاميون) فإنه أكد صحة أخبار استيطانهم لهذه المناطق بعد الميلاد على أثر ظهور الرومان واستيلائهم على فلسطين فقد قال فى كتابه المذكور : [4]

(أما ما ورد فى روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود إلى أطراف يثرب وأعالى الحجاز على أثر ظهور الروم فى بلاد الشام وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم بهم مما اضطر ذلك بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء الآمنة البعيدة عن مجالات الروم ، فإنه يستند إلى أساس تاريخى صحيح)

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ١٠ .

(٢) ج ٦ ص ٩ وما بعدها .

(٣) انظر تاريخ الطبرى وكتاب الأغانى ج ١٩ ص ٩٤ وما بعدها الطبعة القديمة ، ووفاء الوفاء ج ١ ص ١٦٠ .

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ١٠ .

ولست أدرى لماذا اعتبر الدكتور جواد على أخبار المؤرخين الإسلاميين التى تقول بوجود اليهود فى خيبر وكل مناطق الشمال قبل الميلاد أخباراً غير صحيحة ، وجزم بصحة روايات الإخباريين الذين قالوا : أن هجرة اليهود إلى خيبر وغيرها من المناطق إنما كان بعد الميلاد ؟

إن الدكتور جواد على لم يقدم لنا دليلا قاطعاً على صحة ما ذهب إليه ، سوى الافتراض والافتراض لا يكون أساساً صحيحاً من الناحية التاريخية .

لقد قال الدكتور جواد على : فالذى نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدى إلى هجرة عدد كبير من اليهود إلى الخارج ، فلا يستبعد أن يكون أجداد يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين اهـ .

والحقيقة أن كل أخبار ما قبل الإسلام من تاريخ الأمم الغابرة لا يمكن الجزم بصحتها أو ببطلانها ، بل هى محتملة أن تكون قد حدثت وأن لا تكون قد حدثت فهى دائما (سواء ما كان منها قبل الميلاد أو بعده) محل الافتراض ، اللهم إلا ما ورد بها نص صريح فى القرآن أو الحديث يؤكد صحتها .

وعليه فإنه إذا كان (كما قال الدكتور جواد على) : يحتمل أن يكون يهود خيبر وباقى المناطق هم من نسل المهاجرين الفارين من اضطهاد الرومان بعد الميلاد عام ٧٠ ، أو ١٢٢ ، فإنه يحتمل كذلك أن يكون هؤلاء اليهود هم من نسل الذين عادوا إلى الحجاز قبل الميلاد عقيب وفاة النبى موسى عليه السلام ، وأنهم استوطنوا خيبر ويثرب وباقى المناطق قبل الميلاد كما يقول الطبرى وابن إسحاق وصاحب الأغانى وكل الإخباريين الإسلاميين .

لأن الذين رووا هجرة بعض اليهود إلى الحجاز عقب خراب الهيكل بعد الميلاد ، هم أنفسهم الذين رووا هجرة بعض هؤلاء اليهود عقيب وفاة النبى موسى عليه السلام قبل الميلاد .

وإذا كان شيوع قصة خراب الهيكل بعد الميلاد هو سند الدكتور جواد على فى تصحيح ما ذهب إليه أو رجحه من أن هجرة اليهود إلى خيبر

إنما كانت بعد الميلاد ، وإبطال ماذكره المؤرخون الإسلاميون من وجود اليهود فى خيبر والحجاز قبل الميلاد ، فإن هناك قصة روتها أصدق المصادر (وهو القرآن) وهى قصة انهيار سد مأرب ونزوح اليمانيين إلى يثرب عقيب هذا الانهيار .. هذه القصة التى هى أكثر شيوعاً بين المؤرخين العرب أصحاب الاختصاص من قصة خراب الهيكل ترجح أكثر فأكثر أن العنصر اليهودى الدخيل كان موجوداً فى المنطقة قبل الميلاد وقبل خراب الهيكل وقبل تنكيل هدريان باليهود فى فلسطين .

ذلك أن قصة هجرة أجداد الأوس والخزرج من اليمن إلى منطقة الحجاز عقيب انهيار سد مأرب وسكناهم إلى جانب اليهود فى يثرب وصراعهم معهم حتى تغلبوا عليهم تكاد تكون (بين عامة المؤرخين) من الأخبار المتواترة .

فهذه القصة – مع افتقارها إلى التحديد الدقيق فى الوقت بالسند الصحيح – هى على كل حال ترجح كفة القائلين بوجود اليهود فى المنطقة قبل الميلاد أكثر من كفة القائلين بأنهم لم يهاجروا إلى خيبر وباق المناطق إلا بعد خراب الهيكل وهو ماقال الدكتور جواد على أنه يستند إلى أساس صحيح .

نقول هذا لأنه يكاد يكون من المتواتر أن انهيار سد مأرب فى اليمن وهجرة الأوس والخزرج إلى الحجاز وتصارعهم مع اليهود فى يثرب إنما كان قبل خراب الهيكل بعشرات السنين ، إذ أنه كان على أقل تقدير فى أوائل السنة الميلادية .

وهذا يعنى أن اليهود كانوا موجودين فى خيبر ويثرب قبل الميلاد ، لأن سلطان اليهود الدخيل لايمكن أن يكون على تلك القوة فى المنطقة إلا بعد أن يكون قد مرّ عليهم عشرات السنين قبل الميلاد .. إذ لم يكن هناك خلاف بين المؤرخين فى أن الأوس والخزرج الذين هاجروا من اليمن فى أوائل القرن الميلادى الأول إلى الحجاز قد وجدوا اليهود هناك وظلوا ينازعونهم السلطان عشرات السنين حتى تغلبوا عليهم فى يثرب .. وهذا (دونما شك) يرجح ماذهب إليه المؤرخون الإسلاميون من أن اليهود قد استوطنوا خيبر ويثرب إما عقيب وفاة النبى موسى عليه السلام وإما فى عهد الملك (النبى)

داود عليه السلام على ماذكره الطبرى وغيره .

وهذا مجرد ترجيح فى مجال الافتراض ، لأن قصة هجرة الأوس والخزرج إلى يثرب وقصة هجرة اليهود فى كلا الفترتين لا يمكن تحديد أى منهما تحديداً دقيقا لأنهما (كما قلنا) من الأخبار التى تحتمل الصحة والبطلان والتحديد فيهما لا يكون إلا من باب الافتراض ، لأن أخبار ما قبل الإسلام لا يمكن الجزم بإثباتها أو نفيها اللهم إلا ماورد فيه نص إسلامى صريح بهذا النفى أو ذاك الإثبات .

اليهود عنصر دخيل فى الجزيرة :

وعلى كل حال – وسواء استوطن اليهود خيبر وباقى المناطق قبل الميلاد أو بعده – فإن المجمع عليه عند جميع المؤرخين (إسلاميين وأجانب) أن اليهود فى خيبر ويثرب وباقى المناطق هم أجانب دخلاء مستعمرون لا تربطهم بأى من سكان هذه المناطق فى جزيرة العرب أية رابطة من لغة أو دين أو دم ، وإنما هم غزاة ، أو لاجئون سيطروا على خيبر ويثرب وباقى المناطق فى غفلة من الزمن وفى وقت كان العرب الوثنيون فيه تمزقهم روح الجاهلية القبلية الضيقة التى ساهم وجودها وتحكمها فى المجتمع العربى .. فى التمكين لهؤلاء اليهود الدخلاء فى هذه المناطق من جزيرة العرب .. الذين زادوا المجتمعات العربية فساداً على فساد ، كما هى طبيعة العنصر اليهودى الذى لا يكون له نفوذ فى أرض إلا وأشاع فيها الفساد وبذر بذور الشحناء وأشعل نيران التفرقة والتخاصم بين أهلها .

وقد ظل العنصر اليهودى الدخيل هذا شأنه منذ استوطن خيبر وباقى الأجزاء الأخرى من الجزيرة العربية حتى اقتلع النبى ﷺ جذور هذا العنصر نهائياً بالعمليات الحربية التى قام بها فى خيبر وباقى النقاط الأخرى التى كانت واقعة تحت سلطان هؤلاء اليهود المحتلين .

شجاعة يهود خيبر وقوة وحدتهم :

وشىء يجب أن لا يغيب عن بال المؤرخ وهو أن يهود خيبر كانوا (عبر العصور) بالإضافة إلى تفوقهم على جميع اليهود من ناحية الشجاعة والصبر على القتال .. كانوا غاية من الوحدة والتماسك فيما بينهم .. عكس

اليهود الآخرين الذين لم ينجو من آفات الاختلاف - بل والاقتتال فيما بينهم أحياناً - . كما أن يهود خيبر لم ينشب بينهم وبين جيرانهم العرب الوثنيين أى نزاع مسلح . مما ساهم فى جعلهم أقوى قوة يهودية دخيلة فى بلاد العرب .

فإذا كان يهود يثرب (مثلًا) لم يسلموا من نشوب حرب أهلية قبلية فيما بينهم فرقت وحدتهم وصدعت كيانهم ، كما حدث بين بنى قينقاع وبنى النضير من تخاصم وتقاتل وعداء شديد ظل أثره باقياً بينهما حتى بعد ظهور الإسلام ومخاصمة الفريقين له .

إذا كان يهود يثرب قد تعرضوا لهذه الانشقاقات والاصطدامات الدامية فيما بينهم عبر وجودهم فى يثرب .. فإن يهود خيبر لم يرو أحد من المؤرخين (فيما أعلم) أنهم تعرضوا (منذ أن وطئت أقدامهم منطقة خيبر) لشيء مما تعرض له يهود يثرب من اختلافات شديدة واصطدامات دامية .

الأمر الذى جعل يهود خيبر (طيلة وجودهم الاستعمارى) فى هذه المنطقة متحدين لم تبدد شيئاً من طاقاتهم العسكرية أو وحدتهم السياسية حروب أهلية أو نزاعات قبلية كما هو الحال بالنسبة ليهود يثرب .

كما أن يهود يثرب ، إذا كانوا قد تعرضوا فى الفترة التى مرت على وجودهم (قبل الإسلام) لضربات عسكرية عنيفة من جيرانهم العرب كادت تقتلع وجودهم وتهدم كيانهم فى يثرب كما حدث لهم فى أوئل القرن الأول من الميلاد على أيدى المهاجرين اليمانيين من منطقة (مأرب) - الأوس والخزرج - الذين منذ استقرارهم فى يثرب ظلوا ينازعون هؤلاء اليهود السلطان لاستئثارهم بالمناطق الزراعية الخصبة (دونهم) فى المدينة . ولنظرة هؤلاء اليمانيين إلى هؤلاء اليهود كعنصر أجنبى دخيل على بلاد العرب ، الأمر الذى ساعد على إشعال نار المقت فى نفوس اليمانيين ، حتى تمكنوا من خضد شوكتهم بمساعدة إخوتهم الغساسنة اليمانيين الذين خفوا لنجدتهم من الشام . ثم من قهرهم نهائياً بقيادة مالك بن العجلان الذى وضع حداً (قبل الإسلام) لسلطان هؤلاء اليهود المطلق على يثرب .

فقد ذكر المؤرخون أن الضربة العنيفة التى أنزلها الأوس والخزرج باليهود بقيادة سيد الأوس والخزرج مالك بن العجلان (قبل الإسلام بعدة

قرون) كادت تستأصل شأفة العنصر اليهودى الدخيل لولا أن زعماء هؤلاء اليهود انحنوا للعاصفة فسلموا بالهزيمة ثم (لكى ينجوا من الهلاك) قبلوا الانضواء (بالحِلف) تحت لواء مختلف القبائل اليمنية المنتصرة عليهم (الأوس والخزرج) فاندمجوا فيهم ، وبذلك ضمنوا سلامة أرواحهم وممتلكاتهم ، ولكن على حساب التسليم بهدم سلطانهم السياسى والعسكرى الذى كان سائداً على يثرب .

وهكذا فإن يهود يثرب إذا كانت الهزات العنيفة التى زلزلت سلطانهم ومزقت وحدتهم ، سواء بسبب تعرضهم لهجمات المهاجرين اليمانيين الضاربة أو بسبب النزاعات القبلية المسلحة التى نشبت بين اليهود أنفسهم قبل ظهور الإسلام بعدة قرون ، فإن يهود خيبر ظلوا (طيلة وجودهم الاستعمارى) بمنجاة عن مثل هذه الهزات الخطيرة التى ذهبت بسلطان اليهود فى يثرب .

الأمر الذى أبقى على وحدة يهود خيبر وتماسكهم . وذلك دونما شك من أعظم أسباب تفوقهم فى القوة والمنعة والشجاعة على جميع العناصر اليهودية الدخيلة المبعثرة فى ذلك الركن من جزيرة العرب .

فالمؤرخون مجمعون على أن يهود خيبر أشجع وأقوى العناصر اليهودية المحاربة فى جزيرة العرب دونما استثناء .

ولعل أكبر دليل على صحة هذا القول ، هو أن يهود يثرب (بالرغم من كونهم أكثر عدداً وأوسع ثراءاً من يهود خيبر) فإنهم قد جبنوا عن مواجهة المسلمين فى أية معركة فاصلة ، إذ فضّلوا الاستسلام ثم النفى على خوض أية معركة فاصلة عندما وصلوا فى عدائهم للمسلمين إلى درجة النزاع المسلح كما حدث لبنى قينقاع ثم بنى النضير وأخيراً بنى قريظة[1] .

---

(١) كان لمالك بن العجلان اليمانى فضل كبير (قبل الإسلام) فى خضد شوكة اليهود فى يثرب وجعلهم تبعاً لليمانيين الذين سماهم الله فيما بعد (الأنصار) وذلك بعد أن كان هؤلاء اليهود الدخلاء ذوى سطوة وجبروت وطغيان فى منطقة يثرب ، وخاصة ملكهم الطاغية (الفطيون) .

فقد ذكر السمهودى فى كتابه (وفاء الوفاء ج ١ ص ١٧٩) أن (الفطيون) كان قد أجبر سكان يثرب من اليهود وغيرهم على أن لا تزف عروس إلى زوجها حتى تدخل عليه فيفتضها ثم ترسل

ولن نذهب بعيداً لتأييد هذا القول فالتاريخ ينبؤنا بأن المسلمين فى نزاعهم المسلح مع العناصر اليهودية الدخيلة فى بلاد العرب لم يلاقوا من المقاومة مثلما لاقوا من يهود خيبر حيث اشتبكوا معهم فى معارك ضارية دافع فيها اليهود عن معاقلهم حصناً حصناً .. ولم تستسلم حصونهم إلا بعد أن سقط جميع قادتهم وزعمائهم قتلى فى هذه المعارك .

ولقد جعلت هذه الشجاعة والشراسة التى أبداها يهود خيبر فى مقاومتهم .. جعلت بعض المؤرخين (منهم بعض الأوروبيين) يعتقدون أن يهود خيبر هم من أصل عربى دانوا (على مدى العصور) باليهودية. وقد ذكر إمام المغازى ابن إسحاق أن أسرة آل مرحب اليهودية فى خيبر هم من قبيلة حمير اليمنية [1] .

= لزوجها وظل يمارس هذا العمل الفظيع ردحاً من الزمن فلما نزل الأوس والخزرج يثرب بعد انهدام سد مأرب أراد طاغية اليهود (الفطيون) أن يسير فيهم بتلك السيرة المهينة .

إذ تزوجت أخت مالك بن العجلان اليمانى رجلا من بنى سليم فى يثرب فأرسل الفطيون رسولًا فى ذلك طالباً أن تدخل عليه العروس كالعادة قبل أن تزف إلى زوجها ، وكان مالك أخوها غائباً ، فخرجت هاربة من العار تطلبه ، فمرت بقوم فيهم أخوها مالك ، فنادته ، فقال : لقد جئت بسبة الدهر يا هنتاه ، تنادينى ولا تستحى ؟ فقالت : الذى يراد بى أكبر ، ثم أخبرته بأن الفطيون طلبها قبل أن تدخل على زوجها ، فثارت حمية مالك وقال لأخته : أنا أكفيك ذلك ، فقالت : وكيف ؟ فقال أتزيا بزى النساء وأدخل معك عليه (أى الفطيون) فأقتله .. فلما أمسى مالك اشتمل على السيف ودخل على (الفطيون طاغية اليهود) متنكراً مع النساء فلما خف من عنده ، وثب عليه فقتله ، ثم أخذ أخته وانصرف بها إلى دار قومه بعد أن مسح عن سكان يثرب أشنع عار كانوا يوصمون به . فثارت ثائرة اليهود لقتل ملكهم الفطيون وأرادوا أن يوقعوا بالعرب ، إلا أن مالك بن العجلان توجه فى وفد من قومه إلى من بالشام من قومهم (الغساسنة) ، وهناك دخل على ملك الغساسنة (أبى جبيلة) وشكا له طغيان اليهود الدخلاء وغلبتهم على عرب يثرب وأنهم يخشون أن يطردهم اليهود من ديارهم (وخاصة بعد مصرع ملكهم الفطيون) ثم طلب النجدة من ملك غسان ، فلبى طلبه وتوجه بنفسه إلى يثرب على رأس جيش عظيم ، ولما وصل أبو جبيلة يثرب أوقع باليهود وأحدث فيهم مقتلة عظيمة أبيد فيها أكثر قادة وزعماء اليهود ، فعزت الأوس والخزرج بعد ذلك ولم يقم بعد هذه الحادثة لليهود فى يثرب أى سلطان يخشاه العرب من الناحية العسكرية حتى جاء الله بالإسلام فعم سلطانه العادل جميع شبه الجزيرة فى العهد النبوى فنسخ بذلك ما تبقى لليهود الدخلاء من نفوذ فى أى مجال من المجالات (انظر كتابنا ، غزوة بنى قريظة فى الفصل الأول والثانى الخاص بتاريخ اليهود فى يثرب) .

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ .

حياد يهود خيبر :

ذاكم هو موجز عن تاريخ صلة يهود خيبر بجزيرة العرب قبل الإسلام .. وشىء آخر يجب أن لا يغيب عن البال (وقد يحتاج إلى تفسير) ، وهو أن يهود خيبر بالرغم من شدة بأسهم فى الحرب وكثرة عددهم .. وبالرغم من أنهم يتفقون فى العقيدة والمذهب مع يهود يثرب . فإن يهود خيبر هؤلاء ، قد ظلوا طيلة مئات السنين (قبل الإسلام) على الحياد بالنسبة للنزاعات المسلحة العنيفة التى نشبت وظلت ناشبة عشرات السنين بين العرب اليمانيين (الأوس والخزرج) النازحين من اليمن وبين يهود يثرب كما تقدم وكما هو مفصل فى كتابنا (غزوة بنى قريظة) .

فلم يذكر (فيما وصل إلى علمى) أحد من المؤرخين أن يهود خيبر (قبل الإسلام) خفوا لنجدة إخوتهم يهود يثرب بالرغم من أنهم لا تفصلهم عنهم سوى مسافة قصيرة لا تزيد على مائة ميل .. بينما نرى الغساسنة تفصلهم عن إخوتهم فى يثرب آلاف الأميال حيث كانوا يقطنون سوريا آن ذاك [1] .

موقف خيبر عند ظهور الإسلام :

لا شك أن يهود خيبر كإخوتهم يهود يثرب لم يكن موقفهم من الإسلام عند ظهوره موقف الترحيب ، بل موقف المعارضة هذا مما لا جدال فيه وأثبتته الأحداث فيما بعد .

إلا أن يهود خيبر هؤلاء ظلوا (حتى السنة الرابعة من الهجرة) على الحياد بالنسبة للصراع الذى كان دائراً بين المسلمين ويهود يثرب الذين حاولوا - بكل الوسائل - تقويض دعائم الدعوة الإسلامية والقضاء على نبىِّ الإسلام ﷺ .

فلم يرو أحد من المؤرخين (فيما أعلم) أن يهود خيبر قاموا بأى عمل عدائى مسلح ضد المسلمين منذ ظهر الإسلام حتى السنة الرابعة للهجرة وهى السنة التى اختار فيها يهود بنى النضير أن تكون خيبر منفى لهم

---

(١) انظر التفاصيل فى الفصل الأول من كتابنا (غزوة بنى قريظة) .

عندما تم إجلاؤهم عن المدينة بموجب اتفاقية الصلح التى تمت بينهم وبين النبى ﷺ عقب ضربه الحصار على حصونهم فى يثرب بعد اكتشاف مؤامرة الاغتيال التى دبروها لقتله ﷺ عندما كان فى ديارهم آمناً.[1]

ولم يرو أحد من المؤرخين أن يهود خيبر قاموا بتقديم أى عون مادى لإخوتهم يهود يثرب عندما تحول الخلاف بينهم وبين المسلمين إلى نزاع مسلح .. بل ظل يهود خيبر على الحياد حيال هذا النزاع المسلح إلى أن نزل عليهم شيطان بنى النضير (حيى بن أخطب) منفياً وقومه من المدينة فى السنة الرابعة من الهجرة .

التحول الخطير فى موقف خيبر :

ففى هذه السنة طرأ تحوّل خطير على موقف الحياد الذى كانت خيبر تلتزمه إزاء النزاعات المسلحة التى نشبت عبر العصور بين المشركين العرب (الأوس والخزرج) وبين يهود يثرب قبل الإسلام ، ثم بين هؤلاء اليهود وبين المسلمين بعد بزوغ شمس الإسلام .

وكر للتآمر على المسلمين :

فلم يكد بنو النضير (بقيادة شيطانهم حيى بن أخطب) ينزلون على خيبر ويستقر بهم المقام فيها حتى تحولت من منطقة حيادية إلى أخطر وكر تحاك فيه الدسائس وترسم فيه خطط التآمر على الإسلام والمسلمين تحت إشراف سادات يهود بنى النضير المنفيين من المدينة .

لمحة من تاريخ بنى النضير :

وبالرغم من أننا قد ذكرنا الشيء الكثير عن تاريخ يهود بنى النضير فى كتبنا الثلاثة (غزوة أُحد) و(غزوة الأحزاب) و(غزوة بنى قريظة) إلا أنه يستحسن إعطاء القارئ هنا لمحة عن تاريخ هؤلاء اليهود الذين بنزولهم على خيبر طرأ عليها ذلك التحول الخطير الذى كان سبباً فى نسف ما تبقى من الكيان اليهودى الدخيل فى جزيرة العرب .

لقد كان بنو النضير إحدى القبائل اليهودية الرئيسية الثلاث التى

---

(١) انظر كتابنا : غزوة الأحزاب : الفصل الخاص بإجلاء بنى النضير .

استوطنت منطقة يثرب العربية منذ عدة قرون .

والفئات أو القبائل الرئيسية الثلاث هم :

١ - بنو النضير .

٢ - بنو قينقاع .

٣ - بنو قريظة .

ويعتبر يهود بنى النضير أقوى الفئات اليهودية الثلاث وأكثرهم نفوذاً بين اليهود فى يثرب كما يعتبر بنو النضير أغنى يهود يثرب على الإطلاق .

يضاف إلى ذلك أن بنى النضير يعتبرون أنفسهم أرفع اليهود نسباً وأرقاهم حسباً ويرون أن لهم السيادة والشرف على جميع فئات اليهود لأنهم (بزعمهم) من نسل نبى الله هارون بن عمران عليه السلام ولهذا يقال لهم ولإخوانهم بنى قريظة : (الكاهنين) لانتسابهم بزعمهم إلى النبى هارون بن عمران الذى يسميه اليهود بالكاهن [1] .

أعداء النبى ﷺ رقم (١) :

وإذا استعرضنا تاريخ مراحل النزاع والصراع بين المسلمين ويهود يثرب (منذ ظهور الإسلام) وجدنا أن يهود بنى النضير هم أشد الفئات اليهودية عداوة للمسلمين وأكثرهم جرأة على النبى ﷺ وأشدهم تحرشاً بالمسلمين وإعناتاً لنبيهم ﷺ وخاصة زعماءهم (حيى بن أخطب وأخيه ياسر ، وسلّام بن مِشكَم) .

ويكفى للتدليل على ذلك أن نورد هنا قصة رواها إمام المغازى محمد ابن إسحاق ، هذه القصة تحكى واقع البغض العارم والحقد القاتل الذى يغتلم فى قلوب سادات بنى النضير للنبى الأعظم ﷺ وتوطيد هؤلاء اليهود أنفسهم على العمل ضد النبى ﷺ حتى الممات بالرغم من تأكدهم من أنه النبى المنتظر الذى بشَّر به موسى عليه السلام كما يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة .

---

(١) انظر الأغانى ج ١٩ ص ١٩٦ ، وتاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ١٣ وغزوة بنى قريظة ص ٣٥ .

فقد روى ابن إسحاق أن سيدى بنى النضير (حيى بن أخطب وأخاه ياسر) لما علما بوصول النبى ﷺ - أول ما وصل مهاجراً - ذهبا وقابلاه فى (قبَا) ليلة وصوله ولدى هذه المقابلة تأكد لهما من صفاته إنه هو النبى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة .. وبدلا من أن يتبعا الحق الذى عرفاه فيؤمنا بالنبى ﷺ تأججت نيران الحقد والبغض والحسد له فى نفوسهما .

وقد تجسد هذا الحسد والبغض والجحد للحق فى مناقشة سرية بينهما عقب انصرافهما من مجلس النبى ﷺ فى (قُبَاء) فقد سأل ياسر بن أخطب أخاه حييا قائلا أهو ، هو ؟ (يعنى النبى ﷺ) .

حيى : نعم والله .

ياسر : أتعرفه وتثبته ؟؟

حيى : نعم .

ياسر : فما فى نفسك منه ؟ .

حيى : عداوته مابقيت [1] .

سمعت هذا النقاش أو الحوار إحدى أمهات المؤمنين صفية بنت حيى بن أخطب وهى لما تزل صبية فى المدينة تلعب فى مجلس أبيها وعمها [2] .

ولم يحنث سيد بنى النضير الخبيث قسمه فقد ظل وكل بنى النضير على عداوتهم الشديدة للنبى ﷺ ولم يتركوا سبيلا للكيد للإسلام والتآمر عليه وعلى نبيه بقصد قطع تيار دعوته إلا وسلكوها دونما تردد .

فقد ظل يهود بنى النضير (وعلى رأسهم شيطانهم حيى بن أخطب) يثيرون المتاعب ويضعون العراقيل فى وجه النبى ﷺ بقصد إطفاء شعلة الدعوة الإسلامية مستغلين تسامح النبى ﷺ والحرية الكاملة التى أعطاهم إياها الإسلام فى شؤونهم الخاصة ومتسترين وراء معاهدة التحالف التى أبرمها النبى ﷺ معهم ومع سائر الفئات اليهودية عند قدومه إلى يثرب .

---

(١) سيرة ابن هشام .

(٢) انظر تفاصيل هذه القصة فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

التآمر على حياة النبى ﷺ :

ولم يكتف يهود بنى النضير بالسعى (بمختلف الوسائل) لإثارة الفتنة بين مختلف الفئات والقبائل داخل المجتمع الإسلامى فى يثرب بقصد شل حركة الدعوة الإسلامية وإطفاء نورها .. ولم يكف هؤلاء اليهود النجاح الذى حققوه بإنشاء طبقة باطنية خطيرة تعمل لتخريب العقيدة الإسلامية وتمزيق وحدة المسلمين وهى طبقة المنافقين الذين يعملون ضد الإسلام ضمن إطار المجتمع الإسلامى لانتسابهم إلى الإسلام فى الظاهر .. والذين فى واقعهم ليسوا إلا أجهزة تخريب باطنية سرية تعمل لحساب اليهود (وخاصة بنى النضير) .

ولم يكتف يهود بنى النضير بكل تلك الأعمال الممقوتة التى باشروها ضد الإسلام والمسلمين وكادوا بها أن يقوضوا دعائم المجتمع الإسلامى الناشئ الجديد بما أثاروا (خلال الأربع السنوات) من فتن ودسائس ومؤامرات داخل المجتمع الإسلامى والتى وصل نجاحهم فيها أحياناً إلى أن جعلوا الحيين الرئيسيين (الأوس والخزرج) يشهر أحدهما السلاح فى وجه الآخر بعد اعتناقهما الإسلام [1] .

لم يكتف يهود بنى النضير بذلك كله ، بل وصلت بهم الجرأة والتمادى فى الغى واستغلال التسامح النبوى إلى أن يفكروا فى التخلص من النبى ﷺ شخصياً بالقتل ، ويرسموا لذلك مخطط اغتيال غادر بشع ، ويحاولوا تنفيذ هذا المخطط الجهنمى بقتل النبى ﷺ غدراً وهو آمن فى ديارهم وأعزل من السلاح وعلى بعد عدة أميال من المدينة .

إلا أن النبى ﷺ اكتشف مؤامرة اغتيالية فى ديارهم قبل تنفيذها بقليل ، فغادر ديار هؤلاء اليهود بطريقة سرية مستعجلة وبذلك نجا من تلك المؤامرة الدنيئة فأحبط مفعول ذلك المخطط الخبيث الذى كان يهود بنى النضير قاب قوسين أو أدنى من تنفيذه .

---

(١) انظر تفاصيل محاولة اليهود إثارة الفتنة بين المسلمين فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) ص ١٠٥ الطبعة الرابعة .

إجلاء بنى النضير إلى خيبر :

وكان (حتى تاريخ تلك المؤامرة) يوجد بين النبى ﷺ ويهود بنى النضير عهد تحالف ومعاهدة عدم اعتداء واتفاق تعايش سلمى حافظ المسلمون عليها كل المحافظة وطبقها النبى ﷺ فى معاملته لهؤلاء اليهود نصاً وروحاً .

غير أن النبى ﷺ بعد اكتشافه تلك المؤامرة اليهودية تأكد لديه أنه من المستحيل الركون إلى هؤلاء اليهود والتعايش معهم أو الوثوق بما أعطوا من عهود ومواثيق لأنه بات واضحاً (على ضوء التجارب العملية) أن هؤلاء اليهود لا يتمسكون بالعهود والمواثيق التى يبرمونها مع غيرهم إلا عندما تكون فى صالحهم وأنهم لا يتورعون عن خرقها والتنكر لها عندما يرون أن ذلك يعود عليهم بالنفع ويكون فى مقدورهم الإقدام عليه ، كما فعلوا عندما ظنوا أن الفرصة قد واتتهم للغدر بالنبى ﷺ وقتله بين منازلهم غِيلَةَ بالرغم من المعاهدة القائمة بينه وبينهم والتى اعتماداً عليها وفى ظلها جاء ﷺ إلى منازل هؤلاء اليهود آمناً أعزلا من السلاح لأن من طبيعة العرب (حتى فى جاهليتهم) الوفاء بالعهد واعتبار الإخلال بالعهد سُبَّة خالدة يأنف العرب من التلوث بأرجاسها .. ولكنهم اليهود ، يضعون العهود والمواثيق تحت أقدامهم عندما يرون أنهم لم يعودوا بحاجة إليها .

وقد اعتبر النبى ﷺ تلك المحاولة الخطيرة التى قام بها يهود بنى النضير لقتله بين منازلهم فى ظل المعاهدة القائمة بين الفريقين اعتبر تلك المحاولة عملا ناسفاً لمعاهدة التحالف واتفاقية عدم الاعتداء القائمة بين المسلمين وهؤلاء اليهود ، فأرسل فى الحال إنذاراً إلى هؤلاء اليهود خاصة بأن يغادروا المدينة فى خلال عشرة أيام فقط وأنهم إن لم يخرجوا من المدينة فإنه سيلجأ إلى محاربتهم كأعداء حربيين لا عهد لهم ولا ذمة بعد الذى أقدموا عليه من محاولة اغتياله بين منازلهم .

ولم يحاول يهود بنى النضير نفى التهمة الموجهة إليهم لأنها أقوى من أن تقبل النفى ، ولم يقدّموا أى اعتذار عما بدر منهم من خيانة وغدر ، بل قبلوا (فى أول الأمر) الإنذار واعتزموا مغادرة المدينة لولا أن رأس النفاق

حليفهم (عبد الله بن أبى بن سلول) حرضهم على رفض الإنذار النبوى والتحصن فى قلاعهم فى المدينة بعد أن أوعدهم بأنه وجماعته الباطنيين المنافقين وحلفاءه من العرب الوثنيين المجاورين سيكونون إلى جانبهم فى الحرب إذا ماأقدم المسلمون على محاربتهم .

وبناءً على تحريض رأس النفاق عدل يهود بنى النضير عن قرارهم فرفضوا الإنذار النبوى وقرروا البقاء فى المدينة ، ثم اعتصموا بحصونهم استعداداً للحرب .

وأمام هذا الرفض لم يرَ النبى ﷺ بداً من محاربتهم فجهز جيشاً لمحاربتهم وإنقاذ يثرب من شرورهم ، فضرب المسلمون الحصار على هؤلاء اليهود بقيادة النبى ﷺ .

وقد شدد المسلمون الحصار على هؤلاء اليهود ولم يحاولوا اقتحام حصونهم لأن الهدف (على ما يظهر) إنما كان إجلاؤهم عن المدينة لا قتلهم .

ولم يصمد يهود بنى النضير طويلًا أمام هذا الحصار الذى دام حوالى عشرين ليلة .. فقد انهارت مقاومتهم لاسيما بعد أن خذلهم حليفهم رأس النفاق (عبد الله بن أُبى) وعصابته الباطنية المنافقة الذين لم يقدموا ليهود بنى النضير أى عون حربى كما وعدوهم .

ولهذا قرر هؤلاء اليهود الدخول مع النبى ﷺ فى مفاوضة على أساس الجلاء من المدينة وهو المطلب الرئيسى الذى تضمنه الإنذار النبوى قبل الحصار .

وقَبِل النبى ﷺ الدخول مع يهود بنى النضير فى المفاوضة .... وتم الاتفاق بين الفريقين على أن يجلو هؤلاء اليهود عن المدينة إلى أى بلاد الله شاءوا .

وقد تضمنت اتفاقية الجلاء هذه بنوداً ثلاثة وهى :

(١) يحق ليهود بنى النضير أن يحملوا من أموالهم معهم ، ما يقدرون على حمله .

(٢) يترك كل مالايقدرون على حمله من أموال منقولة وغير منقولة فى المدينة لبيت مال المسلمين .

(٣) يتكفل المسلمون بحماية أرواح هؤلاء اليهود وأموالهم التى يحملون ما داموا داخل المناطق الخاضعة لحكم الإسلام [١]، وهكذا لم يكن النبى ﷺ شديداً فى معاملة هؤلاء اليهود لأنه تمشياً مع طبيعة الرسالة التى يحملها يميل إلى التسامح ، ولا يميل إلى العنف وسفك الدم إلا إذا أصبح ذلك أمراً لا مفر منه كالإجراء الحازم الذى اتخذه إزاء خونة يهود بنى قريظة [٢] .

بنو النضير فى خيبر :

ولما كانت اتفاقية الجلاء بين النبى ﷺ وبين يهود بنى النضير لا تحتم على هؤلاء اليهود الجلاء عن جزيرة العرب كلياً .. بل تترك لهم الحرية فى أن ينزلوا أى بلد أرادوا (غير يثرب) فقد اختار هؤلاء اليهود النزول فى منطقة خيبر التى لا تبعد عن المدينة أكثر من سبعين ميلًا ، لأنها من الناحية الحربية كانت أقوى معقل لليهود الدخلاء فى جزيرة العرب .. حيث توجد بها جالية يهودية يقدر عدد حملة السلاح بينهم بعشرة آلاف مقاتل [٣] .

أخطر وكر للتآمر على الإسلام :

لقد كان زعماء يهود بنى النضير (وعلى رأسهم حيى بن أخطب وكنانة بين الربيع وسلَّام بن مِشكم) من أشد الناس عداوة للنبى ﷺ ومن أحرص أعداء الإسلام على هدم كيانهم وإبادة أتباعه وإزالتهم من الوجود .

وإذا أضفنا إلى ذلك اعتراف كافة طوائف اليهود فى جزيرة العرب ليهود بنى النضير بمنصب السيادة الروحية عليهم لانتمائهم (بزعمهم) إلى نبى الله هارون بن عمران عليه السلام ، وإذا أضفنا إلى ذلك أيضا ما يتمتع به يهود بنى النضير من مركز مالى ممتاز حيث كانوا أغنى أغنياء اليهود على الإطلاق فى جزيرة العرب . (واليهود على الإطلاق فى كل زمان ومكان لاحتكارهم المعاملات الربوية وقدرتهم على إدارتها يجمعون من الثروات الفاحشة ما لا يقدر غيرهم على جمعه) وخاصة فى البيئات البدائية المتأخرة كبيئة العرب الوثنيين التى أتاحت لليهود عامة وليهود بنى النضير خاصة أن

---

(١) انظر تفاصيل قصة جلاء بنى النضير فى الفصل الأول ص ٥٢ من كتابنا غزوة الأحزاب .

(٢) انظر كتابنا الرابع (غزوة بنى قريظة) .

(٣) انظر مغازى الواقدى ج ٢ .

تكون فى أيديهم (دون منازع) مقابض أزمة ديكتاتورية المال التى أقاموها على قواعد المعاملات الربوية التى لا يحسن أى جيل مباشرتها مثل اليهود .. هذه الديكتاتورية الملعونة التى نسفها الإسلام من القواعد بتشريعه الذى حرَّم المعاملات الربوية تحريماً قاطعاً .

إذا أدركنا هذه الامتيازات التى يمتاز بها يهود بنى النضير من ثراء فاحش وجاه واسع عريض وسيادة روحية مطلقة بين جميع فئات اليهود الدخلاء فى الجزيرة اتضح لنا أى خطر داهم يهدد الإسلام والمسلمين بنزول يهود بنى النضير منطقة خيبر عند نفيهم من المدينة .

خفض الأرض ورفعها :

ولا يفوتنا أن نذكّر القارئ بأن النبى ﷺ لما نفى يهود بنى النضير هؤلاء من المدينة تسامح معهم إلى حد جعلهم يسمح لهم بأن يحملوا من أموالهم إلى منفاهم الجديد (خيبر) كل ما يقدرون على حمله .

ولهذا فقد أوقروا من هذه الأموال (عند نفيهم) حوالى ستمائة بعير ، وصلوا بها جميعاً إلى منطقة خيبر .

ولما كان الذهب والفضة هو أحرص ما يحرص اليهود على اقتنائه كما هو معروف عنهم عبر عصور التاريخ ، فقد حملوا معهم إلى خيبر كل ما يملكون من الذهب والفضة وكان شيئاً عظيماً حتى أن سلّام بن أبى الحقيق (وهو من متوسطى أغنياء يهود بنى النضير) حمل معه عند الجلاء من المدينة جلد ثور مملوءاً ذهباً وفضة .

وكان (وهو خارج إلى منفاه خيبر) يضرب على هذا الجلد – مشيراً إلى ما يحتوى عليه من ذهب وفضة قائلًا : (هذا الذى أعددناه لرفع الأرض وخفضها وإن كنا تركنا نخلًا ، ففى خيبر النخل) .

وفى قول الزعيم اليهودى النضرى هذا تهديد صريح بأن يهود بنى النضير لن يبخلوا باستخدام أموالهم الطائلة للقضاء على سلطان الإسلام ونفوذه ، وأنهم لن يترددوا فى تسخير هذه الأموال لزلزلة الأرض تحت أقدام المسلمين عند أول فرصة تسنح لهم وذلك فى سبيل استعادة سلطانهم المفقود فى يثرب .

خيبر قاعدة للعدوان :

وبنزول يهود بنى النضير منطقة خيبر الحصينة والغنية بالموارد الزراعية الكبيرة تعاظمت قوة اليهود الدخلاء فى هذه المنطقة .

حيث تلاحم سلطان المال الجبَّار الذى يملكه يهود بنى النضير المنفيين مع القوة الحربية الكبيرة التى يمتاز بها يهود خيبر ويتفوقون بها على جميع الفئات اليهودية الدخيلة فى جزيرة العرب حيث كانوا (بدون جدال) أشجع وأقوى الجاليات اليهودية هناك .

وبنزول يهود بنى النضير منطقة خيبر أخذ الخطر الداهم يُطِل برأسه ويهدد المسلمين فى يثرب من جديد لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار وجود جالية يهودية كبيرة فى يثرب لم يتعرض لها المسلمون بأية مضايقة ، لأنها (حتى حملة الأحزاب المخيفة) ظلت على عهدها مع المسلمين ، وهى جالية يهود (بنى قريظة) التى أغوى زعماءها شيطان بنى النضير حيى بن أخطب فغدرت بالمسلمين فى أدق ساعات المصير فى حياة كيانهم كما جاء ذلك مفصلًا فى كتابينا (غزوة الأحزاب ، وغزوة بنى قريظة) .

قيادية بنى النضير :

لقد كان يهود بنى النضير سياسيين أكثر منهم حربيين ، وكانت الأطماع فى السيادة والسلطان لديهم أكثر من أية فئة من فئات اليهود الدخيلة فى بلاد العرب .

ولهذا فإنهم لم يكادوا يطأون بأقدامهم منطقة خيبر ويجدون أنفسهم بين أقوى قوة يهودية حربية فى جزيرة العرب ، حتى عادت أطماعهم الواسعة فى السيادة والحكم تراود مخيَّلاتهم .

ولم يجد يهود بنى النضير أية صعوبة فى القبض على أزمة الأمور فى منطقة خيبر حيث تمكنوا بكل سهولة من فرض سيادتهم وسيطرتهم على يهود هذه المنطقة التى بمجرد نزول بنى النضير فيها تغير فيها مجرى كل شىء .

وأهم تغيير طرأ على خيبر هو أنها (بعد أن ألقى سكانها اليهود

بقيادهم إلى بنى النضير) تحولت من منطقة حيادية إلى قاعدة للعدوان على المسلمين ووكراً وجد فيه يهود بنى النضير (أشد الناس حقداً على النبى وصحبه) مطلق الحرية للتآمر على الإسلام ورسم الخطط للإطاحة بالمسلمين .

لو اتعظ اليهود ؟

لقد كان بإمكان يهود بنى النضير أن يستخلصوا المواعظ والعبر على ضوء ما حاق بهم وبيهود بنى قينقاع من نفى وتأديب نتيجة دسهم وتآمرهم ضد المسلمين عندما كانوا بين ظهرانيهم وحلفاء لهم فى يثرب .

كان بإمكان سادات بنى النضير (على ضوء الفشل الذريع الذى منوا به كثمرة لمحاولات الدس والتآمر ضد النبى وأصحابه والتى بذلوها طوال أربع سنوات والتى كانت حصيلتها طردهم من المدينة زجراً لهم وتأديباً) .. كان بإمكانهم بعد أن رحلوا من يثرب آمنين على أموالهم وأرواحهم ونزلوا خيبر على تلك الصورة .. كان بإمكانهم أن يراجعوا أنفسهم ويقنعوها بأن أعمال التآمر والخيانة والغدر وإثارة الفتن والحروب بغياً ضد المسلمين والتى مارسوها خلال أربع سنوات ، لن تعود فى النهاية على القائمين بها إلا بأوخم العواقب .. لأن النصر فى النهاية إنما يكون للحق والهزيمة والاندحار والتعرض للعقاب العادل الصارم إنما تحل بالباطل مهما تراءى لأصحابه أنه قوى وعتيد .

كان بإمكان بنى النضير الذين لم يكن نزوحهم إلى خيبر مطرودين مدحورين إلا حصيلة محاولاتهم السير فى دروب الخيانة والتآمر ، والدلوج فى ظلام البغى والعدوان ونكث العهود والمواثيق .. كان بإمكانهم أن يدركوا كل ذلك فيتعظوا به .. فيخلدوا فى منفاهم الجديد (خيبر) إلى الهدوء والسكينة بين بنى قومهم الذين ظلوا على الحياد طيلة مراحل الصراع الدائر بين الإسلام وخصومه داخل يثرب وخارجها حتى نزل عليهم شياطين بنى النضير هؤلاء فكانوا سبباً فى توريطهم فى حبائل العمل ضد المسلمين والتآمر على أمنهم وسلامتهم ، مما كان سبباً فى التعجيل بإزالة الوجود اليهودى الدخيل فى خيبر على أيدى المسلمين .

ولو التزم يهود بنى النضير الهدوء والسكينة وأقلعوا عن ممارسة التآمر ضد المسلمين ونصحوا بنى دينهم فى خيبر بذلك لكان خيراً لهم .

ولكن الأحلام السوداء .. أحلام العودة إلى يثرب والسيطرة عليها من جديد التى زادت (باستيطانهم خيبر القوة والمنعة) مداعبتها لمخيّلاتهم .. لم تترك (لحيى بن أخطب وسلّام بن مِشْكَمَ وكنانة بن أبى الحقيق وأمثالهم من سادات بنى النضير) الفرصة للتفكير فى اختيار طريق السلامة ، طريق السكينة والهدوء والإقلاع عن ممارسة الكيد للإسلام والتآمر على كيان المسلمين .

لذلك لم يكد يستقر بيهود بني النضير المقام فى خيبر حتى عادوا (بصورة أوسع) إلى تدبير خطط التآمر على الإسلام والمسلمين .

فأخذوا يعدون العدة لجولة كبرى ضد المسلمين (يكون منطلقها خيبر) لعلهم بهذه الجولة يطيحون فيها بالإسلام ويهدمون سلطان المسلمين فى عاصمتهم المدينة ، فيعود لهؤلاء اليهود سلطانهم اللاشرعى عليها من جديد .

ولكن الله غالب على أمره فقد فشلت كل مخططات العدوان التى وضعها هؤلاء اليهود فى خيبر ، بل إن يهود بنى النضير بمخططاتهم العدوانية هذه قد أحلوا قومهم (أهل خيبر) دار البوار بسبب إغرائهم وإقناعهم بجعل مدينتهم وكراً للغدر بالمسلمين والعدوان عليهم .

لقد كان زعماء يهود خيبر يدركون ولا شك خطورة تحويل المنطقة التى يسكنونها إلى قاعدة جديدة للعدوان والتآمر على المسلمين كما يريد ذلك حيى بن أخطب وسلام بن مشكم وغيرهم من زعماء يهود بنى النضير المنفيين من المدينة .

وليس ببعيد أن يكون القلق قد ساور زعماء اليهود فى خيبر من أن تتعرض منطقتهم لغزو كاسح من قبل المسلمين قد يطيح بالكيان اليهودى فيها إلى الأبد كعمل تأديبى وإجراء وقائى يقوم به المسلمون إذا قبل يهود خيبر أن تصبح منطقتهم متنفساً لأحقاد يهود بنى النضير ومنطلقاً لعدوان يهدد سلامة المسلمين وأمنهم .

وكل هذا لا يعنى أن يهود خيبر لا يرغبون فى تدمير المسلمين وهدم كيان الإسلام .

كلا .. فاليهود كلهم ملة واحدة وهم سواء من حيث البغض للإسلام والرغبة فى الإطاحة بالمسلمين فى يثرب .

ولكن قد يكون مصدر شعور يهود خيبر بالقلق (إذا ما وجد هذا الشعور) إنما كان خوفهم من أن تفشل مخططات العدوان على المسلمين فيكون ذلك مجلبة لنكبة تكون فيها نهاية يهود خيبر الذين (حتى استيطان يهود بنى النضير لبلادهم) لم يكن بينهم وبين المسلمين أى حرب أو نزاع مكشوف كما هو الحال بالنسبة ليهود يثرب .

ولم أر فى كتب التاريخ أن يهود خيبر قد عارضوا زعماء بنى النضير فى أن تكون خيبر منطلقاً للتآمر وقاعدة للعدوان على المسلمين ، ولكن الاحتمال قوى جداً فى أن يكون زعماء يهود خيبر قد أبدوا شيئاً من المعارضة خوفاً على مصيرهم كما فعل يهود بنى قريظة عندما حاول شيطان بنى النضير إغراءهم بالغدر بالمسلمين .

وعلى أى فقد نجح شيطان بنى النضير حيى بن أخطب وباقى زملائه من زعماء بنى النضير المنفيين من المدينة .. إذ استطاعوا أن يجعلوا من منطقة خيبر (بالتعاون مع أهلها) قاعدة حربية وسياسية يوجه منها اليهود أى عمل يقدرون على توجيهه ضد المسلمين للقضاء عليهم فى يثرب .

لقد رضى يهود خيبر (الذين ظلوا على الحياد إزاء الصراع الناشب بين يهود يثرب والعرب قبل الإسلام وبعده) رضوا فى النهاية بأن تدخل خيبر معترك هذا الصراع وأن ترمى بثقلها ضد المسلمين .

فقد وضع يهود خيبر كل إمكاناتهم الحربية والمالية فى خدمة أغراض العدوان على النبى ﷺ والمسلمين فى المدينة ، بعد أن أعطى أولئك اليهود قيادهم لشيطان بنى النضير (حيى بن أخطب) وباقى سادات بنى النضير الذين فرضوا سيطرتهم السياسية وسلطانهم المالى على منطقة خيبر منذ أن نزلوها منفيين من يثرب .

فصاروا بدافع الحقد الأسود على النبى ﷺ والبغض العارم للإسلام

يصلون الليل والنهار لرسم خطط التآمر على المسلمين وحبك الدسائس ضدهم ، ووضع المشاريع الواسعة لإثارة العرب الوثنيين عليهم ، وبمنتهى الحرية .

الأمر الذى ماكان يجرأ يهود بنى النضير على ممارسته عندما كانوا يواطنون المسلمين فى يثرب لاعتبارات كثيرة أهمها أن هؤلاء اليهود كانوا أقلية بين المسلمين فى يثرب ومن السهل مراقبتهم والحد من نشاطهم التآمرى ضد الإسلام والمسلمين .

غير أن وجودهم فى منطقة يهودية ليس بها مسلم واحد (هى منطقة خيبر) كان من أكبر الأسباب فى تضاعف أطماعهم فى السيطرة وتكاثف أحلامهم بالعودة إلى يثرب حاكمين .

كما أن وجود بنى النضير فى خيبر قد هيأ لهم المناخ الكامل لتدبير المؤامرات وحبك الدسائس ورسم خطط الحرب ضد المسلمين بمنتهى الحرية .

فإذا كانت أعمالهم العدوانية التى يهدفون من ورائها إلى الإطاحة بالمسلمين فى يثرب عرضة للاكتشاف بسبب كون المدينة قاعدة الإسلام الكبرى ومركز ثقل الوجود الإسلامى ، وأن أى اكتشاف لأية أعمال عدوانية من جانب اليهود يعقبه قمع من جانب المسلمين .. الأمر الذى يضطر هؤلاء اليهود وحلفاءهم من المنافقين إلى أن يحيطوا مؤامراتهم العدوانية وخططهم التخريبية ضد المسلمين فى يثرب بسياج من السرية التامة وخاصة إذا كانت هذه المؤامرات والخطط يتطلب تنفيذها سفك الدم وإزهاق الأرواح .. فإنهم فى خيبر لم يعودوا بحاجة إلى هذه السرية والتكتم عندما يعتزمون العمل ضد المسلمين على أى مستوى من المستويات العدوانية والتآمرية .

لأنه حتى السنة السابعة من الهجرة لم يكن أى وجود لسلطان المسلمين فى خيبر ، كما أنه حتى تلك السنة لا يوجد أى مسلم فى تلك المنطقة التى كان نزول المنفيين فيها من يهود بنى النضير فى أواسط السنة الرابعة من الهجرة .

هل فكر اليهود فى غزو المدينة ؟ :

لقد دلت الأحداث وأثبتت الوقائع أن سادات يهود بنى النضير (بعد أن دانت لهم خيبر) قرروا (وبمنتهى الإصرار والعناد) أن يستخدموا كل طاقات اليهود من مالية وفكرية وبشرية لهدم كيان المسلمين وإطفاء نور الإسلام فى المدينة .

لقد كان كل شيء مادى فى خيبر يوحى على نحو ، لا يقبل الجدل ، بأنه بإمكان اليهود أن يجهزوا (وبكل سهولة) جيشاً ضخماً لغزو المسلمين فى عقر دارهم وحاضرة دولتهم (المدينة) .

فيهود خيبر وحدهم (وحسب تقديرات المؤرخين) قادرون على حشد تسعة آلاف مقاتل ، فإذا أضفنا إليهم ألفاً من يهود بنى النضير المنفيين القادرين على حمل السلاح ومباشرة القتال ، اتضح لنا ، أن خيبر فى ذلك الوقت (وهو السنة الرابعة من الهجرة) قادرة على تجريد قوة ضاربة تبلغ عشرة آلاف مقاتل [1] لمحاربة المسلمين وغزوهم فى المدينة التى لا يوجد فيها فى تلك السنة أكثر من ألف مقاتل من المسلمين المخلصين .

غير أنه مع هذا لم نَر أحداً من المؤرخين ذكر (فيما نعلم) أن هناك عزماً قد تبلور لدى هؤلاء اليهود لأن تقوم قواتهم من خيبر بغزو المسلمين فى المدينة .

وليس بالإمكان أن نجد (على وجه التحديد) تفسيراً لإحجام اليهود فى خيبر عن الإقدام على غزو المسلمين ، مع توفر الإمكانات المالية والبشرية الضخمة لديهم والتى تمكنهم من أن يقوموا (فى سهولة) بمثل هذا الغزو ، لأنه حتى الآن لم يصل إلى يدينا شيء من مصادر التاريخ القديمة تفسر لنا سر هذا الإحجام مع رغبة هؤلاء اليهود الملحة فى القضاء على المسلمين .

لماذا أحجم اليهود عن غزو المدينة ؟

إلا أنه يمكن التكهن بأن هناك سببين رئيسيين حالا دون تحرّك اليهود من خيبر لغزو المسلمين فى المدينة .

---

(١) انظر إمتاع الأسماع .

السبب الأول : الطبيعة المتأصلة (آنذاك) : طبيعة الجبن التى تجعل هؤلاء اليهود لا يقاتلون إلا من وراء الحصون وداخل القرى المحصنة ، وهى طبيعة أشار إليها القرآن الكريم بقوله :﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرىً محصنة أو من وراء جُدُرٍ﴾[1] .

السبب الثانى : هو أن اليهود فى خيبر – بالرغم من مرور عدة قرون على وجودهم فى تلك المنطقة العربية – فإن علاقاتهم (بالرغم من قوتهم العسكرية وثرائهم الواسع) ليست على مايرام مع السكان الأصليين من أعراب القبائل المحيطة بمنطقة خيبر ، على الرغم من أن أحداً من هذه القبائل لم يكن قد دان (حتى ذلك الوقت وهو السنة الرابعة من الهجرة) بدين الإسلام . وبالرغم من شراء اليهود ولاء هذه القبائل العربية الوثنية بين الحين والآخر بالرشاوى .

لذلك كان اليهود (على ما يظهر) يخشون أن تغير هذه القبائل العربية الوثنية على واحة خيبر فتنتهب خيراتها وتسبى نساءها وذراريها حينما تصبح خالية من المحاربين اليهود ، عندما يزحفون بجيوشهم لغزو المسلمين فى عقر دارهم (المدينة) التى تبعد عن خيبر أكثر من ثمانين ميلًا وهى مسافة بعيدة جداً بالنسبة لوسائط النقل فى ذلك العصر .

خيبر .. وغزوة الأحزاب :

وأياً كان سبب إحجام اليهود عن الزحف بأنفسهم على المدينة من خيبر (مع توفر كل الإمكانات لديهم للقيام بهذا الغزو) فإن فكرة الإطاحة بالمسلمين والقضاء عليهم وإطفاء شعلة دعوة الإسلام ظلت قائمة فى أذهان هؤلاء اليهود تلح فى نفوسهم إلحاحاً شديداً .

وكان أشد هؤلاء اليهود إلحاحاً فى السعى لإبادة المسلمين وحرصاً على نقل المعركة إلى ديارهم فى المدينة بأى شكل من الأشكال .. رأس الكفر وأخطر عدو للإسلام عميد الأسرة النضرية حيىّ بن أخطب الذى أعلن – منذ اللحظة الأولى التى قابل فيها النبى ﷺ عند مقدمه من مكة

---

(١) الحشر ١٤ .

مهاجراً – بأنه سيحمل له العداوة ما بقى حياً [1] .

فبعد استبعاد فكرة قيام اليهود أنفسهم بغزو المدينة من حساب مشاريعهم العدوانية اجتمع زعماء هؤلاء اليهود فى خيبر لانتهاج أنجع السبل التى يرون أنها كفيلة بنقل المعركة بصورة جدية إلى عقر دار المسلمين للقضاء عليهم قضاء تاماً لتتحقق أحلام يهود بنى النضير السوداء فى العودة إلى السيطرة على يثرب المسلمة .

مشروع الغزو الخطير :

وقد كانت نتيجة اجتماعات هؤلاء الزعماء فى خيبر هو الاتفاق على مشروع قرار تقدم به (على ما يظهر) شيطان بنى النضير حييّ بن أخطب .

وخلاصة هذا المشروع العدوانى ، هو أن يقوم وفد من زعماء خيبر بالسعى لدى جميع القبائل العربية التى لازالت على وثنيتها وعدائها للإسلام والمسلمين لتحريضها على حرب المسلمين وإغرائها عن طريق الرشاوى والوعود لتوافق على أن تقوم منها قوات ضاربة مؤتلفة بغزو المسلمين فى يثرب غزواً شاملًا واحتلال المدينة احتلالًا كاملًا بعد إزالة الوجود الإسلامى إزالة تامة .

واتفق زعماء اليهود فى خيبر على أن يكون فى مقدِّمة المغريات التى يجب أن يغروا بها القبائل العربية الوثنية عند الطواف عليهم التعهد لهم بمنحهم كل ماتنتجه واحة خيبر من مختلف الحبوب والثمار لسنة واحدة بعد نجاح مشروع الغزو ، على أن يساهم يهود خيبر (بسخاء كبير) فى تحمل جانب كبير من تموينات هذا الغزو الكبير الذى قرر يهود خيبر (بإصرار) على إنجاحه وتحقيق أهدافه ليعودوا على أكتاف غيرهم إلى يثرب فاتحين من جديد .

وهذا يعنى أن يهود خيبر قد قرروا استخدام كل إمكاناتهم المادية لإبادة المسلمين فى المدينة عن طريق حرب شاملة تقوم بها قوات ضاربة لا من اليهود ، ولكن من العناصر الوثنية من قريش والأعراب الذين يسهل

---

(1) انظر محاورة حيى بن أخطب أخاه ياسر عند مقدم النبى ﷺ مهاجراً فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) ط ٤ .

تحشيدهم عن طريق الرشاوى والإغراء بالسلب والنهب الذى هو عماد الاقتصاد والمصدر الرئيسى للدخل القومى فى مجتمع هؤلاء الأعراب الذين أكد شيطان بنى النضير (حيى بن أخطب) لزملائه اليهود (وهم يبحثون مشروع نقل المعركة إلى عقر دار المسلمين) أنهم (أىّ الأعراب) سيكونون العمود الفقرى لهذا الغزو الذى وضعت خطوطه العريضة فى مدينة خيبر ، والذى ما كان يهود خيبر يشكون فى أنه سيحقق أهدافه بإزالة الوجود الإسلامى من على وجه الأرض . .

خيبر تحزب الأحزاب ضد النبى ﷺ :

وتنفيذاً لذلك القرار الخطير الذى اتفق عليه المؤتمرون من اليهود فى خيبر ، شكلت خيبر وفداً من كبار زعمائها .

تحددت مهمته فى الاتصال (أولًا) بمكة مقر القبائل القرشية العدو الرئيسى (يومذاك) للإسلام والمسلمين ، ثم القبائل النجدية ذات العدد والعدة وشدة البأس فى القتال من غَطفَان وأسلم وفَزارة وأشجعَ وحلفائهم الذين يشكلون (بعد قريش) الخصم العنيد للإسلام .. وإقناع الجميع بضرورة إقامة اتحاد حربى وحلف عسكرى ضد المسلمين ، فتشترك كل هذه القبائل الوثنية على أساسه (وبمساندة يهود خيبر المادية) فى حرب شاملة تستهدف استئصال شأفة المسلمين وإبادتهم .

أعضاء وفد التحزيب :

وقد تكون وفد التحزيب والفتنة والتخريب من الآتية أسماؤهم :

١ - حُيَىّ بن أخطب من بنى النضير .

٢ - سلام بن مِشكم .. من بنى النضير .

٣ - كنانة بن أبى الحقيق .. من بنى النضير .

٤ - أبو عامر (الملقب بالفاسق) .. عربى من الأوس .

٥ - هوذة بن قيس الوائلى .. عربى متهود .

ويلاحظ هنا أن الأعضاء اليهود فى هذا الوفد كلهم من يهود بنى النضير (إذا استثنينا) هوذة بن قيس الوائلى وهو (على ما يظهر) وكما يدل اسمه عربى دان باليهودية .. وهذا مما يؤكد الرأى الذى ذهبنا إليه فيما مضى وهو أن يهود بنى النضير قد بسطوا سيطرتهم الكاملة على يهود خيبر ، وصاروا (منذ وصولهم إليها من منفاهم) سادتها الفعليين يديرون أهلها كما يريدون .

أما أبو عامر الراهب (كما يسميه أتباعه) و (الفاسق) كما يسميه المسلمون ، فهو العربى الوثنى الوحيد فى هذا الوفد .. وكان أبو عامر هذا قد لجأ إلى اليهود فى خيبر بعد فشل الحملة التى قامت بها قريش والتى كانت نتيجتها معركة أحد التاريخية التى قاتل فيها أبو عامر هذا إلى جانب قريش ضد المسلمين بالرغم من أنه من الأوس ومن سكان المدينة العرب .

نجاح وفد العدوان فى مهمته :

وقد خرج وفد اليهود من خيبر لأداء مهمته الموكولة إليه بعد مرور حوالى أربعة أشهر فقط على نفى يهود بنى النضير من المدينة إلى خيبر .

وقد اتجه وفد خيبر أول ما اتجه إلى مكة ثم إلى نجد بالرغم من أن قريشاً تأتى من ناحية القوة العسكرية فى المرتبة الثانية بعد القبائل النجدية إلا أن قريشاً كانت لها الصدارة فى ميدان العداوة للنبى ﷺ والحقد على الإسلام . وسبق لها أن خاضت ضد الإسلام أعنف المعارك فى بدر وأحد .

لهذا (وبالرغم من أن منازل القبائل النجدية الوثنية الداخلة ضمن نطاق مشروع التحريض علىّ المسلمين) أقرب بكثير إلى منطقة خيبر ، مقر اليهود الرئيسى ووكر التآمر ومصدر الإعداد والتخطيط لغزو المسلمين ، فقد فضل وفد خيبر أن يتصل (أولًا) بزعماء قريش فى مكة لإطلاعهم على مشروع اليهود العدوانى الذى أعدوه لغزو المسلمين فى المدينة .

وقد استقبل مشركو مكة وفد يهود خيبر أحسن استقبال واحتفلوا بهم غاية الاحتفال ، وخاصة بعد أن عرف سادات مكة أن الدافع لمجىء وفد يهود خيبر إلى مكة هو السعى للإطاحة بالمسلمين وإطفاء شعلة الدعوة الإسلامية إلى الأبد .

وقد شرح زعماء وفد خيبر لقادة قريش وجهة نظر يهود خيبر وأطلعوا القرشيين على كامل تفاصيل المخطط العدوانى الذى رسموه فى خيبر لغزو المدينة وسحق المسلمين فيها .

وقد لقى هذا المشروع اليهودى من قريش كل استحسان وقبول ، فأعلنوا موافقتهم المطلقة عليه وتأييده ، وأبدوا للوفد اليهودى استعدادهم لتنفيذه فى الوقت الذى يتفق عليه الجميع .

ذلك أن سادات قريش رأوا فى مشروع الغزو اليهودى فرصة ذهبية ماكانوا يحلمون بها وهى استعداد غيرهم لمشاركتهم فى حرب شاملة تستهدف تحقيق ماعجزت قريش عن تحقيقه طيلة أربع سنوات وهو القضاء على المسلمين وقطع تيار دعـوة الإسلام نهائياً .. الأمر الذى فشلت قريش فى تحقيقه فشلًا ذريعاً عندما ألقت بثقلها فى المعركة من أجل تحقيقه ، وقامت بمحاولاتها العسكرية الضخمة فى حملة بدر وغزوة أحد .

حيث تحطمت سمعتها العسكرية فى الأولى تحطيماً فظيعاً على أيدى المسلمين ، وعجزت فى الثانية عن تحقيق أى شىء من أهدافها الرئيسية حيث عادت إلى مكة تجر أذيال الخيبة والخسران بالرغم من حشدها كل إمكاناتها المادية والبشرية والحربية فى هذه المعركة .

لذلك فرحت قريش فرحَّبت بمشروع يهود خيبر ووافقت عليه دونما أى قيد أو شرط ، وتم الاتفاق بين اليهود وقريش على أن يكون ميعاد ضرب الحصار على المدينة فى شهر شوال من السنة الرابعة للهجرة ، بعد موافقة القبائل النجدية الوثنية من غطفان وسليم وأشجع وفَزارة وأسد .

وفد اليهود التحزيبى فى نجد :

وبعد أن حصل وفد يهود خيبر على موافقة قريش على مشروع الغزو الذى جاءوا يحملونه من خيبر والذى يستهدف القضاء على الإسلام والمسلمين ، توجه رجال هذا الوفد اليهودى صوب صحارى نجد للاجتماع بسادات وزعماء القبائل الوثنية فيها ليعرضوا عليهم مشروعهم العدوانى

ويشرحوا أهدافه ويطلبوا موافقتهم عليه كما وافق عليه زعماء قريش فى مكة .

ولقد طاف رجال هذا الوفد بين مضارب القبائل الرئيسية المحاربة فى نجد باذلين كل إمكاناتهم المادية والإعلامية لإغراء هذه القبائل بالمسلمين وتحريضها على حربهم ، شارحين لهم (وبأسلوب الدعاية اليهودية الماكرة الخبيثة المعروفة) أن اشتراك هذه القبائل فى غزو المسلمين سيعود عليها بأعظم المكاسب ، لا سيما وأن هذا الغزو يستهدف وضع حد لخطر تزايد نفوذ سلطان المسلمين الذين هم العدو المشترك لكل الفئات الثلاث (اليهود .. وقريش .. والوثنيين فى نجد) والذين قد أوترتهم جميعاً الهزائم التى أنزلها بهم المعسكر الإسلامى فى مختلف الصدامات الدامية التى نشبت بينهم .

الترحيب بالوفد اليهودى فى نجد :

ولدى وصول وفد خيبر إلى نجد لقى من الترحيب وحسن الاستقبال مالا يقل عما لقيه من زعماء قريش فى مكة .

لأن الفريقين فى مكة ونجد يلتقون (مع يهود خيبر) عند نقطة رئيسية واحدة وهى الكره الشديد للإسلام ، والعداوة للنبى محمد ﷺ .. بالإضافة إلى غرام هؤلاء البدو الوثنيين من أعراب نجد بالسلب والنهب الذى هو (منذ أقدم العصور) قوام حياتهم الاقتصادية .

لذلك لم يتردد زعماء العشائر النجدية فى الموافقة (من حيث المبدأ) على مشروع الغزو الذى جاء يحمله إليهم شيطان بنى النضير حيى بن أخطب وباقى أعضاء وفده من خيبر .

إلا أنه إذا كانت الرغبة فى نقل المعركة إلى المدينة بغزو المسلمين فيها قد اتحدت (من حيث الأصل) بين يهود خيبر والوثنيين فى مكة ونجد ، فإن الباعث لدى هؤلاء الفرقاء الثلاثة لم يكن واحداً ، إذ لكل منهم غايته المحددة وهدفه المخصوص الذى يختلف عن هدف الآخر .

فإذا عرفنا (كما هو الواقع) أن باعث رغبة قريش فى غزو المسلمين

وخضد شوكتهم هو باعثاً سياسياً وعقائدياً ، حيث صار القلق (بشدة) يساور قريشاً من أن تتم السيطرة للإسلام على جزيرة العرب ، فيكون ذلك سبباً فى هدم مركز قريش الروحى والأدبى بين قبائل عرب الجزيرة الوثنيين الذين ينظرون إلى قريش نظرة التبجيل ويكنون لهم قسطاً وافراً من الاحترام والاعتراف بالسيادة الروحية ، باعتبار الأماكن التى يقدسها هؤلاء العرب على اختلاف مذاهبهم الوثنية تقع ضمن أراضى قريش وفى ظل سيادتها وتحت حمايتها .

وإذا عرفنا أن مبعث الرغبة الملحة لدى يهود خيبر (واضعي خطوط هذا المشروع العدوانى) فى القضاء على المسلمين هو (فى الدرجة الأولى) الانتقام والانفراد بالسلطان وفرض ديكتاتورية المال من جديد على يثرب .. فإن الباعث لدى أعراب نجد (فى الدرجة الأولى) هو الحصول على المال لأنهم أقوام عاشوا عمرهم على السلب والنهب .

ولهذا وجد هؤلاء الأعراب فى مشروع الغزو الذى عرضه عليهم وفد خيبر ، فرصة قد تحقق لهم ما يمنّون النفس به (منذ أمد بعيد) من انتهاب خيرات واحات المدينة عن طريق السلب والنهب إذا ما واتاهم الحظ فنجحوا فى التغلب على المسلمين واحتلال عاصمتهم المدينة بالاشتراك مع قريش واليهود كما هو أساس المشروع اليهودى للغزو .

مساومة أثناء المفاوضة :

ومع فرحة أعراب نجد بمشروع اليهود العدوانى ورغبتهم فى المشاركة فى غزو المدينة ، فإنهم (وقد علموا حرص اليهود الشديد على تنفيذ هذا المشروع) أظهروا بعض التحفظ أثناء المفاوضة مع وفد خيبر ليجبروا هؤلاء اليهود على الدخول معهم فى مساومة يحصلون فى ظلها على شىء من المال من هؤلاء اليهود الذين يكتنزون منه الشىء الكثير .

وقد أدرك أعضاء وفد خيبر ما يهدف إليه أولئك الأعراب النجديون من وراء التحفظ المصطنع الذى أبدوه أثناء المفاوضة .. فدخلوا معهم فى المساومة التى انتهت بأن يتعهد يهود خيبر بإعطاء القبائل النجدية الوثنية التى

تشترك (وفق المخطط اليهودى) فى غزو المدينة .. كل ماتنتجه خيبر من ثمار النخيل وباقى مختلف الزروع لسنة واحدة .

وعلى أساس هذا الاتفاق قبلت أربع قبائل نجدية رئيسية الاشتراك فى غزو المسلمين حسب التخطيط اليهودى .

وهذه القبائل هى : (١) أشجع ، (٢) أسْلم ، (٣) أسد ، (٤) فَزارة . وكل هؤلاء من غطفان .

وكان الاتفاق بين الوفد اليهودى وبين هذه القبائل النجدية خاتمة مساعى الوفد اليهودى الناجحة .

إذ تم (كما يريد هذا الوفد) تكوين أكبر اتحاد عسكرى وثنى يهودى شهدته الجزيرة العربية ضد المسلمين .

وقد حدد اليهود والقبائل الوثنية النجدية بالاتفاق مع قريش ميعاداً لاحتشاد جيوش هذا الاتحاد الآثم حول المدينة للهجوم عليها وهو شهر شوال من السنة الرابعة للهجرة .

وقد كانت نسبة قوات كل من الفرقاء فى جيش هذا الاتحاد العسكرى الخطير كما يلى :

١ – القبائل النجدية ٦٠٠٠ ستة آلاف مقاتل .

٢ – قريش وأحلافها ٤٠٠٠ أربعة آلاف مقاتل .

٣ – اليهود ١٠٠٠ ألف مقاتل من يهود المدينة (بنى قريظة) تعهد سيد بنى النضير (حُيَيّ بن أخطب) للقبائل النجدية وقريش أن ينضم هذا الألف من اليهود إلى قوات الاتحاد بمجرد عسكرتها فى ضواحى المدينة .

وهكذا لم يعد وفد العدوان اليهودى الذى خرج بمخططه الإجرامى من خيبر ، لم يعد هذا الوفد إلا وأعضاؤه يجرّون خلفهم عشرة آلاف مقاتل من مشركى العرب أخذت مواقعها حول المدينة فى الميعاد المحدد وأحاطتها كما يحيط البحر الهادر بالجزيرة الصغيرة .

وكانت قوة المسلمين التى عليها أن تواجه هذه القوات الوثنية الضاربة لا يزيد عددها (فى أصح التقديرات) على ألف مقاتل .

آخر حلقة فى سلسلة الإجرام اليهودى :

وكانت آخر حلقة فى سلسلة مساعى يهود خيبر الإجرامية للقضاء على الإسلام وسحق المسلمين وإبادتهم ، هى نجاح شيطان بنى النضير حيى بن أخطب فى إقناع يهود بنى قريظة القاطنين فى المدينة (وعددهم حوالى ألف مقاتل) بأن يغدروا بحلفائهم المسلمين فينقضوا العهد الذى بينهم وينضموا إلى قوات الأحزاب الغازية فيضربوا قوات الجيش الإسلامى من الخلف ساعة الصفر .

وهكذا أوقع نجاح هذا المخطط اليهودى الإجرامى الذى نسجت خيوطه فى خيبر .. أوقع المسلمين فى أقسى محنة عرفها تاريخهم منذ بزغت شمس الإسلام .

حيث وجد هؤلاء المسلمون الذين - لا تزيد قوتهم على ألف مقاتل - أنفسهم بين براثن أخطبوط الأحزاب الرهيب الذى بلغت قواته العسكرية المتحدة (بعد خيانة يهود بنى قريظة) أحد عشر ألف مقاتل كانوا (بالإضافة إلى هذا العدد الغامر) يتفوقون على المسلمين فى كل شىء مادى .

ولقد أطبقت قوات الأحزاب هذه على المسلمين من كل جانب فى حصار خانق مرعب رهيب ظل يضغط بعنف متزايد على عنق القلة المسلمة حتى درجة الاختناق .

ولعل أصدق وصف لتعاظم الخطر وتفاقم المحنة التى جلبها يهود خيبر بسعيهم الإجرامى للمسلمين فى غزوة الأحزاب المرعبة تلك ، هو الوصف الذى جاء فى سورة الأحزاب وهو قوله تعالى :

﴿إذ جاءوكم منْ فوقِكم ومن أسفَلَ منكم وإذ زاغت الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرِ وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ [1].

فقد وصل المسلمون فى تلك الغزوة المخيفة التى (بدافع من الحقد الأسود) أثار يهود خيبر عواصفها المزلزلة ، وصلوا إلى قابَ قوسين أو أدنى من الانهيار والزوال .

---

(١) الأحزاب ١٠ ــ ١١ .

لشدة ماتقاطر على هؤلاء المسلمين من محن وتحالف ضدهم من بلايا وويلات أخذ بعضها برقاب بعض .. وظلت (طيلة ليالى العدوان الحالكة تلك) تضغط - بضراوة وقسوة - على رِئَةِ الكيان الإسلامى دونما أى تراخ حتى كادت تقطع أنفاسه إلى الأبد .

الأمر الذى كان يوحى على نحو ساحق (بالنسبة للواقع المادى المحسوس الماثل على السطح) بأن سقوط المدينة فى أيدى قوات الأحزاب واليهود أمر لا مفر منه .

وأن مسألة هذا السقوط ، هى مسألة وقت فقط .. قد يمتد لعدة أيام أو ينتهى فى خلال ساعات ، لأن ميزان مصير المسلمين فى تلك الأيام الأخيرة الحالكة ، وصلت شوكته حدود الصفر ، وأخذت تهتز وكأنها مائلة نحو إعلان نهاية المسلمين .

وما كان يهود خيبر ، الرأس المفكر والمدبر لهذا الغزو المرعب المخيف .. ما كان هؤلاء اليهود يشكون لحظة فى هذه النهاية التى يشير كل شىء مادى محسوس بأنها محتومة .. وقد كادت تكون كذلك ، لولا أن الله تعالى أنقذ المسلمين بمعجزة من عنده ، حيث تغيَّر الموقف (فى اللحظات الأخيرة من ساعات المصير) لصالح المسلمين فجأة ، وعلى خلاف ما كان يتوقع الفريقان المتحاربان كلاهما .

ومازال الموقف آخذاً فى التحول عكساً وبشكل سريع ضد مصلحة اليهود وقوات الأحزاب حتى انفرط عقد تحالفها بعد أن نشب الخلاف والشقاق بين مختلف أجنحتها ، فاندحرت بعد أن فكت الحصار عن المدينة تجر خلفها أذيال الهزيمة والفشل تاركة عناصر الخيانة والغدر والتآمر من يهود قريظة وخيبر ليواجهوا منفردين العقاب الصارم الذى لا بد من أن ينزله المسلمون بهم جزاء غدرهم وتآمرهم . والذى أنزلوه فعلاً بيهود بنى قريظة حيث أعدم المسلمون من هؤلاء اليهود حوالى ثمانمائة مقاتل وصادروا كل ممتلكاتهم .

وقد فصلنا كل الأحداث التى سبقت وواكبت عمليات الأحزاب فى هذا الغزو المخيف ، فصلناها فى كتابنا (غزوة الأحزاب) وهو الكتاب الثالث من سلسلة معارك الإسلام الفاصلة . كما فصلنا الحملة التأديبية التى

فيها أباد المسلمون كل المقاتلين من خونة بنى قريظة فصلناها فى كتابنا (غزوة بنى قريظة) وهو الكتاب الرابع من سلسلة معارك الإسلام الفاصلة .

فليرجع إلى هذين الكتابين من أراد الاطلاع على التفاصيل الدقيقة لما حدث فى حملة الأحزاب المخيفة المرعبة وما حدث فى العمليات العسكرية التى قام بها المسلمون لقطع دابر اليهود الناكثين الغادرين المتآمرين من بنى قريظة فى يثرب [١] .

اليهود فى خيبر بعد فتحها :

وعندما تمت السيطرة الكاملة للمسلمين على خيبر (كما هو مفصل فى هذا الكتاب) كانت اتفاقية التسليم النهائية التى بموجبها استسلم يهود الشطر الثانى من المدينة ، تنص على أن يجلو جميع اليهود منها إلى الشام ، غير أن اليهود عرضوا على النبى ﷺ أن يبقوا فى خيبر ليقوموا باستصلاحها وزراعة أراضيها لأنهم أخبر بها ، فقبل النبى ﷺ عرضهم وسمح لهم بالبقاء فيها ليعملوا فى زراعتها مقابل حصولهم على نصف المحصول من ثمارها ، واشترط فى الاتفاقية على أن من حق المسلمين أن يخرجوا اليهود من خيبر متى أرادوا [٢] .

إجلاء اليهود فى عهد الفاروق :

وقد استمر اليهود فى خيبر ، بأيديهم أرضها يعملون فيها حسب الاتفاقية ، طوال عهد النبى ﷺ وخلافة الصديق ، إلى أن أجلاهم الخليفة الثانى .

والسبب فى إجلائهم أولًا : أن اتفاقية المساقاة والمزارعة التى عقدها

---

(١) قد يكون فى هذا الاستطراد شيء من التكرار لما جاء عن اليهود فى كتبنا الثلاثة (غزوة أحد ، وغزوة الأحزاب ، وغزوة بنى قريظة) إلا أن طبيعة البحث لإعطاء القارئ الكريم لمحة كافية عن تاريخ يهود خيبر تضطرنا إلى هذا الاستطراد ، فمعذرة .

(١) انظر بنود الاتفاق فى هذا الكتاب . وانظر مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧١٧ .

النبى ﷺ تنص على أن من حق المسلمين إجلاءهم متى أرادوا ، وثانياً أن اليهود بالرغم من تمتعهم بكامل الحرية بعد السماح لهم بالعمل فى خيبر بعد هزيمتهم ، ظلت روح التآمر والكيد للمسلمين تسيطر على نفوسهم الشريرة .

فقد ارتكبوا أعمالًا ضد المسلمين تدل على أنهم لن يكفوا عن العمل ضدهم حتى وإن لم يعد لهم سلطان أو نفوذ فى خيبر .

وقد بدأوا بممارسة أعمالهم الشريرة ضد المسلمين والنبى ﷺ لا يزال على قيد الحياة ، فمن ذلك أنهم قاموا باغتيال عبد الله بن سهل أحد أصحاب النبى ﷺ فى منطقة النطاة ، وبالرغم من أن المقتول وجد جثة فى ديارهم ، والقرائن تدل على أنهم قتلوه ، فإن النبى ﷺ لم يعاقبهم ، لأن التحقيقات التى أجراها مع اليهود لم تثبت إدانتهم من وجهة نظر القانون الإسلامى ، ولذلك أمر النبى ﷺ بدفع دية القتيل من بيت مال المسلمين [١] غير أن اغتيال عبد الله بن سهل ظل عالقاً بأذهان المسئولين فى المدينة كقرينة من القرائن على إجرام اليهود .

استخدام اليهود لبعض النصارى فى اغتيال المسلمين :

وفى عهد الخليفة الفاروق كثرت مؤامرات الاغتيال والتخريب من قبل اليهود فى خيبر ، ومن ذلك أن مظهر بن رافع الحارثى [٢] استقدم عشرة من نصارى الشام يعملون بأرضه فأقبل حتى نزل بهم خيبر فأقام بها ثلاثة أيام ، فجاء رجل من اليهود وقال لهم : أنتم نصارى ونحن يهود ، وهؤلاء قوم قد قهرونا بالسيف ، وأنتم عشرة رجال أقبل رجل واحد منهم يسوقكم من أرض الخمر والخير إلى الجهد والبؤس ، وتكونون فى رق شديد ، فإذا خرجتم من قريتنا فاقتلوه ، قالوا : ليس معنا سلاح فدسّ اليهود إليهم سكينين أو ثلاثة فخرجوا ، وقد اعتزموا تنفيذ ما أوحى إليهم به اليهود .

---

(١) انظر تفاصيل هذه القصة فى مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧١٥ وما بعدها .

(٢) هو مظهر بن رافع بن عدى الأنصارى ، قال الواقدى : شهد أحداً مع رسول الله ﷺ ، وعاش إلى عهد الخليفة عمر حيث قتله أعلاج من عبيده بخيبر ، وكان قد أقامهم له فى أرضه يعملون .

فلما وصلوا إلى ثِبار [1] فى طريقهم إلى المدينة – مع مظهر بن عبد الله الحارثى – قال مظهر لأحدهم : ناولنى كذا وكذا ، فأقبلوا إليه جميعهم قد شهروا سكاكينهم فخرج مظهر يعدو إلى سيفه ولكنهم بعجوا بطنه قبل أن يخرج السيف من قرابه ، وبعد أن قتلوه عادوا إلى خيبر ، فآواهم اليهود وأخفوهم ثم زودوهم وأعطوهم قوة فلحقوا بالشام .

الخليفة يأمر بجلاء اليهود :

فلما جاء خبر مقتل مظهر إلى الخليفة الفاروق وقف خطيباً فى المدينة وقال : أيها الناس إن اليهود فعلوا بعبد الله ما فعلوا [2] وفعلوا بمظهر بن رافع مع عَدْوتهم على عبد الله بن سهل فى عهد رسول الله ﷺ ، لا شك أنهم أصحابه (أى مظهر بن رافع) ليس لنا عدو غيرهم ، فمن كان له بها (أى خيبر) مال فليخرج فأنا خارج فقاسمٌ ما كان بها من الأموال وحاد حدودها وموّف ارفها [3] ومجلى اليهود منها ، فإن رسول الله ﷺ قال لهم : (أقركم ما أقركم الله) وقد أذن الله فى جلائهم إلا أن يأتى رجل منهم بعهد أو بينة من النبى ﷺ أنه أقرَّه فأقِره ، فقام طلحة بن عبيد الله فقال : قد والله أصبت يا أمير المؤمنين ووفقت . فقال له عمر : من معك على مثل رأيك ؟ قال : المهاجرون جميعاً والأنصار ، فسرّ بذلك عمر .

وكان عمر (مع ذلك بلغه عن النبى ﷺ عن الثقات) أنه قال (وهو فى مرض موته) : لا يجتمع بجزيرة العرب دينان ، فأرسل إلى يهود خيبر و(فدك) يخبرهم بأنه قد قرّر إجلاءهم إلا من كان عنده عهد من رسول الله ﷺ [4] .

---

(١) ثبار (بكسر أوله) قال ياقوت : موضع على ستة أميال من خيبر ، هناك قتل عبد الله بن أنيس أسير بن رازم .

(٢) كان اليهود قد اعتدوا على عبد الله بن عمر فخلعوا يده وهو نائم فلم يتخذ الخليفة ضدهم أى إجراء .

(٣) الأرف جمع أرفة وهى الحدود والمعالم قاله فى النهاية ج ١ ص ٢٨٢ .

(٤) انظر مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧١٤ وما بعدها .

تعويض يهود فدك عند الجلاء :

وقد أجلى الخليفة الفاروق يهود خيبر جميعاً ويهود فدك ، لأن فدك تعتبر من أرباض خيبر إذ لا تبعد عنها إلا عدة أميال .

وقد أجلى الخليفة هؤلاء اليهود بعد أن سمح لهم باصطحاب جميع ما يملكون من أموال منقولة ، هذا بالنسبة ليهود خيبر ، أما بالنسبة ليهود (فدك) فقد دفع لهم الخليفة عمر تعويضاً عادلًا عن نصف الأرض التى كانت بأيديهم [(١)] ، لأنها كانت لهم بموجب اتفاقية التسليم بينهم وبين النبى ﷺ [(٢)] .

أما يهود وادى القرى ويهود تيماء ، فلم يخرجهم الخليفة من الجزيرة [(٣)] فيهود تيماء أهل ذمة صالحوا المسلمين على دفع الجزية ولم يحاربوا [(٤)] ، وأما يهود وادى القرى فلربما أن عدم إجلائهم (كيهود خيبر) راجع إلى عهد لديهم من رسول الله ﷺ يحق لهم بموجبه البقاء فى الوادى ، والله أعلم .

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٢١ .

(٢) انظر تفاصيل هذه الاتفاقية فى موطنها من هذا الكتاب .

(٣) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧١١ .

(٤) انظر خبر هذا الصلح فى مكانه من هذا الكتاب .

الفصل الثانى

- التهيؤ للغزو .
- النفير العام بين أصحاب الحديبية .
- النبى يرفض انخراط المخلفين عن الحديبية فى الجيش .
- المسلمون والطابور الخامس فى المدينة .
- خيبر تستعد لمواجهة المسلمين .
- اليهود يستنجدون بغطفان ضد المسلمين .
- النبى يعرض على غطفان ثمار خيبر مقابل التزامهم الحياد فيرفضون . غطفان تخذل اليهود وتعود إلى بلادها فجأة .
- التفاوت الهائل فى كل شيء بين القوتين المتحاربتين .
- اختلاف قادة اليهود حول خطة الدفاع عن خيبر .
- أحد زعماء اليهود يقترح عليهم الزحف على المدينة .

وعد الله المسلمين بفتح خيبر

ذكرنا فى كتابنا (صلح الحديبية) أن الله تعالى قد وعد المسلمين بأنهم سيفتحون خيبر وسيحصلون فيها على غنائم كبيرة ، وذلك فى قرآن أنزله تعالى على نبيه ، وهو راجع من الحديبية بعد إبرام ذلك الصلح التاريخى مع مشركى مكة ، وهو قوله تعالى :﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه ﴾[1] أى فتح خيبر[2] ، كذا قاله أصحاب المغازى والسير .

ولقد كان هذا الوعد الإلهى بمثابة تطمين للمسلمين وتثبيتاً لعزائمهم ، فلم يعد لأحد منهم (وعلى رأسهم نبيهم الكريم) شك فى أن الله سيفتح عليهم خيبر ويجعلها بواحاتها الخضراء الواسعة وحدائقها النضرة غنيمة لهم جزاء ثباتهم ووقوفهم إلى جانب نبيهم العظيم فى السرَّاء والضرَّاء ، كما أن وعد الله لهم بفتح خيبر بمثابة عزاء لهم عما لاقوه من كرب نفسى نتيجة قبول النبى ﷺ للشرط الذى صُدُّوا بموجبه عن المسجد الحرام عام الحديبية .

ابتهاج المسلمين بغزو خيبر :

وعندما أعلن النبى ﷺ استنفار أصحابه للزحف على خيبر ، عمَّت المسلمين موجة من الفرح والابتهاج ، لأنهم كانوا حريصين كل الحرص على الجهاد الذى هو السبيل الوحيد لنيل أعلى الدرجات عند الله تعالى عن طريق الاستشهاد فى سبيله .

عدم قبول تجنيد المخلفين :

جاء فى كتابنا الخامس «صلح الحديبية» أن النبى ﷺ لما اعتزم القيام بالعمرة إلى مكة فى السنة السادسة من الهجرة طلب من كل المنتسبين إلى الإسلام فى الحاضرة والبادية أن يصحبوه فى هذه العمرة ، وأمر منادياً ينادى بذلك .

---

(١) الفتح ٢٠ .

(٢) انظر تفسير الآية فى تفسير ابن كثير والكشاف والطبرى وتفسير الشوكانى ، وانظر مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٢١ .

غير أنه بالرغم من كثرة المنتسبين إلى الإسلام فى تلك الفترة ، فإنه لم يستجب لهذا النداء النبوى إلا عدد قليل من أصحابه الأوفياءُ وهم الصفوة المختارة الذين أعلن الله تعالى رضاءه عنهم وهم يبايعون النبى ﷺ تحت الشجرة فى الحديبية بقوله تعالى : ﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾[1] الآية ، وكان عدد الصفوة المختارة من هؤلاء الرجال ألف وأربعمائة .

أما المنافقون من أهل المدينة وضعاف الإيمان من الأعراب (وعدد الجميع غير قليل) وهم الذين سماهم الله بالمخلفين .. فقد تخاذلوا فلم يستجيبوا يومها لنداء الرسول ﷺ إذ قرروا عدم مصاحبته فى هذه الرحلة التاريخية لأداء العمرة .

وذلك لما رسخ فى أذهانهم المريضة من أن النبى ﷺ سيلاقى متاعب شديدة فى هذه الرحلة وأنه ومن معه قد يتعرضون لحرب ضروس تشنها عليهم قريش التى كانت أيامها فى حالة حرب مع المسلمين .

ولما كان رصيد هؤلاء المنافقين من الإيمان غير موجود فقد انعدم فى نفوسهم باعث التضحية وركوب الأخطار فى سبيل الله ، عكس المؤمنين الصادقين الذين لبُّوا نداء نبيهم وقرروا الذهاب معه إلى مكة مهما كانت الأخطار التى يتوقعون (دونما شك) أنها ستحف بهذه الرحلة .

وذكرنا فى الكتاب الخامس «صلح الحديبية» أن المخلفين من منافقى الأعراب وأهل المدينة (لينجوا بأنفسهم من المخاطر التى قد يتعرض لها النبى ﷺ ومن يصاحبه فى هذه العمرة) تثاقلوا وتخلفوا عن ركب الإيمان ، متعللين بشتى الأعذار الكاذبة .. ومن ذلك أن اشتغالهم بأهليهم وأموالهم لا يسمح لهم بأن يكونوا مع النبى ﷺ فى هذه الرحلة ، وهو عذر باطل فَنَده القرآن وردَّه عليهم : ﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم﴾ .

إلى أن قال تعالى كاشفاً دخائل أنفسهم المريضة : ﴿بل ظننتم أن لن

---

(١) الفتح ١٨ .

ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزيّن ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بورا ﴾[1] .

ومع هذا التخاذل والتلكُّؤ فقد تركهم النبى ﷺ وشأنهم فلم يتخذ ضدهم أيَّ إجراء بل وحتى لم يندد بهم حتى أنزل الله فيهم قرآناً كشف واقعهم السيء المشين .

ومضى رسول الله ﷺ وأصحابه لشأنهم وخرجوا من المدينة لأداء العمرة ، وقد لقوا كثيراً من المتاعب إلا أن الله تعالى أيَّدهم بنصره وتوفيقه فعادوا سالمين بعد أن سجلوا أعظم نصر أدبى وسياسى وعقائدى كما فصلناه فى كتابنا الخامس من هذه السلسلة – صلح الحديبية – .

وعقب عودة المسلمين من الحديبية عظمت هيبتهم وتعاظم سلطانهم بعد أن ارتفع رصيدهم من القوة فور توقيعهم على صلح الحديبية التاريخى وبعد أن فرضوا هيبتهم على قريش (عدوهم الرئيسى) بإجبارها على الاعتراف بهم وعقد هدنة تضع الحرب أوزارها بموجبها عشر سنوات .

وعندما أعلن النبى ﷺ التعبئة بين أصحابه للزحف على خيبر ، تقدم هؤلاء المخلفون إلى النبى ﷺ وأكدوا رغبتهم فى الانخراط فى سلك الجيش الزاحف على خيبر ومشاركة المسلمين فى شرف الجهاد .

ولم يكن هدفهم فى الواقع من إبداء هذه الرغبة نيل شرف الجهاد فى سبيل الله كما هو شأن الصفوة المختارة من أصحاب محمد ﷺ الذين صاحبوه فى عمرة الحديبية .. وإنما كان هدف هؤلاء المخلفين هو المشاركة فى الحصول على الغنائم العظيمة التى وعد الله بها المؤمنين فى خيبر ، والتى أيقن هؤلاء المخلفون أن النبى ﷺ وأصحابه سيظفرون بها لا محالة .

غير أن النبى ﷺ وقد أخبره الله تعالى بحقيقة غايات هؤلاء المخلفين من إبداء الرغبة فى الاشتراك فى غزو خيبر ، وأنها غايات وأهداف مادية دنيوية صرفة بعيدة كل البعد عن نية الجهاد وقصد الاستشهاد فى سبيل الله ، أبى ﷺ عليهم أن يشاركوه فى هذا الغزو ، لأن الله تعالى أنزل فيهم قرآناً

---

(١) الفتح ١١ .

كشف حقيقتهم وأمر نبيه بأن يمنعهم من الانخراط فى سلك الجيش الزاحف على خيبر فقال تعالى :

﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتّبعكم يريدون أن يبدّلوا كلام الله قل لن تتبعونا كَذَلِكُم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ﴾[1] .

وتنفيذاً لهذا الأمر الإلهى أعلن النبى ﷺ أنه لن يشترك معه فى غزو اليهود فى خيبر إلا أصحاب الشجرة الذين حضروا الحديبية وعددهم ألف وأربعمائة .

أما الذين تخلفوا عن الحديبية (وهم الذين عناهم القرآن بالمنع) فقد قال لهم النبى ﷺ لما جاءوه يستأذنونه فى الخروج معه إلى خيبر قال لهم : لا تخرجوا معى إلا راغبين فى الجهاد ، فأما الغنيمة فلا [2] .

وجاء فى السيرة الحلبية أن النبى ﷺ أمر منادياً ينادى بأن الذين تخلفوا عنه عام الحديبية ويرغبون فى الخروج معه إلى خيبر فإنهم لن يعطوا شيئاً من غنائمها .

وكأنَّ النبى ﷺ أراد بهذا (على مايظهر) امتحان هؤلاء المخلفين ومعرفة الصادق منهم من الكاذب

ذلك أنهم بتخلفهم عن النبى ﷺ فى تلك الرحلة التاريخية المحفوفة (فعلًا) بالأخطار .. الرحلة التى انتهت بصلح الحديبية .. أثبتوا أنهم ليسوا على مستوى الإيمان واليقين الذى يحتم عليهم (وقد انتسبوا إلى أسرة الإسلام) أن يكونوا إلى جانب النبى ﷺ فى السراء والضراء وفى المنشط والمكره .

إذ ظهر بما لا يدع مجالًا للشك أن باعث تخلفهم عن الرسول ﷺ عام الحديبية إنما كان (فقط) خوفهم من أن يكون المسلمون عرضة لحرب ضروس تشنها عليهم قريش فى هذه الرحلة ، وبهذا أدانوا أنفسهم بأنهم

---

(١) الفتح ١٥ .

(٢) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٣٤ .

ليسوا مع المسلمين إلا إذا تأكد لديهم أن فى ذلك مغنماً دون التعرض لأى مغرم ، وهذه هى صفات النفعيين الانتهازيين الذين تأتى فئة الباطنيين من المنافقين هؤلاء فى مقدمتهم .

ولذلك كان منع النبى ﷺ لهم من الانخراط فى سلك الجيش الزاحف على خيبر إلا من كان راغباً فى الجهاد الصادق ، ولن يكون هناك دليل على صدقه سوى موافقته على أن لا حظ له فى الغنيمة إذا ما اشترك فى قتال اليهود فى خيبر .. كما أبلغ النبى ﷺ هؤلاء المخلفين صراحة – كان منعه ﷺ لهم بمثابة لوم لهم على تخلفهم عنه عام الحديبية ، وفى الوقت نفسه كان اختباراً لمن يمكن أن يكون الله تعالى قد أصلحه .

إلا أنه (فيما وصل إلى علمنا) لم يثبت أن أحداً من هؤلاء المخلفين قَبِلَ إسقاط حقه فى الغنيمة وانخرط فى الجيش النبوى مخلصاً الجهاد لله سبحانه وتعالى .. ولذلك فإنه لم يشهد معارك خيبر سوى أصحاب الشجرة ممن حضروا صلح الحديبية وعددهم ألف وأربعمائة .

النساء فى الجيش :

إلا أن النبى ﷺ سمح لعشرين امرأة من نساء الصحابة بالخروج مع الجيش لمساعدة المحاربين فى الإسعاف وإغاثة الجرحى بالماء والطعام أثناء القتال وما شابه ذلك ، وكان من بين هؤلاء النسوة صفية عمة رسول الله ﷺ وأم سُليم وأم عطية الأنصارية وأم عمارة .

فقد روى عن إحداهن أنها قالت : قلت : يا رسول الله إن نسوة قد أردن الخروج معك نعين المسلمين ما استطعنا فقال : على بركة الله (١) .

وهؤلاء النسوة (بالتأكيد) لسن كلهن ممن حضر الحديبية ، إلا أنه لا يمكن اعتبارهن فى عداد المخلفين ، لأن الأمر بمصاحبة الرسول ﷺ فى تلك الرحلة لا يتناولهن وإنما يتناول الرجال فقط ، ولهذا لا يمكن اعتبارهن من المخلفين .. لذلك لم يمانع الرسول ﷺ فى أن يكن معه فى غزوة خيبر وفى هذه الغزوة خرج معه من نسائه زوجته أم سلمة (٢) .

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٨١ .   (٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥٦ .

نموذج من الديمقراطية الصحيحة :

وقد بقيت بالمدينة بقية من اليهود لم تنلهم التصفية التى نالت بنى قريظة الخونة الغادرين لأن هذه البقية من اليهود لم يكن لها يد فى الغدر الذى أقدمت عليه قريظة .. ولهذا لم يتعرض لهم النبى ﷺ لا بنفى ولا بقتال ولا بحبس ، فظلوا فى المدينة أحراراً فى ذمة وعهد المسلمين .

إلا أن هؤلاء اليهود بالرغم من المعاملة العادلة التى يعاملهم بها المسلمون ظل هواهم مع إخوانهم يهود خيبر ، بل لم يتورعوا عن التحزب والتعصب لهم داخل المدينة علناً .

فقد روى الواقدى فى كتابه (المغازى ج ٢ ص ٦٣٤) أن البقية من يهود المدينة الذين ظلوا فى عهد وذمة المسلمين (بعد تأديب بنى قريظة) لما علموا بتجهز المسلمين لغزو خيبر شق عليهم ذلك لأنهم موقنون أن احتلال المسلمين لخيبر يعنى إنهاء الوجود اليهودى الدخيل فى الجزيرة .. فلم يجدوا مانعاً من التعبير عن عطفهم على يهود خيبر وامتعاضهم من المسلمين لاعتزامهم الزحف على خيبر .

إحراج اليهود للمسلمين :

وكان اليهود أصحاب ثروات كبيرة ، فكان المسلمون يقترضون منهم لقلة ما بأيديهم من الأموال فلا يكاد أحد من المسلمين يسلم من أن يكون عليه دين ليهودى فى المدينة . وقد استغل اليهود ذلك لصالح يهود خيبر فحاولوا تعويق المسلمين عن الغزو بمطالبتهم (فوراً) بتسديد ما عليهم من ديون .

فقد روى الواقدى (ج ٢ ص ٦٣٤) أن أحد الصحابة الغازين مع النبى ﷺ قال : فلما تجهزنا نريد خيبر ، لم يبق أحد من يهود المدينة له على أحد من المسلمين حق إلا لزمه ، وكان لأبى الشحم (أحد اليهود) عند عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى خمسة دراهم فى شعير أخذه لأهله ، فلزمه فقال : أجلنى فإنى أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقك إن شاء الله ، إن الله عز وجل قد وعد نبيّه خيبر أن يغنمه إياها ، وكان عبد الله بن أبى

حدرد ممن شهد الحديبية ، فقال : ياأبا الشحم ، إنَّا نخرج إلى ريف الحجاز (يعنى خيبر) فى الطعام والأموال ، فقال أبو الشحم (حسداً وبغياً) : تحسب أن قتال خيبر مثلما تلقونه من الأعراب ، فيها (والتوراة) عشرة آلاف مقاتل ، قال ابن أبى حدرد : أى عدو الله تخوفنا بعدونا وأنت فى ذمتنا وجوارنا ، والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ، فقلت يارسول الله ألا تسمع إلى مايقول هذا اليهودى ، وأخبرته بما قال أبو الشحم ، فسكت رسول الله ﷺ ولم يرجع إليه شيئاً ، إلا أنى رأيت رسول الله ﷺ حرك شفتيه بشيء لم أسمعه ، قال اليهودى لرسول الله ﷺ : ياأبا القاسم هذا قد ظلمنى وحبسنى بحقى وأخذ طعامى ، قال رسول الله ﷺ : أعطه حقه .

قال عبد الله : فخرجت فبعت أحد ثوبى بثلاثة دراهم وطلبت بقية حقه فقضيته ، ولبست ثوبى الآخر وكانت علىّ عمامة فاستدفأت بها ، وأعطانى سلمة بن أسلم ثوباً آخر فخرجت فى ثوبين مع المسلمين ونفلنى الله خيراً وغنمت امرأة بينها وبين أبى الشحم اليهودى قرابة فبعتها منه بمال [1] .

وقفة للتدبر والإمعان :

إن الإنسان المتجرد المنصف (أياً كان مذهبه أو دينه) لا يسعه إلا أن يقف أمام هذه الحادثة ، وقفة تدبر وتبصر واعتبار ليرى مزيداً من إشراقات العدل والحرية والديمقراطية الصحيحة (التى جاء بها وحافظ عليها الإسلام محافظة دقيقة فنعم فى ظلها بالحرية الكاملة (دونما أية مضايقة أو إزعاج) حتى الذين لا يدينون بالإسلام ، الأمر الذى لم يبلغ شأوه أى قانون فى العالم حتى هذه الساعة .

فهذا يهودى (أبو الشحم) تحت حكم الإسلام وفى ظل سلطان دولته يبلغ به التمتع بالحرية الكاملة التى أعطاه إياها الإسلام إلى أن يعبر (وهو فى دار الإسلام وتحت سلطانه وفى ظروف هى - بالنسبة للمسلمين - ظروف حربية استثنائية وطوارئ) أصرح تعبير عن عطفه بل وتأييده إلى حد

---

(١) انظر أوسع التفاصيل عن وجهة النظر الإسلامية فى إباحة الرق الحربى فى كتابنا (غزوة بنى قريظة) ص ٢٨٣ تحت عنوان (الإسلام والرق) .

التعصب ليهود خيبر الذين هم عدو محارب للمسلمين الذين يقع أبو الشحم اليهودى تحت سلطانهم وفى قبضة أيديهم بحيث يستطيعون إنزال ما يريدون به من عقاب دون أن يجد من يحميه .

ولكن ما الذى حدث ؟ لقد سخر هذا اليهودى من قوة المسلمين الذين هو فى ذمتهم وتحت سلطانهم ، وعظم من قوة يهود خيبر وتمنى لهم النصر على المسلمين ، وخوّفهم بعددهم وعديدهم حتى أغضب أحد جنود الإسلام ، وعندما رفع هذا الجندى (أبو حدرد) أمره إلى رسول الله ﷺ لم يتخذ ضد هذا اليهودى أى إجراء ، بل أمر الجندى المشتكى بأن يدفع إلى اليهودى ما عليه له من دين قائلًا : أعطه حقه .

فهل يرى أدعياء الديمقراطية فى هذا العصر (شرقيين كانوا أم غربيين) أنهم يستطيعون معاملة من يخالفهم فى العقيدة والمذهب والاتجاه ممن هو تحت سلطانهم معاملة النبى محمد ﷺ لهذا اليهودى (أبى الشحم) وخاصة إذا ارتكب هذا المخالف شيئاً مما ارتكبه أبو الشحم ؟

لاأظن أن أحداً (وخاصة من أدعياء الديمقراطية فى المعسكر الاشتراكى) يستطيع الاقتراب مجرد الاقتراب (فى معاملته للخصوم) من المعاملة الشريفة التى عامل بها نظام الإسلام الحكيم مثل هذا اليهودى من الخصوم والمخالفين .

يهود المدينة والتجسس على المسلمين :

ولم يكتف يهود يثرب بالتعبير عن عطفهم على يهود خيبر والتعصب لهم ، بل بلغت بهم الجرأة إلى أن يتجسسوا على المسلمين لحساب يهود خيبر ، فقد بعثوا بأعرابى من أشجع استأجروه ليحمل إلى قادة يهود خيبر كل مايحتاجون من معلومات عن الجيش الإسلامى ويطلبون منهم الصمود فى وجه المسلمين ، وقد وقع هذا الجاسوس فى قبضة دورية للجيش الإسلامى كانت تقوم بالاستطلاع ، كما سيأتى تفصيله فى موضعه إن شاء الله .

عدم التورية فى غزوة خيبر :

لم يورى النبىُّ ﷺ فى غزوة خيبر هذه (كما هى عادته فى أكثر غزواته البعيدة) بل أعلن التعبئة العامة وأعلم الناس أنه يريد خيبر .

ولعل ذلك راجع (فى الدرجة الأولى) إلى أن المسلمين باتوا آمنين على المدينة من أن تكون عرضة لأى هجوم من قبل الأعراب الوثنيين المجاورين بعد تلك الحملات العسكرية التأديبية التى جردها عليهم النبى ﷺ فخضد بها شوكتهم .. وإلى أن قيام المسلمين بالزحف على خيبر لم يعد سراً يمكن إخفاؤه ، لأن اليهود فى خيبر (منذ فشل العدوان الآثم الذى دبروه مع الأحزاب على المدينة فى السنة الرابعة من الهجرة) وهم يتوقعون أن يقوم النبى ﷺ بنقل المعركة إلى عقر دارهم فى خيبر .

فكانوا لذلك يستعدون للحرب بإقامة المسالح وتشييد الحصون والقلاع وشحنها بالمقاتلين تحسباً للهجوم المنتظر عليهم . كما أن صلح الحديبية قد أمن به المسلمون جانب قريش .

ولا يستبعد أن يكون اليهود قد بثوا الأرصاد والعيون فى المسالك والطرق المؤدية من المدينة إلى خيبر لمراقبة ما يتوقعون من تحركات يقوم بها الجيش النبوى . لقد حدث ذلك بالفعل كما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

المنافقون طابور اليهود الخامس :

بل إن يهود خيبر ليسوا بحاجة إلى أن يبعثوا بالأرصاد والجواسيس لينقلوا إليهم حقيقة الموقف فى المدينة وليبلغوهم كيف ومتى يعتزم النبى التحرك بجيشه لغزوهم .

فقد كان الباطنيون من المنافقين الذين يحملون الهوية الإسلامية فى الظاهر والمقيمون بين أظهر المسلمين .. كان هؤلاء المنافقون بمثابة الرَّتْل الخامس العامل لحساب يهود خيبر بين صفوف المسلمين فى المدينة .

فقد كان هؤلاء المنافقون (منذ بزغت شمس الإسلام ووصل شعاعه إلى يثرب) يشكلون مع اليهود فى المدينة جبهة قوية مناوئة للإسلام والمسلمين .

اليهود يمثِّلون المعارضة الصريحة والعاداة السافرة . والمنافقون يقفون وراء هؤلاء اليهود كعناصر سرية مساندة .. تشجعهم على التحرش بالمسلمين وتشدُّ من عضدهم ، بل وتمد إليهم يد العون المادى والأدبى جهراً ، إن أمكن ، وسراً إذا لم يمكن الجهر .

وقد خلق هذا الطابور الخامس (من المنافقين) للمسلمين متاعب كثيرة ومشاكل معقدة بالتواطؤ مع العناصر اليهودية عندما كان كيانها الدخيل لا يزال قائماً فى المدينة .

ولقد عرف التاريخ كيف كان هؤلاء المنافقون يقفون موقف العطف والتأييد لليهود فى أى خلاف ينشب بينهم وبين المسلمين .

فقد عرفنا كيف كان المنافقون يشجعون يهود بنى قينقاع على العصيان والتمرد والتحرش بالمسلمين . وكيف حرضوا يهود بنى النضير على عدم الرضوخ للإنذار النبوى بالجلاء .

وعندما اضطر النبى ﷺ إلى محاصرة هؤلاء اليهود لتأديبهم على ما ارتكبوا من نكث للعهود ونزل هؤلاء اليهود على حكم النبى ﷺ بعد حصار دام حوالى نصف شهر .. لم يُخْفِ الرتل الخامس من هؤلاء المنافقين جزعهم الشديد لهذا الحادث .

ولم يكتموا جزعهم وخوفهم على مصير يهود بنى قينقاع الذين كان الموت ينتظرهم كخونة متمردين ناكثين أُرغموا على الاستسلام بالقوة .

وكان أشد هؤلاء المنافقين جزعاً وخوفاً على مصير حلفائه بنى قينقاع ، رأس النفاق عبد الله بن أبى بن سلول ، الذى حمله الخوف على مصير اليهود على أن يقدِّم إلى الرسول القائد ﷺ التماساً يطلب فيه منه أن يحقن دماءهم ، وكان هذا المنافق سيداً من سادات الخزرج ، وحليفاً لهؤلاء اليهود .

وقد عفى النبى ﷺ عن هؤلاء اليهود وحقن دماءهم بناء على التماس عبد الله بن أبىّ الذى ألح على النبى ﷺ فى الشفاعة إلى حد المضايقة والإحراج حيث أمسك هذا المنافق بدرع النبى ﷺ وقال له — عندما لم ير

منه استجابة لالتماسه – : والله لا أرسلك حتى تحسن فى حلفائى ، فقال له النبى ﷺ : هم لك (١) .

الرتل الخامس وبنو النضير :

ولعل أبرز أدوار التعاطف والتلاحم بين الرتل الخامس من المنافقين وبين أصدقائهم اليهود هو دور هؤلاء المنافقين فى حوادث فتنة يهود بنى النضير الذين يعتبرون من أصدقاء عبد الله بن أُبىّ وفئته الباطنيين من الطابور الخامس .

فعندما ضرب النبى ﷺ الحصار على هؤلاء اليهود فى المدينة – عقب اكتشاف مؤامرة الاغتيال التى دبروها لقتل النبى – وكاد هؤلاء اليهود يرضخون للإنذار الذى وجّه إليهم من قبل النبى ﷺ بأن يجلوا من المدينة ، بعث إليهم زعيم الطابور الخامس (المنافقين) عبد الله بن أُبىّ بن سلول يحثهم على الصمود فى وجه المسلمين ورفض إنذارهم ، كما وعدهم بأنه وجماعته الباطنيين وحلفاءهم من الأعراب الوثنيين سيكونون إلى جانبهم ضد المسلمين .

وعندما انهارت مقاومة يهود بنى النضير وقبلوا شرط الجلاء الذى أملاه المسلمون ، ونزل واستوطن هؤلاء اليهود خيبر إلى جانب إخوانهم ، ظلوا على صلة وثيقة بأصدقائهم المنافقين فى المدينة (٢) .

وظل هؤلاء المنافقون يقومون بين صفوف المسلمين بأعمال الطابور الخامس لحساب يهود خيبر حيث صاروا يتجسسون على المسلمين ، فينقلون من أخبار وأسرار المسلمين كل ما يهم يهود خيبر معرفته والإلمام به .

رأس النفاق يشعر اليهود بغزو المسلمين :

ولا أدلّ على ذلك من أن النبى ﷺ لما اعتزم الزحف على خيبر ، سارع

---

(١) انظر تفاصيل إجلاء يهود بنى قينقاع فى كتابنا (غزوة أحد) .

(٢) انظر تفاصيل قصة جلاء يهود بنى النضير فى كتابنا (غزوة أحد) .

عبد الله بن أُبىّ وأشعر يهود خيبر بذلك ، وطلب منهم أن يستعدوا ويأخذوا حذرهم ، وصار يرفع من معنوياتهم بالتهوين من شأن قوة المسلمين والإشادة بقوات أولئك اليهود ، وذلك فى رسالة مستعجلة بعث بها أحد أعوانه إلى خيبر ، ومما جاء فى هذه الرسالة :

«إن محمداً سائر إليكم فخذوا حذركم وأدخلوا أموالكم حصونكم واخرجوا لقتاله ، ولا تخافوا منه ، إن عددكم كثير ، وقوم محمد شرذمة قليلون عُزّل لا سلاح معهم إلا القليل» (١) .

استعداد اليهود للمواجهة :

لقد كان يهود خيبر منذ فشل خطة غزو الأحزاب التى هى من وحى اليهود وتدبيرهم فى السنة الرابعة من الهجرة – يتوقعون أن يقوم المسلمون بتأديبهم عن طريق حرب وقائية شاملة ، ولذلك كانوا يستعدون للمواجهة (بصفة عامة) ، إلا أنهم ما كانوا يعلمون (على وجه التحديد) متى سيتحرك النبى ﷺ بجيشه لغزوهم .

إلا أنهم بعد أن تلقوا – عن طريق عملائهم المنافقين فى المدينة – التفاصيل الدقيقة عن مدى قوة المسلمين ، أخذوا فى التهيؤ والاستعداد للمواجهة وعلى أوسع نطاق وبصورة أكثر جِدّية .

فحشدوا كافة قواهم العسكرية واتخذوا كافة الإجراءات التى يرونها ضرورية لمواجهة الغزو .

والمتتبع لأسلوب استعداد يهود خيبر للحرب ، يتضح له أن خطتهم الأساسية كانت خطة دفاعية محضة بالرغم من تفوقهم على المسلمين تفوقاً ساحقاً فى كل شىء مادى .

فبالإضافة إلى إعطاء حصونهم وقلاعهم – المنيعة والحصينة أصلًا – مزيداً من القوة والتحصين أخلوا كل الحصون والقلاع الأمامية من الذرارى والنساء ونقلوهم إلى حصون خلفية ، قرروا بموجب خطة المواجهة التى وضعوها أن تكون هذه الحصون الخلفية خط الدفاع الثانى ، إذا ما اجتاح

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥٧ .

المسلمون خط الدفاع الأول المتمثل فى الحصون والقلاع الأمامية التى أخلوها من كل شيء ، ولم يسمحوا لأحد أن يبقى فيها غير حملة السلاح الذين امتلأت بهم ساحات وأبراج هذه الحصون .

كما نقلوا (كجزء من خطة المواجهة) شيئاً عظيماً من المواد الغذائية إلى خط الدفاع الثانى ليكون ذلك عوناً لهم على مواجهة الحصار الذى كانوا يتوقعونه .

اختلاف قادة اليهود فى وضع الخطط :

وكان قادة اليهود عندما أحسوا بمسير رسول الله ﷺ إليهم بجيشه عقدوا مجلساً عسكرياً تبادلوا فيه الرأى حول أفضل الخطط التى يجب اتباعها لمواجهة جيش الإسلام الغازى .

وأثناء بحث هذا الموضوع انقسم قادة اليهود إلى فئات ثلاث : فئة ترى أن يتحصن اليهود فى الحصون والقلاع ويقاتلوا المسلمين من وراء الأسوار بحجة أن ذلك يُضْجِر المسلمين فيجبرهم فى النهاية على الانسحاب دون أن يقدروا على اقتحام الحصون لمناعتها وكثرة المقاتلين فيها .

وفئة ترى أن على يهود خيبر أن يُعسْكروا خارج الحصون والقلاع ويواجهوا المسلمين فى العَراء فيخوضوا معهم معركة فاصلة خاطفة بدلًا من التحصن داخل الحصون والقلاع .

وكان على رأس الفريق الثانى أحد قادتهم الكبار وهو الحارث الملقب (بأبى زينب) وهو أخو (مرحب الفارس المشهور) وكلاهما من قبيلة حِمْيَر [١] .

فقد قال أبو زينب [٢] (شارحاً وجهة نظره ومحبذاً البروز للمسلمين) : إنى قد رأيت من سار إلى (محمد) من الحصون ، لم يكن لهم بقاء بعد أن

---

(١) انظر سيرة ابن هشام .

(٢) قتل أبو زينب هذا مبارزة عند باب حصن ناعم وكان أول قتيل من قادة اليهود الكبار ، قتله على ابن أبى طالب ، وقال آخرون قتله أبو دجانة .

حاصرهم حتى نزلوا على حكمه ، ومنهم من سبى ومنهم من قُتِل صبراً ..
ثم استرسل أبو زينب فى شرح فوائد فكرة الاصطدام بالمسلمين خارج القلاع والحصون فى معركة سريعة حاسمة ، محاولًا إقناع زملائه من القادة بقبول فكرته الجريئة .

غير أن اقتراح أبى زينب هذا لم يلق أى تجاوب من القادة اليهود حيث رفضوه وأيّدوا فكرة التحصن داخل القلاع ومواجهة المسلمين من وراء أسوارها قائلين : ياأبا زينب إن حصوننا هذه ليست مثل تلك ، هذه حصون منيعة فى ذرى الجبال ، ثم خالفوه (١) .

أما الفئة الثالثة فقد ذهبت فى الجرأة إلى أبعد مما ذهب إليه الحارث أبو زينب ، حيث اقترحت (لاملاقاة المسلمين خارج حصون خيبر) بل اقترحت هذه الفئة القيام بغزو المسلمين فى المدينة ، وضربهم فيها قبل أن يتحرَّكوا بقواتهم نحو خيبر .

وكان على رأس هذه الفئة (سلّام بن مشكم النضرى) الذى كان القائد العام للقوات اليهودية فى خيبر والذى يقال له فى ذلك العصر : (صاحب حربهم) (٢) .

فقد ذكر المؤرخون أن سلام بن مشكم قال فى اجتماع لهم (محملًا حيى ابن أخطب ماأصاب يهود يثرب وخاصة ماحلَّ ببنى قريظة) : هذا كله عمل حُيىٍّ بن أخطب شأمنا أولًا ، وخالفنا فى الرأى ، فأخرجنا من أموالنا وشرفنا (٣) وقتل إخواننا (يعنى بنى قريظة الذين غرر بهم حيى بن أخطب

---

(١) مغازى الواقدى ج ٣ ص ٦٣٧ .
(٢) انظر مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٨٠ .
(٣) كان سلام بن مشكم — مع منصبه القيادى الحربى — حبراً من أحبار اليهود وكان يعلم أن النبى محمد ﷺ رسول من عند الله ، لذلك كان (حرصاً على سلامة اليهود) يعارض حيى بن أخطب فى مشاريعه العدوانية وخططه التآمرية على المسلمين ، ومن ذلك أنه الزعيم اليهودى الوحيد الذى عارض فكرة اغتيال النبى ﷺ فى ديار بنى النضير بالمدينة ولكن معارضته رفضت ، واتبع بنو النضير رأى حيى بن أخطب فحاولوا الاغتيال ، وكان ذلك سبب نفيهم من المدينة (انظر كتابنا غزوة الأحزاب ص ٥٦) .

فخانوا عهد المسلمين) وأشد من القتل سبأ الذرية ، لا قامت يهود بالحجاز أبداً ، ليس لليهود عزم ولا رأى . فقالوا : فما الرأى يا أبا عمرو ؟ (وهذه كنيته) قال : وما تصنعون برأى لا تأخذون منه حرفاً ؟

فكرة غزو المدينة :

قال كنانة (وأظنه ابن أبى حُقَيق) : ليس هذا بحين عتاب ، قد صار الأمر إلى ما ترى . قال : محمد قد فرغ من يهود يثرب ، وهو سائر إليكم ، فنازل بساحتكم ، وصانع بكم ما صنع ببنى قريظة . قالوا : فما الرأى ؟ قال : نسير إليه بمن معنا من يهود خيبر ، فلهم عدد ، ونستجلب يهود تيماء وفدك ، ووادى القرى ، ولا نستعين بأحد من العرب ، فقد رأيتم فى غزوة الخندق (الأحزاب) ما صنعت بكم العرب (يعنى غطفان) بعد أن شرطتم لهم تمر خيبر نقضوا ذلك وخذلوكم ، وطلبوا من محمد بعض تمر الأوس والخزرج ينصرفون عنه[1] . مع أن نعيم بن مسعود هو الذى كادهم بمحمد[2] ومعروفهم إليه ، معروفهم !!

ثم كرر سلَّام بن مشكم دعوته إلى غزو النبى ﷺ فى المدينة قبل أن يزحف إلى خيبر قائلاً : ثم نسير إليه (أى النبى ﷺ) فى عقر داره ، فنقاتل على وِتْرٍ حديث وقديم .

فمال أكثر قادة اليهود إلى رأى (سلَّام بن مِشْكم) قائلين : هذا الرأى .

ولكن ملك اليهود (كنانة بن أبى الحُقَيق) عارض فكرة غزو المدينة التى أبداها سلام بن مشكم قائلاً : إننى قد رأيت العرب (أخبرتهم) فرأيتهم أشدّاء عليه (أى النبى ﷺ) وحصوننا هذه ليست مثل ما هناك ــ يعنى يثرب ــ ومحمد لا يسير إلينا أبداً لما يعرف .

---

(١) فى كتابنا الثالث من معارك الإسلام الفاصلة (غزوة الأحزاب الفصل الثالث ص ١٩٩) انظر تفاصيل مفاوضة النبى ﷺ وقادة غطفان السرية لعقد صلح منفرد والحرب قائمة .

(٢) انظر أوسع التفاصيل عن مكيدة نعيم بن مسعود التى كاد بها قوات الأحزاب فحول بها ميزان المعركة لصالح المسلمين بدهائه . انظر هذه التفاصيل فى كتابنا (غزوة الأحزاب الفصل الرابع ص ٢٤٨ وما بعدها) .

فغضب سلّام بن مِشكْم لمعارضة كنانة بن أبى الحُقَيق لاقتراحه وقال بحدة – مشيراً إلى كنانة – : هذا رجل لا يقاتل حتى يؤخذ برقبته ، فكان ذلك ، (حيث قتل كنانة وكل قادة اليهود فى حرب خيبر) [1] .

خيبر تستنجد بأعراب نجد :

على أثر المعلومات التى تلقاها يهود خيبر من عملائهم المنافقين واليهود فى المدينة ، والتى تفيد أن النبى ﷺ قد قرر الزحف على خيبر ، سارع يهود خيبر إلى طلب النجدة من أصدقائهم القدامى وجيرانهم أعراب نجد .

فقد بعثت خيبر بوفد من زعمائها ليطوف على هذه القبائل الوثنية ويطلب منها النجدة والمساعدة لمواجهة الجيش النبوى الذى يعتبره الفريقان عدواً مشتركاً .

وكان هذا الوفد اليهودى مكوّناً من أربعة عشر رجلًا على رأسهم كنانة ابن أبى الحقيق ملك خيبر الجديد ، وهوذة بن قيس الوائلى أحد قادة اليهود البارزين .

وقد طاف هذا الوفد اليهودى على قبائل غطفان الوثنية طالباً منها مَدَّه بقوات كبيرة ترابط إلى جانب يهود خيبر لمواجهة المسلمين .

مرابطة الأعراب مع اليهود فى خيبر :

ولم تتردد هذه القبائل الوثنية فى الاستجابة لطلب اليهود وخاصة : غطفان وبنى أسد ، فقد بعثوا بعدة كتائب من رجالهم لنجدة اليهود بقيادة عيينة بن حصن الفزارى على رجال غطفان وطليحة بن خويلد الأسدى على بنى أسد . كما وعدوا بتجهيز أربعة آلاف مقاتل لمساندة اليهود . وقد رابط رجال هذه الكتائب مع اليهود فى حصونهم بخيبر ، ليشاركوهم فى مسؤولية الدفاع عن هذه الحصون عندما يشن المسلمون عليها هجومهم [2] .

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٥٣٠ .

(٢) انظر مختصر مغازى الواقدى ص ٣١٢ .

ولم يعظ أحد من المؤرخين تحديداً لعدد الرجال الذين رابطوا (من غطفان وبنى أسد) إلى جانب اليهود فى حصونهم أول الأمر ، إلا أن الاحتمال قوى بأن عددهم لا يقل عن ألف مقاتل ، وبهذا يكون عدد القوات التى تحصنت داخل قلاع خيبر لمواجهة المسلمين لا يقل عن أحد عشر ألفاً .. على ألف وأربعمائة مقاتل من المسلمين (فقط) أن يهاجموهم .

إنها مهمة شاقة وعسيرة على المسلمين أن يقوموا بها ، وتغلب هذه القلة من المسلمين المكشوفين فى العراء على تلك الكثرة الهائلة المتحصنة خلف أسوار تلك القلاع المنيعة هو نوع من المعجزات إن صح هذا التعبير .

رفض بنى مرة أن ينجدوا اليهود :

وإذا كانت قبائل غطفان وبنى أسد قد استجابت لنداء يهود خيبر فأرسلت بتلك القوات من أبنائها لنجدتهم بقيادة سيدين من كبار ساداتهم (عيينة بن حصن وطليحة بن خويلد) فإن قبيلة بنى مرة (التى كانت أحد الأجنحة الأربعة فى القوات النجدية المحالفة لليهود التى شاركتهم فى غزو المدينة عام الأحزاب) هذه القبيلة النجدية رفضت الاستجابة لنداء اليهود فلم ترسل إليهم ولا برجل واحد .. وذلك اتباعاً لنصيحة سيدها الحارث بن عوف المرّى الذى نصحها بأن لا تتورط فى مساندة اليهود فى خيبر كما تورطت فى الاستجابة لوساوسهم حين شاركت فى الحلف اليهودى الوثنى الذى شُنَّ على المسلمين فى حملة الأحزاب الخاسرة الشهيرة .

فقد أدرك هذا السيد المرّى برجاحة عقله (على ضوء ما لديه من معلومات مصدرها أحبار اليهود أنفسهم) أن اليهود – عندما يهاجمهم المسلمون – سيخوضون معركة خاسرة ، وإنه – لذلك – يرى أنه من العبث تقديم رقاب بنى مرّة للموت فى معركة نهايتها معروفة ، وهى انهزام اليهود وانتصار المسلمين ، وذلك الذى جعله يمنع بنى مرة من نجدة اليهود .

الحارث بن عوف ينصح عيينة بن حصن :

ولم يكتف سيد بنى مرّة بإقناع قومه بعدم التورط فى مساندة يهود

خيبر ضد المسلمين ، بل ذهب إلى سيد فزارة عيينة بن حصن ونصحه بأن لا يستجيب لنداء اليهود ، وأبلغه صراحة أنه إن فعل ، إنما يأتى عبثاً ويرتكب خطأ ، فقد قال الحارث لعيينة ناصحاً :

« ياعيينة إنك توضعُ فى غير شىء ، والله - ياعيينة - ليظهرن محمد على ما بين المشرق والمغرب .. يهود يخبروننا بذلك . أشهد إنى لسمعت أبا رافع سلّام بن أبى الحقيق يقول : إنا لنحسد محمداً على النبوة حيث خرجت من بنى هارون وهو (أى محمد) نبى مرسل .. ويهود لاتطاوعنى على هذا .. ولنا منه ذِبحان .. واحد بيثرب (وقد كان) وواحد بخيبر .. فقلت له : (ياسلام) يملك الأرض جميعاً ؟ قال : نعم والتوراة التى أُنزلت على موسى .. وماأحب أن يعلم يهود بقولى فيه » [1] .

تحرك الجيش النبوى نحو خيبر :

وبينما كان اليهود يعدون العدة لمواجهة المسلمين ويتصلون بحلفائهم من قبائل نجد الوثنية لإنجادهم ، كان المسلمون فى المدينة يهيئون أنفسهم ويستكملون تجهيزات جيشهم للمعركة الفاصلة التى قرر النبى ﷺ خوضها مع اليهود لإنهاء وجودهم الدخيل فى الجزيرة كلها .

وبعد أن أكمل النبى ﷺ حشد جيشه وإعداده فى المدينة فصل به من المدينة فى اتجاه خيبر ، وكان ذلك فى أوائل شهر محرم من السنة السابعة للهجرة .

نائب النبى على المدينة :

وقبل أن يفصل النبى ﷺ بجيشه من المدينة (وكما هى عادته فى مثل هذه الظروف) أصدر ﷺ مرسوماً نبوياً عين بموجبه سباع بن عرفطة الغفارى أميراً على المدينة يدير شؤونها نيابة عنه حتى عودته من خيبر [2]

---

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٣٣٩ .

(٢) طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ١٠٦ .

مدى قوة المسلمين :

وكانت قوة المسلمين (كما تقدم) تبلغ ألفاً وأربعمائة مقاتل كلهم حضر الحديبية ، وكان ضمن هذه القوة مائتا فارس .

وهذا أكبر عدد من الفرسان ، يتوفر لدى المسلمين فى جيش يغزون به فى تاريخهم حتى ذلك اليوم .

أما وسائل النقل الأخرى كالجمال ، فلم يذكر أحد من المؤرخين (فيما بلغنى) كم كان عددها لدى الجيش الغازى .

سلاح الاستكشاف :

وقبل أن يتحرك النبى ﷺ بجيشه من المدينة كوّن وحدة للاستكشاف والاستطلاع كلها من الفرسان بقيادة أحد قادة الحرس النبوى (عبّاد بن بشر الأنصارى) وقد كانت مهمة هذه الوحدة أن تنطلق أمام الجيش النبوى لارتياد المسالك والطرق وكشفها أمام الجيش الزاحف للتأكد من خلوّها من كائن الأعداء وجواسيسهم وللتعرف على أخبارهم .

أدلاء الجيش :

كما أن النبى ﷺ وأصحابه لما كانوا يجهلون المسالك والطرق المؤدية إلى خيبر ولا يعرفون شيئاً عن طبيعة البلاد التى سيمر بها الجيش ، فقد استعانوا بأدلاء خبيرين بتلك الأرض ومسالكها ليدلوا الجيش حتى يصل إلى خيبر .

وكان من هؤلاء الأدلاء الذين اختارهم النبى القائد ﷺ حسيل بن خارجة وعبد الله بن نعيم ، وكلاهما من قبيلة أشجع النجدية التى يرتاد رجالها دائماً فى الجاهلية منطقة خيبر .

طريق الجيش إلى خيبر :

تقع خيبر (كما قلنا) شمال شرقى المدينة ، أما الطريق التى سلكها النبى ﷺ إلى خيبر ، فقد ذكر المؤرخون [1] خرج بجيشه من المدينة فسلك ثنية

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥٨ ومغازى الواقدى (تحقيق الدكتور مارسدن جونس) ج ٢ ص ٦٣٨ وما بعدها .

الوداع [١] ثم أخذ على الزغابة [٢] ثم على نقمْى [٣] ثم سلك المستناخ ثم على عصر [٤] حتى انتهى إلى الصهباء [٥] قال الواقدى : صلى ﷺ بالصهباء العصر ثم دعا بالأطعمة فلم يؤت إلا بالسويق والتمر فأكل ﷺ وأكلوا معه ثم قام إلى المغرب فصلى بالناس ولم يتوضأ ثم صلى العشاء بالناس .

وفى الصهباء (وهى أقرب منزل نزله النبى بجيشه من خيبر) قرر أن يكون هجومه على خيبر من ناحيتها الشمالية ، ليحول بين اليهود وبين الفرار إلى الشام .

فقد استدعى الأدلاء فجاءه حسيل بن خارجة الأشجعى وعبد الله بن نعيم الأشجعى ، فأخبرهما بخطته الرامية إلى مهاجمة خيبر من الشمال قائلاً : امض أمامنا حتى نأخذ صدور الأودية حتى نأتى خيبر من بينها وبين الشام وبين حلفائهم من غطفان ، فقال حسيل : أنا أسلك بك ، فانتهى به الدليل (حسيل) إلى موضع له طرق متعددة كلها تؤدى إلى خيبر ، فقال : يا رسول الله إن لها طرقاً يؤتى منها كلها ، فطلب الرسول ﷺ من الدليل (حسيل) أن يسمى هذه الطرق فوصفها وسماها ، فاختار الرسول ﷺ سلوك طريق منها اسمها (مرحب) فاجتازها حتى انتهت به إلى خيبر من ناحيتها الشمالية .

وقد سلك على حياض والسرير [٦] فاتبع صدور الأودية حتى هبط على

---

(١) ثنية الوداع ممر رئيسى يقع شمال المدينة .

(٢) زغابة (بضم أوله) موقع على بعد أميال من المدينة ناحية الشمال ، بين الجرف والغابة .

(٣) نقمى (بفتح أوله) قال ياقوت فى معجمه : موضع إلى جانب أحد .. يقع فى الطرف الغربى للجبل .

(٤) عصر (بكسر أوله وسكون ثانيه) جبل بين المدينة ووادى الفرع ، قال ابن إسحاق : بنى النبى ﷺ بعصر مسجداً وهو فى طريقه إلى خيبر والفرع (بضم أوله وسكون ثانيه) قال : ياقوت : قرية من نواحى المدينة بينها وبين المدينة ثمانية برد .

(٥) الصهباء (بفتح أوله وسكون ثانيه) قال فى معجم البلدان ، موضع بينه وبين خيبر ، روحة ، له ذكر فى الأخبار .

(٦) السرير : الوادى الأدنى من خيبر ، كذا قال السمهودى فى وفاء الوفاء .

الخرصة [١] ، ثم نهض فسلك بين الشق [٢] والنطاة [٣] .

إلقاء القبض على جاسوس :

وأثناء قيام عبَّاد بن بشر ودوريته بأعمال الاستكشاف أمام الجيش النبوى ألقوا القبض على رجل من (أشجع) بعد أن اشتبهوا فيه بأنه جاسوس لليهود .

وقد أنكر الأشجعى (أول الأمر) أن يكون جاسوساً ، إلا أن التحقيق الشديد الذى أجراه معه قائد الدورية حمله على الاعتراف بتجسسه لحساب اليهود .

فعندما سأله عبَّاد بن بشر : من أنت ؟ قال : باغ أبتغى أبعْرة ضلّت لى ، أنا على أثرها .

فقال له عباد : ألك علم بخيبر ؟

قال : عهدى بها حديث ، فيم تسألنى عنه ؟

قال : عن اليهود .

قال : نعم ، كان كنانة بن أبى الحقيق [٤] وهوذة بن قيس [٥] ساروا فى حلفائهم من غطفان فاستنفروهم وجعلوا لهم تمر خيبر سنة ، فجاءوا معدّين مؤيدين بالكراع [٦] والسلاح ، يقودهم عتبة بن بدر ودخلوا معهم فى حصونهم ، وفيها عشرة آلاف مقاتل ، وهم أهل الحصون التى لاترام ، وسلاح وطعام كثير لو حُصِروا لسنين لكفاهم ، وماءواتِن [٧] يشربون من

---

(١) الخرصة : بفتح أوله وثانيه ، قال فى السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥٨ حصن من حصون خيبر .

(٢) الشق : منطقة فى خيبر تقع فيها مجموعة من حصون اليهود تقع فى القسم الأول من مدينة خيبر .

(٣) النطاة : بفتح أوله منطقة دارت فيها أعنف المعارك فى خيبر .

(٤) كنانة بن أبى الحقيق أحد ملوك اليهود فى خيبر ، وكان من الذين حزبوا الأحزاب من قريش وأعراب نجد ضد المسلمين .

(٥) هوذة بن قيس من قبيلة وائل ، عربى دان باليهودية وكان ضمن الوفد الذى خرج من خيبر لتحزيب الأحزاب ضد المسلمين فى السنة الرابعة من الهجرة .

(٦) الكراع : كناية عن الخيل .

(٧) الماء الواتن : الدائم الذى لم ينقطع .

حصونهم ، ما أرى لأحد بهم طاقة .

وهنا ترجح لدى قائد دورية الاستكشاف (عباد بن بشر) أن الأعرابى عَيْنٌ لليهود ومأجور لهم ، فضربه بالسوط ضربات وقال : ما أنت إلا جاسوس لليهود ، ثم شدد عليه قائلًا : اصدقنى وإلا ضربت عنقك .

قال الأشجعى : أتؤمننى على أن أصدقك ؟

قال عباد : نعم .

قال الأعرابى : القوم (يعنى يهود خيبر) مرعوبون خائفون وجِلون ، لما قد صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود ، وإن يهود يثرب بعثوا ابن عم لى وجدوه بالمدينة ، قد قدم بسلعة يبيعها ، فبعثوه إلى كِنانة بن أبى الحقيق يخبرونه بقلتكم وقلة خيلكم وسلاحكم ، ويقولون له : فأصدقوهم الضرب ، ينصرفوا عنكم ، فإنه لم يلق قوماً يُحْسنون القتال ! وقريش والعرب قد سُرُّوا بمسيره إليكم لما يعلمون من موادِّكم وكثرة عددكم وسلاحكم وجودة حصونكم ، وقد تتابعت قريش وغيرهم ممن يهوى محمد ، تقول قريش : إن خيبر تظهر ، ويقول آخرون : يظهر محمد ، فإن ظفر محمد فهو ذل الدهر .. قال الأعرابى (لعباد بن بشر) : وأنا أسمع كل هذا ، فقال لى كِنانة بن أبى الحُقيَق : اذهب معترضاً للطريق فإنهم (أى المسلمين) لا يستنكرون مكانك ، واحزرهم لنا [(١)] وادْنُ منهم كالسائل لهم ما تقوى به ، ثم القِ إليهم كثرة عددنا ومادتنا ، فإنهم لن يدعوا سؤالك ، وعجّل الرجعة إلينا بخبرهم .

وبعد أن أكمل قائد الدورية (عباد) التحقيق مع الجاسوس أخذه إلى النبى القائد ﷺ فأطلعه على نتيجة التحقيق واعترافات هذا الجاسوس ، فقال عمر بن الخطاب : دعنى أضرب عنقه .

فقال عباد بن بشر : لا .. جعلت له الأمان .

فقال رسول الله ﷺ لعباد بن بشر : امسكه معك يا عباد .. فأوثقه عباد رباطاً ، فلما دخل رسول الله ﷺ خيبر أمر بإحضار الجاسوس فدعاه

---

(١) حزره : تفحصه وعرف حقيقته كماً أو كيفاً .

إلى الإسلام فأسلم فنجى من الموت [١] .

نموذج من الانضباط العسكرى الشديد :

وأثناء تحرك الجيش النبوى نحو خيبر ، حدث حادث دلّ على تمسك النبى القائد ﷺ بالتزام الانضباط العسكرى بين جنوده ومعاقبة المخالف لهذا الانضباط أياً كان ، فقد حدَّث أحد جنود الجيش النبوى قائلا : فبينا رسول الله ﷺ فى الطريق إلى خيبر فى ليلة مقمرة ، إذ أبصر برجل يسير أمامه ، عليه شيء يبرق فى القمر كأنه فى الشمس وعليه بيضة ، فأنكر رسول الله ﷺ ذلك قائلًا : من هذا ؟ فقيل : أبو عبس بن جبر ، فقال ﷺ : أدركوه ، قال أبو جبر : فأدركونى فحبسونى (أى باعتبار أن انفراده عن بقية الجيش مخالفة للانضباط العسكرى فى ظروف حربية) قال أبو جبر : وأخذنى ما تقدم وما تأخر ، وظننت أنه قد نزل فىّ أمر من السماء ، فجعلت أتذكر ما فعلت ، حتى لحقنى رسول الله ﷺ فقال (منكراً) : مالك تقدم الناس لا تسير معهم ؟ فقلت يا رسول الله : ناقتى نجيبة (والنجيبة خفيفة الحركة) فلم يعاقبه الرسول ﷺ بأكثر من الحبس الذى ناله على يد رجال الدورية من مقدمة الجيش .

النبى وخط الرجعة :

بالرغم من مرور عشرين عاماً على بزوغ شمس الإسلام ، وبالرغم من مرور سبع سنوات على الوجود الإسلامى فى منطقة يثرب وبالرغم من ازدياد نفوذ الإسلام وتكاثر أنصاره فى هذه المنطقة فإن جميع القبائل العربية الواقعة شرق وشمالى المدينة ظلت على عدائها للإسلام وخاصة القبائل النجدية القوية الحليفة لليهود والمجاورة لخيبر .

وعلى هذا فإن النبى ﷺ عندما فكَّر فى الزحف على خيبر كان يعلم أنه سيمر بجيشه فى أراض تقع تحت سلطان أعداء الإسلام .. وفى هذا دونما شك خطر لا يمكن أن يغيب عن بال النبى الأعظم والقائد الملهم .

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٤٠ تحقيق الدكتور مارسهدن ونشر جامعة أوكسفورد بإنكلترا .

ولا شك أنه ﷺ - كقائد عسكرى مسؤول - أدخل فى حسابه وجود هذا الخطر ، فاتخذ من الاحتياطات ما يدفع عنه وعن جيشه هذا الخطر الماثل فى انتشار القبائل الوثنية عن يمينه وعن شماله ومن خلفه وأمامه .

وأهم ما يمكن أن يخشاه قائد محارب يكون فى الوضع الذى كان عليه النبى ﷺ وهو فى طريقه إلى خيبر ، هو أن يقطع عليه الأعداء خط الرجعة (عندما يكون يحارب فى خيبر) .

لأن القبائل التى ستكون أو بإمكانها أن تكون خلفه عندما يتوغل بجيشه نحو خيبر - هى (كما قلنا) قبائل وثنية معادية موتورة .

النبى يطلب من غطفان عدم مناصرة اليهود :

وليس لدينا أو لم يصل إلى علمنا مدى الإجراءات التى اتخذها النبى القائد ﷺ لتأمين خط الرجعة ، ولتجنيب جيشه خطر التفاف الأعراب الوثنيين من خلفه عندما يكون قريباً من خيبر وبعيداً عن المدينة .

وكل ما حصلنا عليه من معلومات هو أن هناك خطة اتفق عليها اليهود والمرتزقة من غطفان تقضى بأن تقوم قبائل غطفان بمساندة اليهود ضد المسلمين عسكرياً حسب الخطة الآتية :

١ - أن تبعث قبائل غطفان بمجموعة من رجالها المسلحين إلى اليهود ليكونوا معهم فى حصونهم ، وقد فعلوا ذلك ، فأرسلوا عدة كتائب بقيادة عيينة ابن حصن وطليحة بن خويلد وحذيفة بن بدر الفزارى [١] .

٢ - أن يقوم أربعة آلاف مقاتل من غطفان بحركة التفاف على المسلمين لضربهم من الخلف عندما يكونون قريبين من خيبر .

وقد تعهد زعماء خيبر لغطفان بأن يمنحوهم نصف ثمار خيبر مقابل هذه المساندة العسكرية ضد المسلمين .

ولقد نفذ الغطفانيون البند الأول من الاتفاقية قبل أن يتحرك المسلمون

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٧٥ .

بجيشهم من المدينة إذ وصلت إلى خيبر عدة كتائب من جيوش غطفان وبنى أسد بقيادة طليحة بن خويلد الأسدى وعيينة بن حصن وحذيفة بن بدر الفزاريين فرابطت هذه القوات مع اليهود داخل قلاعهم وحصونهم (١) .

وأما البند الثانى من الاتفاقية فقد شرع الوثنيون فى تنفيذه ، إذ لم يكد النبى ﷺ يصل بقواته إلى ضواحى خيبر حتى تحركت من خلفهم أربعة آلاف مقاتل من غطفان بقصد الالتفاف على المسلمين لقطع خط الرجعة عليهم وجعلهم بين نارين (٢) .

ولا شك أن هذا قد أوقع المسلمين فى موقف حرج ، وخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن قوة المسلمين الغازية لا تزيد على ألف وأربعمائة مقاتل يقابلها للأعداء أحد عشر ألف مقاتل هى فى انتظارهم داخل الحصون والقلاع فى خيبر وأربعة آلاف مقاتل بدأت فى التحرك لتقطع خط رجعتهم من الخلف .. بل وتهاجمهم قبل أن يبدأوا (هم) الهجوم على اليهود .

فقد روى ابن إسحاق أن غطفان (وفق الخطة المتفق عليها بينه وبين اليهود) لما علموا أن النبى ﷺ قد تحرك نحو خيبر خرجوا ليظاهروا اليهود عليه وتحركت قواتهم لضرب الجيش النبوى من الخلف واستمرت فى تحركها يوماً وليلة (٣) .

وحين يتصور الخبير بشؤون الحرب وقوع ألف وأربعمائة محارب بين خمسة عشر ألف مقاتل يحيطون بهم من كل جانب ، يدرك مدى الخطورة التى كانت عليها تلك القوة المسلمة القليلة العدد التى هى فى حالة أشبه ما تكون بالتطويق .

النبى يفاوض غطفان لتخلى بينه وبين اليهود :

ونظراً للموقف الخطير الذى صارت إليه القوات الإسلامية الغازية قبل بدئها الهجوم على خيبر ، فقد قام النبى ﷺ - كقائد عسكرى مسؤول -

---

(١) مختصر مغازى الواقدى ص ٣١٢ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٧٥ .

(٣) مختصر مغازى الواقدى ص ٣١٢ .

بالاتصال بقادة قبائل غطفان ونصحهم بأن يلتزموا جانب الحياد فى الصراع الذى سيدور بينه وبين خيبر ، وأبلغهم (مؤكداً لهم) بأن الله سيفتح عليه خيبر لامحالة ، لأنه وعده بذلك ، ووعده لن يخلفه ..

فقد بعث إلى غطفان وبنى أسد رسالة قال فيها : «أن خلوا بينى وبين القوم (يعنى اليهود) ، فإن الله قد وعدنى أن يفتحها لى» (أى خيبر) .

ويقول المؤرخون أن النبى ﷺ ليجنب جيشه خطر مؤازرة قبائل غطفان وأسد لليهود ضده أبلغ رؤساء هذه القبائل بأنه على استعداد بأن تكون خيبر لهم إن هم أسلموا وخلّوا بينه وبين هؤلاء اليهود ، وبعض المؤرخين ذكر أنه لم يشترط إسلامهم ، بل طلب منهم التزام جانب الحياد فلا يعينوا اليهود عليهم ، على أن يعطيهم مقابل ذلك نصف ثمار خيبر بعد فتحها[1] .

ولا يستبعد أن يكون النبى القائد ﷺ – فى سبيل تجنيب جيشه شر مقاتلة هذه القبائل الوثنية الضاربة – قد تقدم إلى زعمائها بكلا العرضين الآخر بعد الأول .

إلا أن رؤساء هذه القبائل (على أى حال) قد ركبهم الغرور حين رأوا تلك القوات الضاربة منهم ومن حلفائهم اليهود .. خمسة عشر ألف مقاتل على وشك الإحاطة بألف وأربعمائة من المسلمين بعيدين عن حاضرتهم المدينة .. فظنوا أنهم الغالبون لا محالة وأنها ستكون حرب أحزاب ظافرة مظفرة ضد المسلمين لا كحرب الأحزاب الأولى التى اشتركت فيها قريش وقريظة حول أسوار المدينة فى السنة الرابعة من الهجرة والتى كانت نتيجتها الفشل .

لذلك رفض رؤساء هذه القبائل كل العروض النبوية وأبوا أن يلتزموا جانب الحياد ، فأبلغوا النبى ﷺ أنهم لن يتخلوا عن حلفائهم اليهود وأنهم سيقاتلونه إلى جانبهم[2] .

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٧٥ .

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٨١ ومختصر الواقدى ص ٣١٢ والسيرة الحلبية ٢ ص ١٧٥ .

وذكر الإمام الواقدى فى كتابه المغازى (ج ٢ ص ٦٥٠ تحقيق الدكتور مارسدن جونس ، نشر جامعة أكسفورد) : أن النبى ﷺ لما علم بمظاهرة غطفان اليهود عليه ومدَّهم بكتائب مسلحة ضد المسلمين ، بعث ﷺ بسيد الخزرج سعد بن عبادة إلى قائد غطفان عيينة بن حصن (وكان فى حصن مرحب وقتئذ ينسق مع اليهود على مايظهر) .

ولما علم عيينة أن سعداً مبعوث إليه من النبى ﷺ أراد أن يدخله الحصن ، فاعترض على ذلك القائد اليهودى مرحب قائلاً : لا تدخله فيرى خلل حصننا ويعرف نواحيه التى يؤتى منها ، ولكن تخرج إليه ، فقال عيينة : لقد أحببت أن يدخل فيرى حصانته ويرى عدداً كثيراً ، فأبى مرحب أن يدخله .

فخرج عيينة واجتمع بسعد عند باب الحصن ، فأبلغ سعد عيينة رسالة رسول الله ﷺ قائلًا : إن رسول الله ﷺ أرسلنى إليك يقول : إن الله قد وعدنى خيبر فارجعوا وكفُّوا ، فإن ظهرنا عليها فلكم تمر خيبر سنة ، فقال عيينة : إنا والله ما كنا نسلّم حلفاءنا لشىء ، وإنا لنعلم مالك ولمن معك بما ها هنا طاقة هؤلاء (يعنى اليهود) قوم أهل حصون منيعة ، ورجال عددهم كثير ، وسلاح ، إن أقمت هلكت ومن معك ، وإن أردت القتال عجَّلوا عليك بالرجال والسلاح ، ولا والله ، ماهؤلاء كقريش ، قوم ساروا إليك ، إن أصابوا منك غرّة ، فذاك الذى أرادوا وإلا انصرفوا ، وهؤلاء يماكرونك الحرب ويطاولونك حتى تملّهم .

هذه هى الرسالة التى طلب عيينة بن حصن من سعد بن عبادة أن يبلغها النبى ﷺ رداً على رسالته الآنفة الذكر .

غير أن سعداً قبل أن يعود إلى النبى ﷺ قال لعيينة بن حصن : اشهد ليحضرنك فى حصنك [1] هذا حتى تطلب الذى كنا عرضنا

---

(١) أكثر الروايات تشير إلى أن قوات غطفان الرئيسية (التى جاءت مدداً لليهود والبالغ عددها أربعة آلاف مقاتل لم يدخلها عيينة بن حصن فى حصون اليهود ، لأنها عادت إلى بلادها بعد أن قطعت مرحلة فقط كما صرح بذلك ابن إسحاق ، وعليه يمكن القول أن وجود عيينة بن حصن فى قلعة مرحب إنما كان للتفاوض والتنسيق وتفقد القوات الرمزية الغطفانية التى ترابط مع اليهود فى حصونهم بقيادة حذيفة بن بدر .

عليك ، فلا نعطيك إلا السيف ، وقد رأيت يا عيينة من قد حللنا بساحته من يهود يثرب ، مزّقوا كلّ ممزق .

وبعد ذلك رجع سعد إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما قال عيينة .. وقال سعد : يارسول الله ، إن الله منجز لك ما وعدك ومظهر دينه ، فلا تعط هذا الأعرابى (يعنى عيينة) تمرة واحدة ، يارسول الله ، لئن أخذه السيف ليسلمنهم وليهربن إلى بلاده كما فعل ذلك قبل يوم الخندق .

فلما يئس رسول الله ﷺ من أن تقبل غطفان العرض الذى عرضه عليها من إعطائها تمر خيبر سنة واحدة ، أمر قواته بالهجوم على الحصن الذى ترابط فيه قوات غطفان مع اليهود وهو حصن ناعم (حصن) مرحب وكان أول حصن يفتحه المسلمون ، بعد أن هرب الغطفانيون منه قبل الهجوم عليه كما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

وتنفيذاً لقرار محاربة غطفان الرسول ﷺ فى صف اليهود أصدروا أمرهم إلى الكتائب من بنى أسد وغطفان (والتى كانت قد رابطت مع اليهود فى حصونهم قبل أن يتحرك النبى ﷺ من المدينة) بأن تظل مكانها إلى جانب اليهود .. أما القوات الرئيسية من هذه القبائل الوثنية وهى أربعة آلاف مقاتل فقد أخذت فى التحرك من الوراء لتضرب المسلمين ساعة الصفر من الخلف .

تأزم الموقف لدى المسلمين :

ونتيجة إصرار غطفان وأسد على محاربة المسلمين إلى جانب اليهود أصبح الموقف بالنسبة للمسلمين موقفاً دقيقاً وحرجاً .. إلا أن ذلك لم يفتّ فى عضدهم ولم يثنهم عن عزمهم ، فقد استمروا فى تحركهم فى اتجاه خيبر واثقين من نصر الله تعالى وقد وعدهم ذلك ، والله لن يخلف وعده .. ولذلك فقد سار المسلمون فى طريقهم نحو المعركة الفاصلة وكلهم ثقة واطمئنان ، فلم يكن لتلك القوات الضاربة من الأعداء (اليهود وغطفان وأسد والتى قررت منازلتهم مجتمعة) لم يكن لها أى أثر ضار على معنوياتهم الحربية ، لأنهم بعد وعد الله الذى وعدهم لم يعودوا يزنوا الأمور ويقيسوها

بموازين ومقاييس مادية صرفة من حيث العدد والعدة ولو فعلوا ذلك لأدخل فى روعهم أنهم الهالكون .. لأن قدرة ألف وأربعمائة على مواجهة خمسة عشر ألفاً هى (فى عرف المقاييس والتقديرات العسكرية المجردة) كقدرة العصا على مواجهة السيف .

ولكن الثقة بالله والاطمئنان إلى وعده بالنصر وزخم العقيدة الصافية الذى يدفعهم إلى الأمام .. كل ذلك كان قاعدتهم التى منها ينطلقون وعلى ضوئها الأمور يزنون .

وباختصار ، فإن النبى ﷺ وأصحابه عندما استمروا فى زحفهم على خيبر ليواجهوا خمسة عشر ألف مقاتل وهم (فقط) ألف وأربعمائة .. عندما فعلوا ذلك ، لم يقيسوا الأمور حسب موازين الأرض وإنما قاسوها حسب موازين السماء واعتماداً على صلتهم برب الأرض والسماء الذى لم يكن تحركهم من المدينة إلا فى سبيل مرضاته ولإعلاء كلمته .

ولهذا فقد كانت نفس كل واحد منهم مشحونة بطاقات روحية هائلة تجعله فى قرارة نفسه موقناً بأنه قادر على أن يواجه بمفرده مائة من أعدائه ويتغلب عليهم .

وهذا هو سر صمودهم وثباتهم وعدم اكتراثهم بتلك القوات الضاربة من الأعراب واليهود التى أجمعت على حربهم وهم بعيدون عن أرضهم .

الانتصار بالرعب :

وعلى كل حال ، وبالرغم من أن كل شىء (حسب المقاييس المادية المجردة) هو ضد المسلمين وإلى جانب اليهود وحلفائهم فى هذه الحرب التى قرر النبى ﷺ خوضها لإنهاء الوجود اليهودى الزنيم ، فقد مضى المسلمون لسبيلهم وساروا نحو خيبر على تعبئتهم وحسب الخطة التى رسموها لخوض المعركة ، غير مبالين بتلك القوات الضاربة من اليهود والأعراب .

بشائر النصر قبل الاشتباك :

وقبل أن يحدث أى اشتباك مسلَّح بين المسلمين وأعدائهم بدت بشائر

النصر للمسلمين تلمع فى الأفق ، وبدأت الصفوة من أصحاب محمد ﷺ ترى وعد الله لها بالنصر يظهر جلياً فى صور شتى وهو يكاد يتجسد ، فقويت نفوسهم (وهى القوية أصلًا) وازدادوا عزماً على عزم ، وصار لديهم اليقين الذى لا يخالطه أى شك أن قوات أعدائهم المحيطة بهم من كل جانب والتى لا تقل عن خمسة عشر ألف مقاتل لا تلبث أن يهزمها الله وينزل الرعب فى قلوبها فتنداح أمامهم ساعة الروع كما ينداح الورق اليابس أمام العاصفة فى فصل الخريف .

غطفان ترجع هاربة إلى بلادها قبل نشوب القتال :

لقد جاء فى الحديث النبوى الصحيح أن النبى ﷺ قال : «نُصِرتُ بالرعب» .

وهذا هو الذى حدث بالفعل للقوات الرئيسية من قبائل غطفان وهى القوات التى بلغت أربعة آلاف مقاتل ، وخرجت من ديارهم تسير خلف المسلمين وهم سائرون إلى خيبر وتتعقبهم قاطعة عليهم خط الرجعة ومقررة الهجوم عليهم من الخلف لإرباكهم وجعلهم بينها وبين حلفائها من يهود خيبر الهدف الرئيسى لتحركات الجيش النبوى .

فقد ذكر المؤرخون أن هذه القوات النجدية الوثنية الضاربة بينما كانت تتحرك فى إثر النبى ﷺ وأصحابه لتضربهم من الخلف لحساب يهود خيبر حلفائها إذا بقادة هذه القوات يسمعون صريخ من خلفهم يصيح فيهم منذراً إياهم بأن كتائب من المسلمين قد خلفوهم وأغاروا على ديارهم ومضاربهم وأنهم على وشك استياق أموالهم وسبى نسائهم وذراريهم .

قال ابن إسحاق : بلغنى أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر جمعوا له ، ثم خرجوا ، ليظاهروا [1] يهود عليه ، حتى إذا ساروا منقلة (أى مرحلة) سمعوا خلفهم فى أموالهم ، ظنوا أن القوم (أى المسلمين) قد خالفوا إليهم ، فرجعوا على أعقابهم ، فأقاموا فى أهليهم وأموالهم ، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر [2] . كما سمع الذين مع

---

(١) ظاهر عليه ، أعان عليه .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٠ .

اليهود فى حصونهم صوت نفس الصائح فانسحبوا وتركوا اليهود وحدهم .

وأعطى الإمام الواقدى تفصيلات أوسع عن هذه القصة فقال : (بعد أن ذكر كيف رفض عيينة بن حصن قائد غطفان العرض الذى بموجبه تعهد النبى ﷺ إعطاءهم تمر خيبر لسنة إن هم خلّوا بينه وبين اليهود) : إن غطفان سمعوا صائحاً يصيح لا يدرون من السماء أو من الأرض : يا معشر غطفان أهلكم أهلكم ، الغوث ، الغوث بحيفاء - صيحَ ثلاث مرات - لا تربة ولا مال ، قال : فخرجت غطفان على الصعب والذلول ، وكان أمراً صنعه الله عز وجل لنبيه . فلما أصبحوا أُخبر كنانة بن أبى الحقيق (سيد خيبر) وهو فى الكتيبة [١] بانصرافهم فسُقِطَ فى يديه ، وذل ، وأيقن بالهلكة وقال : كنا من هؤلاء الأعراب فى باطل ، إنَّا سرنا فيهم فوعدونا النصر وغرونا ، ولعمرى لولا ماوعدونا من نصرهم ما نابذنا محمداً بالحرب ، ولم نحفظ كلام سلام بن أبى الحقيق [٢] إذ قال : لا تستنصروا بهؤلاء الأعراب (يعنى غطفان) أبداً ، فإنا قد بلوناهم ، وجلبناهم لنصر بنى قريظة ثم غروهم . فلم نر عندهم وفاء لنا ، وقد سار فيهم حُيىّ بن أخطب وجعلوا يطلبون الصلح من محمد ، ثم زحف محمد إلى بنى قريظة وانكشفت غطفان راجعة إلى أهلها [٣] .

ثم يستمر الواقدى فى سرد قصة انسحاب غطفان مرعوبين فيقول : فلما انتهى الغطفانيون إلى أهلهم بحيفاء وجدوا أهلهم على حالهم فقالوا : هل راعكم شىء ؟ قالوا : لا والله ، فقالوا (أى أهلهم) : لقد ظننا أنكم قد غنمتم ، فما نرى معكم غنيمة ولا خيراً !! فقال عيينة بن حصن لأصحابه : هذا والله من مكائد محمد وأصحابه ، خدعنا والله ! فقال له الحارث بن عوف المرّى [٤] : بأى شىء ؟ قال عيينة : إنا فى حصن النطاة

---

(١) الكتيبة : منطقة فى خيبر بها حصون لهم .

(٢) سلام بن أبى الحقيق هو أبو رافع اليهودى ملك خيبر الذى قتله الفدائيون المسلمون الخمسة قبل غزوة خيبر كما تقدم .

(٣) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٥١ .

(٤) كان الحارث هذا قائد أحد الأجنحة الأربعة فى حرب الأحزاب ضد المسلمين عام ٤ من الهجرة .

بعد هدْأة (الهَدْأة أول الليل) إذ سمعنا صائحاً يصيح ، لا ندرى من السماء أو من الأرض : أهليكم أهليكم بحيفاء - صيح ثلاثة - فلا تربة ولا مال ، فقال الحارث بن عوف : ياعيينة والله لقد غَبِرت (أى بقيت) إن انتفعت . والله إن الذى سمعت لمن السماء ، والله ليظهرنّ محمد على من ناوأه حتى لو ناوأته الجبال لأدرك منها ما أراد . فأقام عيينة أياماً فى أهله ثم دعا أصحابه للخروج إلى نصر اليهود ، فجاءه الحارث بن عوف فقال : يا عيينة أطعنى وأقم فى منزلك ودع نصر اليهود ، مع أنى لا أراك ترجع إلى خيبر إلا وقد فتحها محمد ، ولا آمن عليك .

فأبى عيينة أن يقبل قوله وقال : (لا أسلم حلفائى لشىء) [1] . ثم تحرك عيينة بمن أطاعه من غطفان محاولًا إمداد يهود خيبر ومساندتهم ضد المسلمين ، إلا أنه لم يصل خيبر حتى وجد النبى ﷺ قد استولى عليها كلها كما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٥٢ .

الفصل الثالث

- دعوة اليهود إلى الإسلام .
- اليهود يرفضون الدعوة .
- الهجوم على خيبر .
- ضراوة القتال وعنفه .
- شراسة اليهود فى المقاومة .
- مصرع قادة اليهود مبارزة أمام حصونهم .
- تحقيق المقام حول قاتل الفارس اليهودى ، مرحب .
- النبى يُجرح بنبال اليهود أثناء القتال .
- سقوط خمس قلاع فى أيدى المسلمين .
- انهيار مقاومة اليهود فى القسم الأول من خيبر .
- سيطرة المسلمين على الشطر الأول والأهم من خيبر .
- انسحاب بقايا المقاتلين اليهود إلى الشطر الثانى من خيبر .
- تحقيق المقام فى تزوج النبى ﷺ من ابنة سيد اليهود (صفيّة) بعد أسرها .

وصول المسلمين إلى خيبر :

استمر النبى ﷺ فى زحفه نحو خيبر ، وبينما هو يسير بالجيش طلب من أحد أصحابه (وهو عامر بن الأكوع) أن يحدو لهم : والحداء هو إنشاد يرفع به الحادى صوته مع الترنيم فتنشط لذلك الإبل فى سيرها .

فنزل عامر بن الأكوع عند رغبة الرسول ﷺ وأخذ يحدو للجيش بهذه الأبيات :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا
فأنزلن سكينـة علينـا وثبّت الأقدام إن لاقينا

وذكر المؤرخون أن النبى ﷺ أُعجب بحداء ابن الأكوع فقال : يرحمك الله .

وكان النبى ﷺ إذا قال لإنسان يرحمك الله ، قتل شهيداً ، ولهذا قال عمر بن الخطاب للنبى ﷺ : وجبت يا رسول الله .. (أى الشهادة) هلا أمتعتنا به ؟.

وفعلًا رزق الله عامر بن الأكوع الشهادة فى معركة خيبر ، حيث بارز أحد اليهود ، وأثناء البراز أراد أن يضرب ساق اليهودى بسيفه (وكان قصيراً) فعاد عليه السيف فأصاب عين ركبته فمات متأثراً بالجرح الذى أصابه من سيفه ، فقال البعض : إن عامر بن الأكوع قد حبط عمله على اعتبار أنه قتل نفسه (بزعمهم) فاغتم أخوه سلمة بن الأكوع [1] لهذا القول ، ولما رآه رسول الله كذلك أخذ بيديه وقال له : مالك ؟

قال : فداك أبى وأمى ، زعموا أن عامراً حبط عمله ، فقال النبى ﷺ : كذب من قال ، إن له أجرين (وجمع بين أصبعيه) : إنه لجاهِدٌ مجاهدٌ ، قلَّ عربى مشى بها مثله .

أربعوا على أنفسكم :

وفى غزوة خيبر – والجيش فى طريقه إليها – رفع بعض الجيش أصواتهم

---

(١) رواه مسلم ، وذكره فى البداية والنهاية ج ٤ ص ١٨٢ .

بالدعاء والتكبير ، فأحدثوا ضجة ، فقال النبى ﷺ :-أيها الناس اربعوا على أنفسكم (أى ارفقوا بها) فإنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً .

وفى هذا الحديث الشيء العظيم من التربية والتوجيه وهو من قواعد التربية الإسلامية إذ أنه يدل على حب النبى ﷺ للهدوء والنظام وكرهه للضوضاء وارتفاع الأصوات (حتى ولو كان بذكر الله) فى ظروف الحرب التى تتطلب الهدوء والسكينة .

دعاء النبى صلى الله عليه وسلم :

وعندما وصل النبى ﷺ وأشرف على منطقة خيبر ، أمر الجيش بالوقوف ثم دعا بهذا الدعاء :

«اللهم رب السموات وما أظللن ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها» ، ثم قال لأصحابه «أقدموا باسم الله» [١] .

مفاجأة اليهود :

وقد عمّى الله على اليهود فلم يعلموا إلا والمسلمون يصبّحون خيبر ، وذلك بالرغم من أن الطابور الخامس (من المنافقين ويهود يثرب) قد أخبروا اليهود بتحرك المسلمين .

وقد كان وصول النبى ﷺ بجيشه إلى خيبر (ليلًا) ولم تكن سياسته الحربية إنشاب القتال مع العدو فى الليل إلا إذا اضطر كما حدث فى معركة الخندق .

ويظهر أن اتباع هذه السياسة راجع إلى أن قيام المسلمين بالهجوم وخوض المعارك مع الأعداء على أرض يجهلونها ولا يعرفون شيئاً عن طبيعتها فيه مخاطرة كبرى بمصيرهم ، وهذا (والله أعلم) هو الذى حمل النبى ﷺ على أن يبيت بجيشه بالقرب من خيبر ، ولا يبدأ بالهجوم إلا فى

---

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٣٢٧ .

الصباح . وكان اليهود (حتى اليوم الذى وصل فيه النبى ﷺ مشارف خيبر) يَصْحَون من نومهم قبل الفجر فيرتدون أسلحتهم لأنهم كانوا يتوقعون أن يقوم المسلمون بمهاجمتهم فى أية لحظة وكانوا فوق ذلك يستعرضون المقاتلين اليهود كل يوم استعداداً للمواجهة وتقوية لقلوبهم إلا أن الله تعالى أخذهم بالنوم ليلة وصول النبى ﷺ بجيشه ، فلم يلبسوا السلاح كعادتهم ، قبل الفجر ، بل ناموا ولم يتحركوا ، ولم يصح لهم ديك حتى طلعت الشمس ، فأصبحوا وأفئدتهم ترجف ، ولم يشعروا إلا وجيش الإسلام أمام حصونهم .

فقد فتحوا الحصون صباح ذلك اليوم وغدوا إلى أعمالهم معهم المساحى والكرازين والمكاتل متجهين نحو مزارعهم ، فلما رأوا المسلمين صاحوا (فى جزع) : محمد والخميس ، ثم ولوا هاربين إلى حصونهم . فلما رآهم النبى ﷺ قال : - مبشراً بالفتح - «الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» .

لا تمنوا لقاء العدو :

ومن الآداب والمواعظ الحربية التى وجهها النبى القائد ﷺ إلى جيشه ، هو أنه عند الهجوم قال ﷺ لأصحابه (وكأنه لحظ عليهم التلهف للقتال) : لا تمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية فإنكم لا تدرون ما تبتلون به ، فإذا لقيتموه ، فقولوا : اللهم أنت ربنا وربهم ، ونواصينا ونواصيهم بيدك ، وإنما تقتلهم أنت .

ثم علمهم بعض أساليب الحرب ساعة الالتحام ، فقال ﷺ : «ثم الزموا الأرض جلوساً ، فإذا غشوكم فانهضوا وكبروا » .

كيف بدأ القتال :

تنقسم مدينة خيبر (يوم فتحها) إلى شطرين فى كل منهما عدة حصون وقلاع حربية ، إلا أن أهم هذه القلاع والحصون ثمانية يقع منها خمسة فى الشطر الأول من خيبر ، وحيث دارت أعنف المعارك بين المسلمين

واليهود .. وهذه الحصون الخمسة هي :

١ - حصن ناعم ، وهو أول ماهاجمه المسلمون وأمامه قتل (مرحب) الذى كان يتولى وإخوته الدفاع عنه .

٢ - حصن الصعب بن معاذ ، وهو أعظم حصن فتحه المسلمون فوجدوا فيه المواد الغذائية والعتاد الحربى ما تقووا به إلى حد بعيد .

٣ - حصن (قلعة الزبير) .

٤ - حصن (أبىّ) .

٥ - حصن النزار (وبعضهم يسميه حصن البزاة) .

والحصون الثلاثة الأولى تقع فى منطقة يقال لها (النّطاة) أما الحصنان الآخران فيقعان فى منطقة تسمى (بالشق) ، فالمؤرخون يقسمون الشطر الأول من المدينة إلى قسمين (الشق والنطاة) .

وحصون الشق والنطاة كانت بمجموعها تمثل خط الدفاع الأول عن المدينة كلها ، وقد افتتح المسلمون الحصون هذه كلها عنوة بعد قتال مرير ضارٍ حيث دارت حولها أعنف المعارك .

أما الشطر الثانى من خيبر فتوجد به حصون وقلاع حربية إلا أن أهمها ثلاثة حصون فقط ، وهى :

١ - حصن القموص الخاص (ببنى أبى الحقيق من يهود بنى النضير) .

٢ - حصن الوطَيح .

٣ - حصن السلالم .

وهذه الحصون الثلاثة مع مناعتها وقوتها وكثرة المحاربين فيها قد سلمت دون أن يحدث حولها اشتباك كما حدث حول حصون النطاة والشق ، وإنما سلم أهلها بعد أن ضرسهم الحصار الشديد الذى ضربه المسلمون عليهم ، فطلبوا المفاوضة وسلموا على أساس الصلح والجلاء كما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

عدم التناسق فى وصف المؤرخين للمعركة :

بالرغم من أن معركة خيبر هى من أكبر وأطول المعارك الحاسمة التى خاضها النبى ﷺ فإن رصيدها من التفاصيل فى وصف العمليات الحربية فى أمهات التاريخ غير متكامل كما يجب .

فلا شك أن كل حصن من الحصون التى فتحها المسلمون بقوة السلاح (وهى ثمانية حصون) كان لفتحه قصة يتوق القارئ إلى معرفتها بالتفصيل .

ولكن المؤسف هو أن أغلبية المؤرخين رحمهم الله يكتفون أحياناً بالإشارة العابرة فقط إلى فتح الحصن دونما ذكر للتفاصيل ، كما أن الوصف فى سير المعركة فى كل أمهات التاريخ وصف مبعثر ، وأحياناً يستفيضون حيث ينبغى الإيجاز ، ويوجزون حيث ينبغى التوسع والاستفاضة ، ويقدمون ما ينبغى تأخيره ويؤخرون ما ينبغى تقديمه .

وهذا كله يجعل مهمة المؤرخ الحديث (الذى يرغب فى أن يقدم للقراء وصفاً سهلًا متناسقاً) مهمة صعبة ، وهذا الذى حدث لنا بالفعل ، فإننا لم نلاق فيما ألَّفنا عن المعارك الفاصلة من الصعوبة فى ربط الحوادث بعضها ببعض وتنسيقها وترتيبها مثلما لاقينا فى تأليفنا لهذا الكتاب ، وقد بذلنا الجهد قدر المستطاع ونرجو أن نكون قد أرضينا القارئ الكريم .

دعوة اليهود إلى الإسلام .. وعدم ذكر الجزية :

كان أول شيء أقدم عليه النبى القائد ﷺ أن دعا اليهود إلى الإسلام ليدخلوا فيه فينصرف عنهم بعد أن يكونوا جزءاً من الأسرة الإسلامية .

وتلك طريقة الإسلام المتبعة عند أول لقاء يحدث فى ميدان الحرب بين المسلمين وأهل الكتاب .

ويحدِّثنا البخارى أن على بن أبى طالب كان أول قائد عرض على هؤلاء اليهود الإسلام قبل القتال ، وذلك بأمر من رسول الله ﷺ .

فقد استدعى النبى ﷺ على بن أبى طالب (ليلة الدخول) فأعطاه الراية

فقال علي : يا رسول الله .. أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال ﷺ أنفذ على رِسْلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأَنْ يهدى الله بك رجلًا واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم [١] .

وقد أبى اليهود الدخول فى الإسلام ، فهاجم المسلمون حصونهم حتى تم النصر للمسلمين عليهم .

لماذا لم يطالبوا بالجزية :

وهنا سؤال قد يعرض للقارئ وهو أن طريقة المسلمين مع أهل الكتاب (واليهود منهم) هى أنهم عندما يقومون بغزوهم لا يباشرون القتال ضدهم حتى يخيِّروهم بين واحد من ثلاث : إما الدخول فى الإسلام فيكونون بذلك جزءاً من الأسرة الإسلامية ، وإما أن يدفعوا الجزية مقابل حمايتهم ، وإلا فالقتال .

لكن النبى ﷺ عندما قام بغزو اليهود فى خيبر لم يعرض عليهم دفع الجزية بل عرض عليهم الإسلام ، ولما رفضوا الدخول فيه قاتلهم .. فلماذا لم يعرض عليهم أن يدفعوا الجزية مقابل حمايتهم وإقرارهم على أرضهم وأموالهم والتكفُّل بصيانة أرواحهم وأعراضهم من قبل قوات الأمن الإسلامية كما يفعل دائماً مع غيرهم من أهل الكتاب ؟ وكما فعل مع يهود تيماء ونصارى نجران ومجوس هجر ؟

يجيب بعض المؤرخين على هذا السؤال بقولهم : إن القرآن لم يكن قد نزل بتشريع قبول الجزية من أهل الكتاب وقت قيام النبى ﷺ بمحاربة اليهود فى خيبر .

وهذا الجواب مع كونه قد يكون صحيحاً من حيث كون تشريع الجزية لم ينزل إلا بعد فتح خيبر ، إلا أننا نعتقد (وهذا مجرد اجتهاد) أنه حتى لو كان التشريع بقبول الجزية نزل قبل غزو خيبر ، فإن النبى ﷺ لا يمكن أن يعتبر يهود خيبر من الذين يمكن الاطمئنان إلى التعاهد معهم على دفع الجزية

---

(١) صحيح البخارى ج ٥ ص ٢٢٠ طبعة إدارة الطباعة المنيرية .

ليبقى لهم بعد مطلق الحرية مع التزام المسلمين بحمايتهم ، بل لا بد من هدم سلطانهم ومحو كيانهم عن طريق الحرب أو يستسلموا دونما قيد أو شرط كخونة ومتآمرين سيظلون مصدر تهديد لأمن وسلامة المسلمين إذا لم تحتل مواقعهم ويقضى عليهم فيها كقواعد للعدوان على الإسلام والمسلمين .

وقد أثبتت التجارب (عبر سبع سنوات ذهب فيها النبى ﷺ إلى أقصى حدود التسامح مع هؤلاء اليهود) .. أثبتت بأن هؤلاء اليهود أشبه بغدة السرطان فى الجسم لا يجدى معها علاج سوى استئصالها كلياً .

فقد حصل اليهود (فى ظل التسامح الإسلامى) على ما هو أكرم لهم من قبول النبى ﷺ الجزية منهم ، وهو قبول النبى ﷺ - عن طيب خاطر وصفاء نية - أن يكون هؤلاء اليهود حلفاء للمسلمين ومواطنين لهم ، آمنين على أرواحهم وأعراضهم أحراراً فى دينهم ، دون أن يأخذ المسلمون منهم درهماً واحداً مقابل ذلك . مع كون السلطان المطلق لهم فى يثرب ، فقد كانوا (بموجب معاهدة يثرب) أمة مع المسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، الأمر الذى يمكن تسميته بأنهم كانوا (بموجب هذه المعاهدة) أمة ذات كيان مستقل تتساوى مع أمة الإسلام فى جميع الحقوق دونما تمييز [١] .

ولكن بماذا قابل اليهود هذا التسامح وحسن المعاملة وكرم المواطنة الذى جعلهم (بالرغم من كونهم أقلية يهودية أجنبية بين أكثرية عربية إسلامية) لا يشعرون بأى تغيير فى حياتهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية التى كانوا عليها قبل سيطرة الإسلام على يثرب ؟

قابل اليهود كل هذا التسامح والكرم وشرف المقصد وحسن المعاملة بالغدر والخيانة والتآمر والعدوان ونقض العهود والمواثيق فى أدق الساعات وأحرج الظروف .. خُلُقٌ إسرائيلى قبيح لازمهم ولا يزال يلازمهم منذ أن لعنهم الله على لسان داود وعيسى بن مريم .

---

(١) انظر كتابنا (غزوة الأحزاب) وكتابنا (غزوة بنى قريظة) .. الفصل الثانى الخاص بتاريخ اليهود .

فقد عانى النبى ﷺ وأصحابه (فى يثرب) من هذا الخلق اليهودى أشد المتاعب وواجه أخطر المشاكل وتعرض لشتى المؤامرات ، ومع ذلك ظل التسامح مع هؤلاء اليهود والصفح عنهم شعار النبى ﷺ حيث كان يقابل غدرهم وتآمرهم بالكف عن دمائهم التى كان قادراً على سفكها .

وآخر إجراءات العفو والتسامح التى اتبعها النبى ﷺ مع هؤلاء اليهود ، هى معاملته ليهود بنى النضير فى المدينة حيث حقن دماءهم وأعفى نساءهم وذراريهم من السبى وسمح لهم بأن يهاجروا إلى أى مكان شاؤوا آمنين على أرواحهم وماقدروا على حمله من أموالهم .

غير أن هؤلاء اليهود لم يكد يستقر بهم المقام فى (خيبر) حتى جعلوا منها أخطر قاعدة للعدوان على الإسلام والمسلمين فلاقى المسلمون نتيجة وجود هذه القاعدة أشد المتاعب وأخطر الأهوال التى كادت تعصف بوجودهم وتمحو كيانهم على النحو الذى فصلناه فى كتابينا (غزوة الأحزاب وبنى قريظة) .

فأثبت هؤلاء اليهود بذلك (وبما لا يدع مجالًا للشك) أنهم – ما بقوا على قيد الحياة – لن يرضوا بغير هدم كيان الإسلام واستئصال شأفة المسلمين ، مهما بلغ المسلمون معهم فى الصفح وحسن المعاملة ، ومهما أعطى اليهود من عهود وأبرموا من مواثيق .

لذلك كان من البدهى (بل من الضرورى) أن لا يسلك النبى القائد ﷺ غير سبيل القضاء على هؤلاء اليهود وسحق كيانهم إتقاءً لشرهم وقطعاً لتيار خطر عدوانهم الذى ما كان ليتوقف لولا أن النبى ﷺ نقل المعركة إلى ديارهم واحتل قواعد عدوانهم ، فضمن بذلك أمن وسلامة المسلمين من شر عدوان وغدر هؤلاء اليهود .

من هنا (والله أعلم) جاء السبب فى أن النبى ﷺ وخلفاءه من بعده (وبعد التشريع بقبول الجزية من أهل الكتاب) لم يعاملوا يهود خيبر كما يعاملون بقية أهل الكتاب من مختلف الطوائف من الاكتفاء بإعطائهم الجزية ، لأن هؤلاء اليهود أصبح لهم حكم الخونة الناكثين الذين تكرر منهم الغدر والخيانة والتمرد والتآمر وأثبتت التجارب المتكررة أنهم لا يمكن أن يفوا

بعهد أو يلتزموا بميثاق .. وقبول المسلمين الجزية من يهود خيبر هو ميثاق من المواثيق .. وعقد مثل هذا الميثاق – مع هؤلاء اليهود – قد أثبتت التجارب عبر السنوات السبع أن لا فائدة منه مطلقاً ، بل قد يكون فرصة جديدة يغتنمها هؤلاء اليهود ليسددوا ضربة غدر جديدة للإطاحة بالمسلمين كما فعل بنو النضير حين حزبوا الأحزاب ، وبنو قريظة حين نقضوا العهد وغدروا بالمسلمين فى أدق ساعات مصيرهم .

لهذا (والله أعلم) لم يقبل النبى من يهود خيبر إلا أحد أمرين إما الدخول فى الإسلام فالاندماج فى الأسرة الإسلامية ، وإما الصدام المسلح حتى يقضى الله أمراً كان مفعولًا .. ويدلنا على صحة ما ذهبنا إليه فى هذا التحليل والاستنتاج أن النبى ﷺ حين أصر على محاربة يهود خيبر دون أن يعرض عليهم أن يدفعوا الجزية ليبقى لهم كيانهم وأموالهم ، قد قبل (فى نفس الوقت) الجزية من يهود تيماء وترك لهم كل أموالهم ولم يعاملهم كمحاربين فتركوا أحراراً فلم يأخذ منهم أسيراً ولم يسبِ منهم امرأة أو طفلًا وكذلك فعل مع يهود (فدك) حين صالحهم وقبل منهم نصف أراضيهم وتركوا أحراراً فى بلادهم بالرغم من أن (فدك) تعتبر من ضواحى خيبر .

ولا شك أن النبى ﷺ لم يسلك هذا المسلك فى التمييز فى المعاملة بين يهود تيماء وفدك وبين يهود خيبر ، إلا لأن الأولين لم يشكلوا الخطر الذى يشكله يهود خيبر على أمن وسلامة الكيان الإسلامى بعدوانهم المتواصل ومؤامراتهم التى لم تنقطع إلا حينما سحق المسلمون كيانهم الزنيم الدخيل بالاستيلاء على خيبر .. ولأن يهود تيماء والشمال وفدك ، لم يكن لهم أية يد فى أعمال التحريض والتحزيب والعدوان الآثم المخيف الذى رسمت مخططاته فى خيبر وقامت به الأحزاب بقيادة سادات خيبر أنفسهم عام الخندق (السنة الرابعة من الهجرة) .

بدء المعركة :

رفض يهود خيبر الدعوة إلى السلام والتى حملها إليهم على بن أبى طالب متمثلة فى دعوتهم إلى الدخول فى الإسلام لتحقن دماؤهم وليكونوا مع

العرب المسلمين على قدم المساواة فى جميع الحقوق ولينجوا من ظلام الكفر إلى نور التوحيد .

لقد كان جواب يهود خيبر (وكانوا معتزين بكثرة عددهم وكمال عتادهم وعدتهم) كان جوابهم على دعوة السلام الرفض البات ، بل كان الجواب من اليهود هو البدء بالحرب حيث شنوا فى اليوم الأول من وصول النبى ﷺ إلى خيبر هجوماً عنيفاً على المسلمين كان من نتيجته استشهاد عدد منهم وإصابة خمسين بجراح نقلوا على أثرها إلى مركز الإسعاف فى معسكر المسلمين [1] .

تنظيم القيادات وتوزيع الرايات :

أخذ ﷺ فى تعبئة جيشه وتوزيع القيادات ، بعد أن أصرَّ اليهود على رفض دعوة السلام وقرروا سلوك سبيل الحرب .

العلم النبوى :

كان العلم النبوى (علم القيادة العليا) يوم خيبر ، علماً أبيضاً يقال له : العقاب ، وكان مكتوباً فيه بالسواد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، وهذا اللواء هو الذى دفعه النبى ﷺ إلى على بن أبى طالب فى اليوم الأول حينما أمره بدعوة اليهود إلى السلام والدخول فى الإسلام [2] .

أربع رايات للمهاجرين والأنصار :

وقبل الهجوم وزَّع النبى ﷺ أربع رايات على أربع قيادات ، رايتين للمهاجرين وأعطاهما لأبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، ورايتان للأنصار وأعطاهما لسعد بن عبادة والحباب بن المنذر وذكر ابن سعد وابن إسحاق أن الرايات لم تكن إلا يوم خيبر ، وإنما كانت (قبل ذلك

---

(١) انظر إمتاع الأسماع ص ٣١٢ .
(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٠ .

اليوم) الألوية ، وهذا يعنى أن هناك فرقاً فى عرف ذلك العصر بين الراية واللواء (١) .

الحراسة :

كذلك أنشأ ﷺ قوة للحراسة تقوم بالدوريات أثناء الليل لترقب حركات العدو والطواف حول قلاعه وحصونه ، وكان من بين الذين يتولون حراسة المعسكر الإسلامى ويقومون بالدورية ليلًا عمر بن الخطاب (٢) . أما قيادة المعسكر وإدارة شؤونه فى الرجيع فقد اسندت إلى عثمان بن عفّان (٣) .

اجتياح مزارع اليهود .. وحرق بعض النخيل :

يستفاد من أحاديث المؤرخين أن أول عمل حربى قام به النبى ﷺ – بعد إنذار اليهود – هو الشروع فى الاستيلاء على مزارعهم ونخيلهم ، كما قام المسلمون بقطع النخيل إرهاباً للعدو وكان جملة ما قام المسلمون بقطعه من النخيل أربعمائة نخلة ، ثم نهى النبى ﷺ عن القطع فتوقف المسلمون ، وكانت المزارع التى استولى عليها المسلمون والنخيل التى قطعوها تقع فى الشق الأول فى منطقة (النطاة) والشق الأول من مدينة خيبر والتى شهدت أعنف المعارك (٤) .

مهمة صعبة للغاية :

والمتتبع لمراحل القتال فى خيبر يتضح له أن المسلمين كانوا قد واجهوا متاعب عظيمة ومشقات كبيرة وهم يحاولون إنهاء الوجود اليهودى فى خيبر .

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٠٦ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٠ وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٤ .

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥٩ .

(٣) إمتاع الأسماع ص ٣١٢ .

(٤) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥٨ .

فبالإضافة إلى مناعة القلاع والحصون المشحونة بالمقاتلين اليهود الذين يفوقون المسلمين أضعافاً مضاعفة ، كانت هناك رداءة الجو ، فقد أُصيب كثير من المسلمين بالحُمّى وهم لمّا يبدأوا الهجوم على اليهود لأن خيبر منذ القدم مستوطَنٌ للحُمّى بسبب وجود كثرة المستنقعات فيها ، وقد أثّرت هذه الحُمَّى على قوى المسلمين الجسدية ، ولكن ذلك لم يثنهم عن عزمهم فواصلوا القتال بصبر وجَلدَ حتى تمَّ لهم النصر .

كيف بدأ الهجوم :

هناك اختلاف بين المؤرخين فى أى من حصون خيبر كان عرضة للهجوم الأول من قبَل المسلمين ، إلا أنه بعد الاستقراء والمقارنة ترجح لدينا أن جمهرة المؤرخين يقولون : إن حصون النطاة والشق (وهى التى تقع فى الشطر الأول من مدينة خيبر) كانت أول ما هاجمه المسلمون فى خيبر وهى خمسة حصون .

وكان حصن (ناعم) أول حصن من حصون النطاة هاجمه المسلمون .

لقد كانت مهمة اقتحام حصون وقلاع خيبر مهمة صعبة للغاية ، فهى حصون منيعة ، وفتحها يتطلب آلات تدميرية مثل المنجنيق وباصقات لهب النفط التى كان استعمالها شائعاً لدى كثير من الأمم ومنهم يهود خيبر أنفسهم ، ولكن المسلمين عندما جاؤوا إلى خيبر لم يكن لديهم أى شيء من هذه الآلات التدميرية .

ولهذا فقد لاقوا صعوبة كبيرة للمقاومة العنيدة التى أبداها اليهود المتحصنون وراء أسوار هذه الحصون .

معسكر المسلمين الأول :

كان النبى ﷺ - كما ذكرنا فيما مضى من هذا الكتاب - قد قرر أن يهاجم خيبر من الناحية الشمالية فى أعلى (النطاة) ليحول بين اليهود وبين الشام ، ويمنع غطفان من أن تمدهم بالمقاتلين .

وفعلًا جعل النبى ﷺ أول مقر لقيادته فى أعلى النطاة فى منطقة

مكشوفة [1] بالقرب من حصن (ناعم) [2] الذى كان أول حصن هاجمه المسلمون فى خيبر ، وهو حصن مرحب فارس اليهود المشهور الذى قتله على بن أبى طالب .

فقد ألح النبى ﷺ على حصن ناعم (فى اليوم الأول من القتال) ، واشترك هو نفسه ﷺ فى القتال أثناء الهجوم على هذا الحصن .

وكان ﷺ يمتطى صهوة جواد اسمه الظرب (بفتح أوله وكسر ثانيه) ، ويلبس درعين ومغفراً وعليه بيضة ، وفى يده قناة وتُرْس [3] .

وأمام حصن ناعم دار القتال عنيفاً بين المسلمين واليهود ، فقد شدد المسلمون الهجوم على هذا الحصن وظلوا يهاجمونه طوال اليوم .

ولكنهم لاقوا من اليهود (بقيادة مرحب وأخويه ياسر والحارث) مقاومة عنيفة ، إلى درجة أن كل هجمات المسلمين على الحصن باءت بالفشل فى ذلك اليوم وهو اليوم الأول من القتال . بل إن اليهود بلغوا فى الاستماتة للدفاع عن حصن ناعم إلى أن يفتحوا أبواب الحصن ويقوموا بهجوم معاكس كاسح ، فسالت كتائبهم على المسلمين من الحصن بقيادة الحارث (أبى زينب أخى مرحب) ، وقد تلقته كتائب الأنصار .. وبعد قتال ضار خارج الحصن تمكن الأنصار من دحر القائد اليهودى الحارث وطاردوهم حتى أدخلوهم الحصن فأغلقوا على أنفسهم الأبواب .

غير أن اليهود عاودوا الهجوم من جديد ففتحوا أبواب الحصن وشنّوا (بقيادة أُسَير أحد أفراد عائلة مرحب) هجمات عنيفة ، فصمد لهم المسلمون ، ولكن اليهود ضغطوا عليهم بعنف حتى كشفوهم وأخذوا فى مطاردتهم حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ فاشتد ذلك عليه [4]

---

(١) انظر مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٤٣ .

(٢) ناعم اسم رجل من اليهود له حصون ذوات عدد وهذا الحصن منها . كذا قال الواقدى فى مغازيه ج ٢ ص ٦٤٥ .

(٣) إمتاع الأسماع ص ٣١٣ .

(٤) إمتاع الأسماع ص ٣١٤ .

خمسون جريحاً وشهيد واحد :

وقد تكبد المسلمون فى اليوم الأول من القتال (أمام حصن مرحب .. ناعم) خسائر لايستهان بها ، إذ أصيب منهم خمسون رجلًا بجراح نتيجة تعرضّهم لنبال اليهود التي كانوا يصبونها عليهم من أبراج الحصن (١) ، وقد نقل هؤلاء الجرحى جميعاً فى اليوم التالى إلى وادى الرجيع للمعالجة فى مركز الإسعاف هناك بعد أن حول النبى ﷺ مقر قيادته إلى هذا الوادى بمشورة الحباب بن المنذر (٢) كما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

محمود بن مسلمة أول شهيد فى خيبر :

كما أنه فى اليوم الأول هذا قتل محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة الأنصارى ، فكان أول شهيد يخرّ صريعاً فى معركة خيبر .

ولم يقتل محمود بن مسلمة فى المعركة ، وإنما قتل غيلة وهو يتفيَّأ ظلال أحد الأبنية التابعة لحصن ناعم التى ما كان يظن أن بها أحداً من المقاتلين اليهود .

فقد انحاز محمود (بعد أن قاتل قتال الأبطال وكان ذلك اليوم صائفاً شديد الحر) انحاز إلى ذلك الظل ليستريح قليلاً فألقي عليه مرحب اليهودى حجر رحى ، فأصابت رأسه فتحطمت عليه البيضة حتى سقطت جلدة جبينه على وجهه ، فجيء به إلى رسول الله ﷺ فرد الجلدة كما كانت ثم عصب رأسه (٣) ، وبعدها نُقل إلى مركز الإسعاف فظل تحت العلاج فى وادى الرجيع ثلاثة أيام حتى فارق الحياة.

تغيير مقر قيادة النبى :

وفى هذا اليوم (اليوم الأول من القتال) الذى لاقى فيه المسلمون

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٤٦ .

(٢) الحباب بن المنذر هو الخبير العسكرى المشهور الذى (تبعاً لمشورته) غير النبى ﷺ فى بدر مقر قيادته وعسكر بدلًا منه فى المكان الذى دارت فيه المعركة ، انظر ترجمة الحباب فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٣) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٤٥ .

مصاعب شديدة ومنوا بخسائر لا يستهان بها ، لاحظ أحد القادة الكبار من أصحاب النبى ﷺ من الأنصار (وهو الحباب بن المنذر) ،لاحظ أن المكان الذى اتخذه النبى ﷺ مقرّاً لقيادته غير صالح من الناحية (الاستراتيجية)فأشار على النبى ﷺ لذلك بأن يتحول منه ويختار مكاناً غيره صالحاً لأن يكون مقراً لقيادته .

فقد تفقد الحباب المكان فوجد أن حصون النطاة المراد مهاجمتها تقع على مرتفعات عالية ، ووجد أن معسكر المسلمين مكشوف تماماً أمام تلك الحصون (ومنها حصن ناعم) ولحظ أن نبال اليهود المصوّبة من الحصون تخالط المسلمين داخل معسكرهم ، الأمر الذى جعل خمسين من المسلمين يصابون بجراح مختلفة . كما لاحظ أن معسكر الجيش يقع فى منطقة موبوءة حيث النخيل ونزّ الماء [1] ، فقد ذكر المؤرخون أن الحباب بن المنذر جاء الى النبى ﷺ فى اليوم الأول من القتال (وهو يهاجم حصن ناعم)فقال : يارسول الله إنك نزلت منزلك هذا ، فإن كان عن أمر أُمرت به فلا نتكلمّ فيه ، وإن كان الرأى تكلمّنا .

فقال النبى ﷺ : بل هو الرأى . فقال الحباب : يارسول الله دنوت من الحصن ونزلت بين ظهرى النخل والنزّ مع أن أهل النطاة لى بهم معرفة ، ليس قوم أبعد مدى سهم منهم ولا أعدل رمية منهم (أى أنهم مهرة فى تصويب الرمى) وهم مرتفعون علينا ، وهو أسرع لانحطاط نبلهم ، مع أنى لاآمن من بياتهم (أى هجومهم فى الليل) ، يدخلون فى خَمَر [2] النخل ، تحوَّل يارسول الله إلى موضع برئ من النّز ومن الوباء ، نجعل الحرّة بيننا وبينهم ، حتى لا ينالنا نبلهم .

فاستصوب النبى ﷺ رأى الحباب بن المنذر قائلًا : لقد أشرت بالرأى ، إذا أمسينا تحوّلنا [3] .

---

(١) النز : ما يتحلب من الأرض من الماء ، قاله فى الصحاح .

(٢) الخمر بفتح أوله وثانيه : كل ما سترك من شجر أو غيره (النهاية فى غريب الحديث ج ١ ص ٣٢٠) .

(٣) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥٨ ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٤٣ .

استمرار القتال حتى المساء :

إلا أن النبى ﷺ رأى أن يستمر فى مقاتلة أهل حصن ناعم حتى يخيّم الليل ، ليتمكن من تغيير مقر قيادته فى الليل ، فقال للحباب بن المنذر : نقاتهلم اليوم .

وعملًا بمشورة الحباب بن المنذر ، استدعى النبى ﷺ الصحابى المشهور محمد بن مسلمة الأنصارى قائد حرس النبى ﷺ وطلب منه أن يبحث عن موقع أصلح من الموقع الذى عسكر فيه ذلك اليوم ليتحوّل إليه قائلًا : انظر لنا منزلًا بعيداً من حصونهم بريئاً من الوباء نأمن فيه بياتهم .

فامتثل محمد بن مسلمة لأمر النبى القائد ﷺ ، فانطلق يرتاد المواقع مفتشاً عن مكان يطابق الوصف الذى وصفه النبى ﷺ ليكون معسكراً جديداً للجيش ، وبعد بحث دقيق وجد ابن مسلمة المكان المناسب الصالح لأن يعسكر فيه الجيش كما يريد النبى ﷺ وهو وادى الرجيع (١) .

فرجع إلى النبى ﷺ وهو إمام حصن ناعم يقاتل ، فقال : يارسول الله ،وجدت لك منزلًا ، وذكر له وادى الرجيع ، فقال النبى ﷺ على بركة الله .. إلا أن النبى ﷺ ظل يقاتل يومه ذلك إلى الليل ، يقاتل أهل النطاة (التى فيها يقع حصن ناعم) يقاتل من أسفلها ، وحشدت اليهود يومئذ ، فقال الحباب : لو تحولت يارسول الله ، فقال ﷺ : إذا أمسينا إن شاء الله تحوّلنا .

واشتدّ رمى اليهود حتى جعلت نبالهم تخالط عسكر المسلمين وتجاوزه ، وجعل المسلمون يلقطون نبلهم ثم يردونها عليهم .

تحوّل المسلمين إلى وادى الرجيع :

وفى مساء ذلك اليوم (اليوم الأول للقتال) تحوّل النبى ﷺ بجيشه إلى وادى الرجيع الذى اختاره له محمد بن مسلمة الأنصارى (٢) .

---

(١) الرجيع واد بالقرب من خيبر ، وهو غير الرجيع الذى غدر فيه الهزليون المشركون بالسبعة من أصحاب النبى ﷺ فذاك ماء يقع بين مكة والطائف ، بينه وبين المدينة عشرين ليلة .
(٢) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة أحد) .

وقد اتخذ النبى ﷺ من وادى الرجيع مقراً لقيادته ، كما جعله قاعدة لإدارة العمليات الحربية ضد اليهود فى حصون النطاة (وخاصة حصن ناعم) يغدو بالمسلمين من معسكره فى هذا الوادى للقتال على راياتهم ، فإذا أقبل المساء عاد بقواته إلى المعسكر فى الرجيع .

وقد أنشأ النبى ﷺ مركزاً للإسعاف داخل معسكره فى هذا الوادى لمعالجة المسلمين فى المعارك ، حيث ينقل هؤلاء الجرحى من الميدان ساعة إصابتهم . وفى وادى الرجيع تمت معالجة الخمسين الذين أُصيبوا بجروح فى اليوم الأول من القتال أمام حصن ناعم .

عثمان بن عفان قائد المعسكر :

وقد أسند النبى ﷺ قيادة معسكر الجيش فى الرجيع إلى عثمان بن عفان ، ويقع وادى الرجيع فى أعلى النطاة التى دارت فيها أعنف المعارك بين المسلمين واليهود ، وهذا يعنى أن النبى ﷺ قاتل اليهود (أول يوم) من أسفل النطاة ، ثم قاتلهم (بعد أن تحوّل إلى الرجيع) من أعلاها حتى فتح الله عليه خيبر (١) .

شدة الانضباط العسكرى عند المسلمين :

وفى بداية حصار المسلمين لحصن (ناعم) حدثت حادثة ألقى بعدها النبى ﷺ على أصحابه درساً فى الانضباط العسكرى وخطورة عدم التقيد بأوامر القائد العام للجيش ، وأن الجندى لا يمكن أن يُقْدِم على أى عمل حتى يأذن قائده بذلك .

فقد ذكر المؤرخون أن النبى ﷺ (وهو يستعد للهجوم على حصن ناعم فى النَّطاة) نهى عن القتال حتى يتلقى الجند الإذن منه بذلك .

ولكنَّ رجلًا من جند الإسلام (وهو من قبيلة أشجع النجدية) رأى

---

(١) انظر إمتاع الأسماع ص ٣١٠ وطبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ٧٧ وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٢٩ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٨٣ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥٧ .

رجلًا يهودياً فحمل عليه يريد قتله ، غير أن فارس خيبر مرحباً المشهور ، اعترض الأشجعى فقتله .

فقال الناس : يارسول الله ، استشهد فلان ، فقال ﷺ : أبَعد ما نَهَيْتُ عن القتال ؟ .

فقالوا : نعم .

فأمر رسول الله ﷺ منادياً ، فنادى : لا تحلّ الجنة لعاص [1] ، مشيراً بذلك إلى مخالفة الأشجعى المسلم الذى خالف الانضباط العسكرى ، فقاتلَ اليهودَ قبل أن يأذن النبى القائد ﷺ بالقتال

وهذا يثبت أن المسلمين كانوا أسبق الأمم بالشدة والصرامة فى الشؤون العسكرية وخاصة فى ظروف الحرب ، فهذا رجل مسلم قتله يهودى ، فى ساحة القتال ، ولكن النبى ﷺ مع ذلك ، لم يرق له تصرّف الأشجعى المسلم ، فاعتبره عصياناً كما تقدم .

بساطة الإسلام ويسره :

وأثناء حصار حصن ناعم ، أسلم عبدٌ حبشى كان مملوكاً لليهود فقاتل مع المسلمين ثم قُتِلَ فدخلَ الجنة ، دون أن يسجد لله سجدة ، لأنه قتل فى اليوم الذى أسلم فيه وقبل أن يَحين موعد الصلاة .

فقد ذُكِرَ فى التاريخ أن عبداً حبشياً اسمه (أسلم) كان مملوكاً لأحد سادات خيبر الخمسة (عامر الذى قُتِلَ مع مرحب) ، هذا العبد كان يرعى الغنم لعامر اليهودى ، فلمّا رأى أهل خيبر يتحصنون ويستعدون للقتال ، سألهم ، فقالوا : نقاتل هذا الذى يزعم أنه نبى ، قال : فوقعت تلك الكلمة فى نفسه ، فأقبل بغنمه يسوقها إلى رسول الله ﷺ ، ثم طلب مقابلته فسمح له بذلك ، فلما دخل عليه قال له : يامحمد ما تقول ؟ ما تدعو إليه ؟ فقال له النبى ﷺ – بكل بساطة – : أدعو إلى الإسلام ، وأن تشهد أن لاإله إلا الله وأنى رسول الله ، وأن لا تعبد إلا الله .

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٤٩ .

فقال العبد : فما لى إن شهدت وآمنت بالله عز وجل ؟ قال ﷺ : لك الجنة إنْ مت على ذلك .

فوقع الإسلام فى قلبه ، فأسلم .

درس فى الأمانة :

ثم قال الحبشى : يارسول الله إن هذه الغنم عندى أمانة فكيف أصنع بها ؟

فقال ﷺ أخرجها من العسكر ثم صح بها وارمها بحصيات فإن الله عز وجل سيؤدّى عنك أمانتك .

فقام الحبشى فأخذ حفنة من حصباء فرمى بها فى وجهها وقال : ارجعى إلى صاحبك ، فو الله لاأصحبك ، فخرجت مجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت حصن مرحب ، فعلم اليهودى أن عبده قد أسلم ..

قالوا : فخرج على بن أبى طالب حاملًا الراية لمقاتلة يهود حصن ناعم ، وتبعه الحبشى فقاتل اليهود حتى قتل ، فاحتُمِل إلى مركز الإسعاف ، فرآه رسول الله ﷺ فقال لأصحابه : لقد أكرم الله هذا العبد وساقه إلى خير ، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين ، ولم يصلِّ لله سجدة قط [١] .

وفى رواية أخرى أن رجلًا أسود جاء إلى النبى ﷺ فقال : إنى رجل أسود اللون قبيح الوجه منتن الريح لا مال لى ، فإن قاتلت هؤلاء حتى أقتل : أأدخل الجنة ؟ قال : نعم ، فتقدم فقاتل حتى قتل ، فأتى عليه النبى ﷺ وهو مقتول ، فقال : حسَّن الله وجهك وطيَّب ريحك وكثَّر مالك ثم قال : لقد رأيت زوجتيه من الحور العين ينزعان جبّته عنه ويدخلان فيما بين جلده وجبّته [٢] .

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٣ ، ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٤٩ . وزاد المعاد ج ٢ ص ٣٢٩ .

(٢) زاد المعاد ج ٢ ص ٣٣٠ .

حصن ناعم أقوى حصون النطاة :

دلت المعارك الضارية التى خاضها المسلمون أمام حصن (ناعم) للاستيلاء عليه .. دلت على أنه أمنع وأقوى حصون خيبر وأن المدافعين عنه من اليهود هم أشجع يهود خيبر وأشدهم مراساً فى القتال .

ويكفى للتدليل على ذلك أن مرحباً فارس خيبر هو الذى كان يتولى قيادة الدفاع عن هذا الحصن المنيع ، يساعده فى ذلك فارسان لا يقلان عنه شجاعة وجرأة وهما أخواه (ياسر والحارث) وكل هؤلاء القادة الثلاثة قتلوا مبارزة بأيدى المسلمين ولم يتمكن المسلمون من فتح حصن ناعم إلا بعد أن قضوا على هؤلاء الفرسان المغامرين الثلاثة كما سيأتى تفصيله .

تشديد الحصار على حصن ناعم :

وبالرغم من ضروب الاستبسال التى أبداها آل مرحب وجنودهم فى الدفاع عن هذا الحصن ، وبالرغم من التعب الذى لقيه المسلمون بسبب المقاومة العنيفة التى أبداها اليهود ، وبالرغم من وخامة المنطقة وتعرض كثير من جيش النبى ﷺ لوباء الحمَّى [1] فقد أمر النبى ﷺ بمضاعفة الضغط وتشديد الحصار على اليهود فى هذا الحصن المنيع الذى يعتبر خط الدفاع الأول عن خيبر .

قتل مرحب وافتتاح حصنه :

استمر اليهود فى مقاومتهم الشرسة ، وألحّ النبى ﷺ فى الهجوم على الحصن بغية فتحه ، فدفع بالكتيبة من المهاجرين والأنصار تلو الكتيبة لمهاجمة حصن ناعم ، ولكن هذه الكتائب كلها عجزت عن اقتحام الحصن وفتحه لمناعته وشدة مقاومة اليهود .

---

(١) روى البيهقى فى الدلائل عن أبى قلابة ، قال : لما قدم النبى ﷺ خيبر ، قدم والثمرة خضرة ، قال فأسرع الناس إليها فحموا (أى أصابتهم الحمى) فشكوا ذلك إليه فأمرهم أن يقرسوا الماء (يقرسونه يجعلونه شديد البرودة) فى الشنان ثم يحرونه عليهم إذا أتى الفجر ويذكرون اسم الله عليه ، ففعلوا ذلك فكأنما نشطوا من عقل (البداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٥) .

قال فى (إمتاع الأسماع) يصف صعوبة القتال وضراوته أمام هذا الحصن : وقد دفع لواءه إلى رجل من المهاجرين فرجع ولم يصنع شيئاً ، فدفعه إلى رجل آخر منهم فرجع ولم يصنع شيئاً ودفع لواء الأنصار إلى رجل منهم فرجع ولم يصنع شيئاً .

فحث ﷺ على الجهاد ، وسالت كتائب يهود : إمامهم الحارث أبو زينب (أخو مرحب) يهدّ الناس هداً فساقهم صاحب راية الأنصار حتى انتهوا إلى الحصن وخرج (أُسير) أحد قادة اليهود فكشف الأنصار حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ وأمسى مهموماً .

ولم يتضعضع موقف المدافعين عن الحصن إلا بعد قتل قائده مرحب .

مقتل عامر بن الأكوع :

وذكر ابن كثير فى البداية والنهاية ج ٤ ص ١٨٧ أن مرحب اليهودى خرج أثناء محاصرة حصنه يتبختر بسيفه طالباً البراز وهو يقول :

قد علمت خيبر أنى مرحب شاكى السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تَلهَّب

فبرز إليه عامر بن سنان بن الأكوع [١] وهو يقول :

قد علمت خيبر أنى عامر شاكى السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب فى ترس [٢] عامر فذهب يُسفِلُ له فرجع سيفه على نفسه فقطع أكحله فكانت فيها نفسه ، وقد سبق تفصيل هذا عند قصة حداء عامر لرسول الله ﷺ أثناء الطريق .

من الذى قتل مرحب ؟

هناك خلاف بين المؤرخين وأصحاب الحديث حول الذى تولى قتل

(١) هو عامر بن سنان بن الأكوع الأنصارى ، عم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأنصارى العداء المشهور وصاحب البطولة فى صد عدوان فزارة فى غزوة ذات قرد .
(٢) الترس (بضم التاء) ما يتستر به المحارب بيده أثناء القتال .

فارس اليهود (مرحباً) .. فريق يرى أن الذى تولى قتله هو محمد بن مسلمة الأنصارى ، وعلى رأس هذا الفريق إمام أهل المغازى محمد بن إسحاق وموسى بن عقبة .

ويرى الواقدى أن محمد بن مسلمة بارز مرحباً ، ثم قطع رجليه وتركه جريحاً يجود بنفسه حتى مر به على بن أبى طالب فذفّف عليه واحتز رأسه .

أما الفريق الثالث فيرى أن الذى قتل مرحباً هو الإمام على بن أبى طالب .. وبالنظر فى أقوال الفرقاء يتضح للباحث المنصف أن الذى تولى قتل مرحب فكان فتح الحصن على يده هو الإمام على بن أبى طالب .

ونحن هنا سنورد باختصار رواية كل من الفرقاء الثلاثة . ولنبدأ برأى ابن إسحاق .

قال ابن إسحاق : لما خرج مرحب أمام حصنه وطلب البراز ، قال رسول الله ﷺ : من لهذا ؟ قال محمد بن مسلمة : أنا له يارسول الله ، أنا والله الموتور الثائر ، قتل أخى بالأمس ، فقال له النبى ﷺ فقم إليه ، اللهم أعنه عليه ، قال فلما دنا أحدهما من صاحبه دخلت بينهما شجرة عمرية من شجر العُشَر ، فجعل أحدهما يلوذ بها من صاحبه ، كلما لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه ما دونه منها ، حتى برز كل واحد منهما لصاحبه ، وصارت بينهما كالرجل القائم ما فيها فنن ، وهنا حمل القائد مرحب على بن مسلمة فأهوى إليه بسيفه فاتقاه بدرقته وكانت من جِلْد سميك فوقع سيف مرحب فيها فعضت به فأمسكته ، وهنا ضربه محمد بن مسلمة حتى قتله[1] .

وبمثل هذا القول قال : موسى بن عقبة عن الزهرى[2] .

أما الواقدى ، فقد ذكر أن محمد بن مسلمة لما بارز (مرحباً) قطع رجليه ، وبعد أن طرحه أرضاً قال له مرحب : أجهز علىّ ، فقال : لا ، ذق الموت كما ذاقه أخى محمود بن مسلمة ، فمرّ به على بن أبى طالب وقطع

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٤ .
(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٨٨ .

رأسه ، فاختصما فى سلبه إلى رسول الله ﷺ فأعطى رسول الله ﷺ محمد ابن مسلمة سيفه ورمحه ومِغفره وبيضته وكان مكتوباً على سيفه بالعبرية :

هذا سيف مَرحَبْ   من يَذقهُ يُعطب[1]

وكان هذا البيت من الشعر بالعِبرية ، ترجمه إلى اللغة العربية رجل من اليهود[2] .

رواية البيهقى وغيره :

أما قصة قتل الإمام على لمرحب ، فقد أوردها كثير من المؤرخين وأصحاب الحديث ، ولنقتصر هنا على رواية البيهقى ، وقبل إيرادها يجمل أن نذكر ما أورده المقريزى من أن الإمام على قتل الحارث قبل أخيه مرحب .

فقد جاء فى إمتاع الأسماع أن النبى ﷺ لما لم ينجح القادة الذين هاجموا حصن ناعم قال : لأعطينَّ الراية رجلاً يحبه الله ورسوله يفتح الله عليه ، ثم استدعى على بن أبى طالب ثم دفع إليه اللواء ودعا له بالنصر ، وكان أول من خرج إليه الحارث ــ أخو مرحب ــ فانكشف المسلمون وثبت على فاضطربا ضربات فقتل علىٌّ الحارث ، وانهزم اليهود إلى حصنهم .

أما رواية البيهقى فقد جاء فيها (كما فى البداية والنهاية ج ٤ ص ١٨٦) أن رسول الله ﷺ ربما أخذته الشقيقة [3] فلبث اليوم واليومين ، لايخرج فلما نزل خيبر أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس ، وأن أبا بكر أخذ راية رسول الله ﷺ ثم نهض فقاتل قتالًا شديداً ، ثم رجع فأخذها عمر ، فقاتل قتالًا شديداً هو أشد من القتال الأول ، ثم رجع فأخبرَ بذلك رسولُ الله ﷺ فقال : لأعطينَّها غداً رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يأخذها عَنْوة وليس ثَمَّ على ، فتطاولت لها قريش ورجا كل رجل منهم أن يكون صاحب ذلك .

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٨٩ .

(٢) زاد المعاد ج ٢ ص ٣٢٨ .

(٣) الشقيقة : نوع من الصداع يعرض فى مقدمة الرأس وإلى أحد جانبيه .

فأصبح وجاء على بن أبى طالب على بعير له حتى أناخ قريباً وهو أرمد قد عصب عينه بشقة برد قَطَرى ، فقال رسول الله ﷺ :مالك ؟ قال : رمدت بعدك ، قال : ادن منى ، فتفل فى عينيه فما وجعها حتى مضى لسبيله ، ثم أعطاه الراية فنهض بها فأتى مدينة خيبر وخرج مرحب صاحب الحصن وعليه مغفر (١) يمانى وحجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه ، وهو يرتجز ويقول :

قد علمت خيبر أنى مرحَبُ ... شاكى السلاح بطلٌ مجرَّبُ
إذا الليوث أقبلت تلهب ... وأحجمت عن صولةِ المغلَّب

فقال على :

أنا الذى سمتنى أمى حيدرة ... كالليث غابات شديد القسورة
أكيلكم بالصاع كيل السندرة

قال : فاختلفا ضربتين ، فضربه علىّ فقد الحجر والمغفر ورأسه ووقع (السيف) فى الأضراس وأخذ المدينة .

وقد عقب الحافظ البزّار على قصة بعث أبى بكر وعمر وعدم قدرتهما على الفتح فقال : إن فى سياق الحديث غرابة ونكارة وفى إسناده من هو متهم بالتشيّع (٢)

هذه هى خلاصة الأقوال فى قصة مقتل مرَحب ، غير أننا إذا تفحصنا مختلف الروايات ترجع لدينا أنَ الذى قتل قائد القوات اليهودية فى حصن ناعم (مرحبا) هو الإمام على ، يؤكد هذا الترجيح أن الإمام مسلم (وإن لم يروِ قصة عجز أبى بكر وعمر عن الفتح) إلا أنه روى أن قاتل مرحب هو الإمام على بن أبى طالب (٣) . وكذلك الإمام البخارى روى فى صحيحه ما يشدّ من أزر رواية مسلم (فبالرغم من أنه لم يرو قصة عجز أبى بكر وعمر عن

---

(١) المغفر (بكسر أوله وسكون ثانيه) غطاء من الحديد يقنع به الرأس فى الحرب .

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٨٩ .

(٣) انظر مختصر سيرة الرسول ص ٢٧٢ للشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ط دار العروبة .. وانظر صحيح مسلم ذاته طبعة محمد على صبيح ج ٥ ص ١٩٥ فى باب غزوة ذات قرد .

الفتح ولم يذكر أن علياً هو الذى قتل مرحباً ، إلا أنه ذكر أن النبى ﷺ أعطى علياً الراية ـــ بعد أن قال : لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله ـــ فتم على يده فتح الحصن[1] .

الزبير يقتل ياسر أخا مرحب :

ويدل سياق المؤرخين ـــ كما تقدم ـــ أن أعنف قتال شهدته خيبر هو القتال الذى دار حول حصن ناعم (حصن آل مرحب وهم من حِمْير على ما ذكره ابن إسحاق) وقد رأينا كيف بلغ اعتداد اليهود المرابطين فى هذا الحصن بأنفسهم إلى أنهم خرجوا أكثر من مرة وهاجموا المسلمين حتى كشفوهم وطاردوهم حتى ألجأوهم إلى مقر قيادة النبى ﷺ الأمر الذى اغتم له الرسول ﷺ واستدعى الإمام على وأسند إليه مهمة افتتاح هذا الحصن المنيع الذى أعيى المسلمين فتحه .

وبالرغم من تمكن الإمام على بن أبى طالب من القضاء على مرحب كبير القادة المدافعين عن الحصن ، فإن الحصن لم يستسلم للمسلمين فى الحال ، بل ظل اليهود محتفظين به يدافعون عنه بضراوة .. يدلنا على ذلك أن ياسر الذى خلف أخويه (مرحباً والحارث فى القيادة) ظل يدافع عن الحصن بضراوة ، بل لقد ذهبت به الشجاعة والجرأة (بعد أن لقى أخواه مصرعهما) إلى أن يتحدّى المسلمين ، حيث خرج من الحصن تحرسه قوات كثيفة من اليهود وركز رمحه أمام الحصن وأخذ يجول بفرسه وهو يطلب المبارزة قائلاً :

قد علمت خيبر أنى ياسر شاكى السلاح بطل مغامِرُ
إذا الليوث أقبلت تُبادِرُ وأحجمت من صولتى المخاطر
إنَّ حمایَ فيه موت حاضر

وكان اليهودى ياسر من أشجع قادتهم وأشدهم بأساً .. فخرج إليه الزبير ابن العوام ، فخشيت عليه أمه صفية (عمة رسول الله ﷺ) فقالت : يا رسول الله .. إنه يَقتُلُ ابنى ، فقال النبى ﷺ : بل ابنك يقتله إن شاء

(١) صحيح البخارى ج ٥ ص ٣٧٩ ط المنيرية بمصر .

الله .. وقد رد الزبير على شعر ياسر بقوله :

قد علمت خيبر أنى زبَّار
قِرْم لقِرْم غيرُ نِكْسٍ فرَّار
وابن حماة المجد وابن الأخيار
ياسر لا يغررك جمع الكُفَّار
فجمعهم مثل السراب الجرّار

فتجاولا برهة بعدها تمكن الزبير من قتل خصمه ياسر[1] ، وبقتله فقد المدافعون عن حصن ناعم قادتهم الكبار الثلاثة فأثر ذلك تأثيراً كبيراً فى معنوياتهم الأمر الذى يسرّ للمسلمين اقتحام الحصن وفتحه بقيادة على بن أبى طالب .

وبعد أن قتل الزبير قائد اليهود (ياسراً) قال النبى ﷺ للزبير : فداك عم وخال ، لكل نبى حوارىّ وحوارى الزبير ..

قال ابن كثير فى البداية والنهاية : فكان الزبير إذا قيل له : إن كان سيفك يومئذ لصارماً ، فيقول : ما كان صارماً ولكننى أكرهته .

مصرع القائد اليهودى الرابع :

وجاء فى إمتاع الأسماع ص ٣١٦ أن قائداً يهودياً رابعاً لقى مصرعه مبارزة أمام الحصن على يد على بن أبى طالب ، واسم هذا القائد (عامر) .

كما قتل أمام حصن ناعم أيضاً قائداً يهودياً خامساً (مبارزة) قتله محمد بن مسلمة الأنصارى .

استيلاء المسلمين على حصن ناعم :

وبعد مصرع هؤلاء القادة اليهود الخمسة (مرحب والحارث وعامر وياسر وأسير) انهارت المقاومة فى صفوف اليهود المدافعين عن الحصن الذى شدد المسلمون الهجوم عليه حتى اقتحموه ففتحوه ، فكان هذا الحصن أول وأهم حصن من حصون خيبر يحتله المسلمون .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٤ وإمتاع الأسماع ص ٣١٦ .. السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٣ .. زاد المعاد ج ٢ ص ٣٢٩ .

تفصيلات الواقدى لفتح حصن ناعم :

بالرغم من أن معارك حصن ناعم هى أعنف معارك خيبر على الإطلاق ، إلا أن عامة المؤرخين فى أمَّهات التاريخ لم يعطوا وصفاً مفصلاً متناسقاً مترابطاً للقتال عند هذا الحصن ، بل كان وصفهم وصفاً مبعثراً غير مترابط .

ولعل أحسن وصف فى كتب التاريخ وأقربه إلى التنسيق هو الوصف الذى جاء فى مغازى الواقدى التى نشرتها جامعة اكسفورد بتحقيق الدكتور مارسدن جونس .

ولأهمية هذا الوصف بالنسبة للقارئ فإنا سنورده هنا بالرغم من أننا قد ذكرنا نبذاً منه التقطناها بصعوبة من هنا وهناك فى أمَّهات التاريخ .

قال الواقدى (يصف معركة حصن ناعم) : فلقد انتهى رسول الله ﷺ إلى حصن ناعم ومعه المسلمون — وحصون ناعم عدَّة — فرمت اليهود يومئذ بالنبل ، وتَرس أصحاب رسول الله ﷺ عن رسول الله ، وعلى رسول الله ﷺ يومئذ ذرعان ومغفر وبيضة ، وهو على فرس يقال له : الظّرب ، فى يده قناة وتُرْس ، وأصحابه محدقون به ، وقد كان دفع لواءه إلى رجل من أصحابه من المهاجرين ، فرجع ولم يصنع شيئاً ثم دفعه إلى آخر فرجع ولم يصنع شيئاً ، ودفع رسول الله ﷺ لواء الأنصار الى رجل منهم ، فخرج ولم يعمل شيئاً ، فحث رسول الله ﷺ المسلمين ، فسالت كتائب اليهود أمامهم أبو زينب يقدم اليهود يَهُدّ الأرض هدّاً ، فأقبل صاحب راية الأنصار ، فلم يزل يسوقهم حتى انتهوا إلى الحصن فدخلوه ، وخرج أُسَير اليهودى يقدم أصحابه معه عاديته [1] ، وكشف راية أصحاب الأنصار حتى انتهى الى رسول الله ﷺ فى موقفه ، ووجد رسول الله ﷺ فى نفسه حدة شديدة ، وقد ذكر لهم الذى وعدهم الله ، فأمسى رسول الله ﷺ مهموماً .

---

(١) عاديته : الذين يمشون أمامه على أرجلهم .

سعد بن عبادة الجريح :

وقد كان سعد بن عبادة [1] رجع مجروحاً وجعل يستبطئ أصحابه ، وجعل صاحب راية المهاجرين يستبطئ أصحابه ويقول : أنتم ، وأنتم ، فقال رسول الله ﷺ : إن اليهود جاءهم الشيطان فقال لهم : إن محمداً يقاتلكم على أموالكم نادوهم ، قولوا : لا إله إلا الله ، ثم قد أحرزتم بذلك أموالكم و دماءكم ، وحسابكم على الله ، فنادوهم بذلك (والقتال على أشدّه) فنادت اليهود : لا نفعل ونترك عهد موسى والتوراة بيننا .

فقال رسول الله ﷺ لأعطينَّ الراية غداً رجلًا يحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه ، ليس بفرّار ، أبشر يا محمد بن مسلمة غداً ، إن شاء الله يُقتَل قاتلُ أخيك (وقاتل أخيه ، مرحب) وتولّى عادية اليهود .

فلمَّا أصبح أرسل إلى على بن أبى طالب وهو أرمد ، فقال : ما أبصر سهلًا ولا جبلًا ، قال فذهب إليه فقال : افتح عينيك ففتحهما ، فتفل فيهما ، قال على : فما رمدت حتى الساعة ، ثم دفع إليه اللواء ، ودعا له ومن معه من أصحابه بالنصر .

فكان أول من خرج إليهم الحارث أخو مرحب فى عاديته فانكشف المسلمون وثبت على ، فضرب ضربات فقتله على ، ورجع أصحاب الحارث إلى الحصن فدخلوه وأغلقوا عليهم ، فرجع المسلمون إلى موضعهم . وخرج مرحب وهو يقول :

قد علمت خيبر أنِّى مرحبُ شاكِى السلاح بطل مجرَّبُ
أضربِ أحياناً وحيناً أُضْرَبُ

فحمل عليه فقطرَّه [2] على الباب وفتح الباب ، وكان للحصن بابان .

ومن طريق آخر يورد الواقدى أن الذى قتل الحارث (أبا زينب أخا مرحب) هو أبو دجانة [3] وليس على بن أبى طالب ، فقد قال : وحدثنى

---

(١) انظر ترجمة سعد بن عبادة فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٢) قطره : أى ألقاه على أحد قطريه ، كذا قال فى الصحاح .

(٣) أبو دجانة فارس أنصارى مشهور واسمه سماك بن خرشة ، له مواقف بطولية رائعة فى الدفاع عن رسول الله يوم أحد ، انظر قصته فى كتابنا (غزوة أحد) .

ابن أبى سبرة عن خالد بن رباح ، عن شيوخ من بنى ساعدة قالوا : قتل أبو دجانة الحارث أبا زينب ، وكان يومئذٍ معْلَماً بعمامة حمراء ، والحارث معلم بعمامة فوق مِغفره ، وياسر وأسير وعامر (كلهم من قادة اليهود) معلمين .

وحدثنى ابن أبى سبرة ، عن عمرو بن أبى عمرو ، قال : نزلتُ بأريحا ، زمن سليمان بن عبد الملك ، فإذا حىّ من اليهود ، وإذا رجل يهدج من الكِبَر ، فقال : ممن أنتم ، قلنا من الحجاز ، فقال اليهودى : واشوقاه الى الحجاز ، أنا ابنُ الحارث اليهودى فارس خيابر ، قتله يوم خيبر رجل من أصحاب محمد يقال له : أبو دجانة ، يوم نزل محمد خيبر وكنَّا ممن أجلى عمر بن الخطاب إلى الشام ، فقلت : ألا تسلم ؟ قال : أما إنه خير لى لو فعلت ، ولكن أعيَّر ، تعيّرنى اليهود ، تقول : أبوك ابن سيِّد اليهود لم يترك اليهودية ، قتل عليها أبوك وتخالفه ؟

وقال أبو رافع : كنا مع على حين بعثه النبى ﷺ بالراية فلقى على رجلًا على باب الحصن فضرب علياً واتقاه بالتُّرس على ، فتناول على باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه ، فلم يزل فى يده حتى فتح الله عليه الحصن .

قال الواقدى : ويقال : إن مرحباً برز كالفحل الصؤول يرتجز وهو يقول :

قد علمت خيبر إنى مرحب ... شاكى السلاح بطل مجرَّب
أضرب أحياناً وحينا أُضْرَبُ

يدعو للبراز فقال محمد بن مسلمة : يارسول الله أنا والله الموتور الثائر ، قتل أخى بالأمس فائذن لى فى قتال مرحب ، وهو قاتل أخى ، فأذن له رسول الله ﷺ فى مبارزته ، ودعا له بدعوات ، وأعطاه سيفه ، فخرج محمد فصاح : يامرحب ، هل لك فى البراز ؟ فقال : نعم فخرج إليه مرحب وهو يرتجز :

قد علمت خيبر إنى مرحب .

وخرج محمد بن مسلمة وهو يقول :

قد علمت خيبر إنى ماض حدو ... إذا شئت وسمّ قاض

قال وبرز كل واحد منهما إلى صاحبه ، قال : فحالت بينهما عشرات [١] أصلها كمثل أصل الفحل من النخل وأفنان منكسرة ، فكلما ضرب أحدهما صاحبه استتر بالعشر حتى قطع كل ساق لها ، وبقى أصلها قائماً ، كأنه الرجل القائم وأفضى كل واحد منهما إلى صاحبه ، وبدر مرحب محمداً ، فيرفع السيف ليضربه ، فاتقاه محمد بالدرقة ، فلحج [٢] سيفه ، وعلى مرحب درع مشمَّرة فيضرب محمد ساق مرحب فقطعها ، ويقال لما اتقى محمدُ بالدرقة وشمَّرت الدرع عن ساق مرحب حين رفع يديه بالسيف ، فطأطأ محمد بالسيف فقطع رجليه ووقع مرحب ، فقال مرحب : اجهز عليَّ يا محمد ! قال محمد : ذق الموت كما ذاقه أخي محمود ، وجاوزه ومر به عليّ فضرب عنقه وأخذ سلبه ، فاختصما إلى رسول الله ﷺ ، فقال محمد بن مسلمة : يا رسول الله والله ما قطعت رجليه ثم تركته إلا ليذوق الموت ، كما ذاقه أخي، مكث ثلاثاً يموت ، وما منعني من الإجهاز عليه شيء ، قد كنت قادراً بعد أن قطعت رجليه أن أُجهز عليه ، فقال عليّ : صدق ، ضربت عنقه بعد أن قطع رجليه ، فأعطى رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة سيفه ودرعه ومغفره وبيضته ، فكان عند آل محمد ابن مسلمة سيفه فيه كتاب ، لا يدرى ما هو حتى قرأه يهودى من يهود تيماء فيه :

هذا سيف مرحبْ مَنْ يذُقْهُ يُعطَبْ

وحدثنى محمد بن الفضل ، عن أبيه عن جابر ، وحدثنى زكريا بن زيد ، عن أبى سفيان ، عن أبيه ، عن سلمة بن سلامة ومجمّع بن يعقوب ، عن أبيه ، عن مجمّع بن حارثة ، قالوا جميعاً : محمد بن مسلمة قتل مرحباً .

قالوا وبرز أُسَير ، وكان رجلًا أيّداً ، وكان إلى القِصَر ، فجعل يصيح من يبارز ، فبرز له محمد بن مسلمة فاختلفا ضربات ، ثم قتله محمد بن مسلمة ، ثم برز ياسر ، وكان من أشدّائهم ، وكانت معه حربة يحوش [٣]

---

(١) العشرات : جمع عشر ، وهو شجر يسيل منه ــ عند كسره رطيباً ــ سائل أبيض لزج كالصمغ .

(٢) لحج السيف إذا نشب ، فلا يخرج .

(٣) يحوشهم : أى يسوقهم (كذا فى الصحاح) .

بها المسلمين حوشاً ، فبرز له على فقال الزبير : أقسمت عليك إلّا خليت بينى وبينه ، ففعل علىّ ، وأقبل ياسر بحربته يسوق بها الناس ، فبرز له الزبير ، فقالت صفية (عمة رسول الله ﷺ) : ابنى يُقْتَل يارسول الله فقال : بل ابنك يقتله ، قال : فاقتتلا ، فقتله الزبير ، فقال له رسول الله ﷺ : فداك عم وخال ، وقال النبى ﷺ لكل نبى حوارىّ ، وحوارىَّ الزبير وابن عمتى ، فلما قتل مرحب وياسر ، قال رسول الله ﷺ : ابشروا ، قد ترحَّبت خيبر وتيسرت .

وبرز عامر وكان رجلًا طويلًا جسيماً ، فقال رسول الله ﷺ حين طلع عامر أترونه خمسة أذرع ؟ وهو يدعو إلى البراز ، يخطر بسيفه وعليه درعان مقنَّع فى الحديد يصيح : من يبارز ؟ فأحجم الناس عنه فبرز إليه على فضربه ضربات ، كل ذلك لا يصنع شيئاً ، حتى ضرب ساقيه فبرك ، ثم ذفَّف (١) عليه فأخذ سلاحه .

فلما قتل الحارث ومرحب وأسير وياسر وعامر ، مع ناس من اليهود كثير (٢) ولكن إنما سمّى هؤلاء المذكورون ، لأنهم كانوا أهل شجاعة ، وكانوا هؤلاء جميعاً فى حصن ناعم.

ولما رمى محمود بن مسلمة من حصن ناعم ، حمل إلى الرجيع (معسكر الجيش) فمكث ثلاثة أيام يموت ، وكان الذى دلىّ عليه الرحا مرحب ، فجعل محمود يقول لأخيه محمد : يا أخى ، بنات أخيك لا يتبعن الأفياء (٣) يسألن الناس ، فيقول محمد بن مسلمة : لو لم تترك مالاً لكان لى مال ، ومحمود كان أكثرهما مالًا – ولم تنزل يومئذ فرائض البنات – فلما كان اليوم الذى مات فيه محمود بن مسلمة ، وهو اليوم الذى قتل فيه مرحب ، فقال رسول الله ﷺ من يبشر محمود بن مسلمة أن الله قد أنزل فرائض البنات ، وأن محمد بن مسلمة قد قتل قاتله فخرج جعالة بن سراقة إليه فأخبره ، فسرّ بذلك ، وأمره أن يقرئ رسول الله ﷺ السلام منه ، قال : فأقرأته من

(١) تذفيف الجريح : الإجهاز عليه . قاله ابن الأثير فى النهاية .

(٢) هنا سقط واضح يظهر أنه حدث من النساخ ، فالجملة غير كاملة . ويظهر أنه أراد أن يقول : فلما قتل الحارث ومرحب الخ ضعفت مقاومة اليهود واستولى المسلمون على حصن ناعم أو كلاماً هذا معناه .

(٣) الأفياء : جمع فىء وهو ظل الجدار وما شابهه .

رسول الله ﷺ ، وقال : محمود لا أراه يذكرنى ؟؟ ، وكان رسول الله ﷺ يبيت فى الرجيع [1] فمات (أى محمود) خلافه ، فلما رجع رسول الله ﷺ إلى منزله ، وقد جَرحَ عامر بن (سنان) بن الأكوع نفسه ، حمل إلى الرجيع فمات ، فقبر عامر معه فى غار ، فقال محمد (بن مسلمة) أقطع لى [2] عند قبر أخى ، قال ﷺ : لك حُضْر [3] الفرس ، فان عملت فلك حُضْر فرسين [4] اهـ .

اليهودى الذى طلب الأمان فأعطيه :

وقرب انهيار مقاومة اليهود فى حصن ناعم وبينما كان عمر بن الخطاب يقوم بأعمال الدورية ليلاً (والمسلمون على وشك اقتحام حصن ناعم) ألقى رجاله من الحرس (حول المعسكر) القبض على رجل من اليهود فأتى به إليه ، فأمر به عمر أن تضرب عنقه ، ظناً منه أنه جاسوس لليهود ، ولكن اليهودى قال لابن الخطاب : اذهب بى إلى نبيكّم حتى أكلمه ، فأمسكه عمر ، وانتهى به إلى باب رسول الله ﷺ فوجده يصلىَ ، فدخل عليه به ، فقال ﷺ لليهودى : ماوراءك ومن أنت ؟ قال : تؤمّنى ياأبا القاسم وأصدقك ؟ فقال ﷺ : نعم . فقال اليهودى (واسمه سمّاك) [5] خرجت من حصن النطاة [6] من عند قوم ليس لهم نظام ، تركتهم يتسللون من الحصن فى هذه الليلة . فقال رسول الله ﷺ لليهودى : فأين يذهبون ؟ قال الى أذل إلى الشق [7] وقد رعبوا منك حتى أن أفئدتهم لتخفق ، وهذا

---

(١) سبق أن رسول الله ﷺ قد غير مقر قيادته واتخذ من وادى الرجيع معسكراً لجيشه ومركزاً لإسعاف الجرحى .

(٢) أقطعه الحاكم أرضاً منحه إياها دون مقابل .

(٣) حضر الفرس (بضم الحاء وسكون الضاد) المسافة التى يقطعها الفرس جرياً فى شوط واحد .

(٤) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٥٢ ـــ ٦٥٨ .

(٥) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٤٧ .

(٦) المراد به ـــ على ما يظهر حصن ناعم لأنه أحد حصون النطاة حى من أحياء خيبر جعله اليهود منطقة عسكرية لمكانه الاستراتيجى وحصونه المنيعة فى قمم الجبال .

(٧) الشق : منطقة محصنة ذوات حصون تقع أيضاً فى القسم الأول من مدينة خيبر .

حصن اليهود فيه السلاح والطعام والودك (١) وفيه آلة حصونهم التى كانوا يقاتلون بها بعضهم بعضاً ، قد غيبوا ذلك فى بيت من حصنهم (أى حصن الصعب) تحت الأرض ، قال رسول الله ﷺ لليهودى : وما هو ؟ قال منجنيق مفككة ودبابتان وسلاح من دروع وبيض وسيوف (٢) . فإذا دخلت الحصن غداً (وأنت تدخله) قال رسول الله ﷺ : إن شاء الله ، قال اليهودى : إن شاء الله .. أوقفك عليه (أى مستودع الأسلحة السرى) فإنه لا يعرفه أحد من اليهود غيرى ، ثم قال اليهودى : وأخرى ! قيل ما هى قال : تستخرجه (أى السلاح) ، ثم انصب المنجنيق على حصن الشق وتدخل الرجال تحت الدبابتين فيحفرون الحصن فتفتحه من يومك ، وكذلك تفعل بحصن الكتيبة (٣) .

فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله إنى أحسبه قد صدق ، فقال اليهودى : يا رسول الله أحقن دمى ، فقال ﷺ : أنت آمن ، قال : ولى زوجة فى حصن النزار فهبها لى ، قال ﷺ : هى لك ، ثم سأل رسول الله ﷺ لسماك اليهودى هذا : ما لليهود حوّلوا ذراريهم من النطاة ؟ قال : جرّدوها للمقاتلة ، وحوّلوا الذرارى إلى الشق والكتيبة .

قالوا ثم دعا رسول الله ﷺ اليهودى سمّاك إلى الإسلام ، فقال : انظرنى أياماً ففعل ﷺ .

الوفاء لليهودى بالعهد :

وترك النبى ﷺ اليهودى سماك وشأنه حراً ، وانشغل ﷺ بإدارة دفة المعارك ، وعندما وضعت الحرب أوزارها واستولى المسلمون على جميع

---

(١) هذا الحصن هو (حسب سياق المؤرخين) حصن الصعب بن معاذ الذى كان ثانى حصن فتحه المسلمون بعد حصن ناعم ، قال فى السيرة الحلبية.(ج ٢ ص ١٦٤) : وما بخيبر حصن به من التمر والودك والسكر والسمن والشعير والشحم والماشية والمتاع مثل حصن الصعب بن معاذ وهو من حصون النطاة ويليه حصن (قلة) .

(٢) استولى المسلمون على كل هذه الآلات الحربية وغنموها عندما فتحوا حصن الصعب كما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

(٣) الكتيبة (بفتح الكاف) إحدى مناطق خيبر الغنية بالزراعة وفوقها حصون حربية لليهود . ويظهر أنها تقع فى الشطر الثانى من مدينة خيبر الذى استسلم أهله للمسلمين بدون قتال ، وبعد حصار شديد .

حصون خيبر ، وكان آخرها حصن (النزار) ، أسلم اليهودى سماك ، بعد أن وفّى له النبى ﷺ بما وعده ، فأعطاه زوجته واسمها (نفيلة) وكانت مع نساء اليهود وذراريهم فى حصن (النزار) ، قال كعب بن مالك : رأيت اليهودى سماك يأخذ بيد امرأة حسناء (وهى امرأة نفيلة) [1] .

عدد الخسائر :

وهكذا بعد معارك شديدة كانت سجالًا بين المسلمين واليهود حول حصن ناعم تمكن المسلمون فى النهاية بقيادة على بن أبى طالب من اقتحام هذا الحصن والاستيلاء عليه .

وتدلّ لهجة المؤرخين كما تقدم – على أن القتال حول حصن مرحب وهو (حصن ناعم) أعنف قتال دار بين المسلمين واليهود ، وقد دام هذا القتال حول الحصن أكثر من خمسة عشر يوماً لاقى المسلمون فيها مقاومة عنيدة شرسة بلغت إلى حدّ قيام اليهود المدافعين عن هذا الحصن بعدة هجمات مضادة هزموا المسلمين فيها حتى أوصلوا حيث يعسكر القائد الأعلى النبى ﷺ ، الأمر الذى أزعجه كما تقدم ، وجعله يحضّ المسلمين على الجهاد ويُبدل القائد الذى كان يتولى قيادة الجند المكلف بفتح حصن مرحب .

ومن هنا يمكن القول : أن تمكن المسلمين بقيادة على بن أبى طالب من فتح حصن ناعم جعل جيش الإسلام يدخل إلى النصر على اليهود فى خيبر من أوسع أبوابه .

فاليهود وإن لم يستسلموا كلياً بعد سقوط حسن (ناعم) إلا أن انهزامهم وفشلهم فى الاحتفاظ بهذا الحصن المنيع وقتل المسلمين أمامه لأشجع شجعان اليهود (وهم .. مرحب .. وأخويه .. ياسر .. والحارث .. وعامر) ضعضع من معنويات يهود خيبر ، وجعلهم يكادون يفقدون الثقة بأنفسهم بعد أن بلغت هذه الثقة إلى حد الغرور والاستهانة بقوات المسلمين كما رأينا فى أول القتال حيث فتح اليهود باب حصن ناعم ، وحملوا على المسلمين حتى طاردوهم إلى حيث يقف النبى ﷺ وهيئة أركان قيادته .

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥٩ ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٤٦ — ٦٤٨ .

وبالرغم من إجماع المؤرخين على أن القتال كان عنيفاً ، ودام طويلاً أمام (حصن ناعم) إلا أن أحداً لم يذكر عدد القتلى (تحديداً) من الجانبين ، وإن كان جاء ذكر القادة اليهود الخمسة الذين صرعوا مبارزة أمام الحصن وكلهم من الحميريين قوم مرحب (وهم مرحب ، وياسر والحارث وعامر وأُسَير) وذكر ثلاثة من شهداء المسلمين وهم (محمود بن مسلمة وعامر ابن سنان بن الأكوع والعبد الحبشى) إلا أن هذا لا يعنى أن هؤلاء القتلى من الفريقين هم (فقط) حصيلة معارك (حصن ناعم) ، بل أن القرائن لتدل على أن القتلى بين الفريقين أكثر من ذلك ، بدليل أن خمسين من المسلمين أصيبوا (فى اليوم الأول من القتال) بجراحات مختلفة نقلوا على أثرها إلى مركز الإسعاف فى معسكر الرجيع [1] .

كما أن اليهود فى اليوم الذى اقتحم فيه المسلمون حصن مرحب (حصن ناعم) قد دافعوا عن الحصن دفاعاً عنيداً ، مما يجعل الإصابة بينهم كثيرة .

الغنائم والمعدات :

كذلك عند وصف استيلاء المسلمين على (حصن ناعم) لم يشر أحد من المؤرخين إلى مبلغ الغنائم وكميات السلاح التى استولى عليها المسلمون عند فتحهم هذا الحصن الذى يعتبر أقوى وأمنع حصن فى خيبر .

ويمكنُ القول أن المسلمين لم يحصلوا على شىء يُذكر لأن اليهود تحسباً للطوارئ (كما سيأتى) نقلوا النساء والذرية إلى حصن النزار أحصن وآخر حصون الشطر الأول من خيبر .

***

فتح حصن الصعب

كان حصن (الصعب بن معاذ) من حصون النطاة ، المنطقة الواقعة فى القسم الأول من مدينة خيبر .

ويعتبر هذا الحصن : الحصن الثانى من حيث القوة والمناعة والتحصين ، بعد حصن مرحب (حصن ناعم) الذى سيطر عليه المسلمون فى المرحلة الأولى من المعركة .

(١) انظر : إمتاع الأسماع للمقريزى ص ٣١٢ .

وكان قادة اليهود عندما رسموا خطة الدفاع عن خيبر ، وقرروا ضمن خطتهم أن يكون حصن مرحب (المسمى بحصن ناعم) خط الدفاع الأول لمكانه الاستراتيجى ، نقلوا منه (قبل وصول المسلمين) النساء والأطفال وكل أموالهم إلى حصن النزار ولم يتركوا فى حصن (ناعم) سوى حَمَلة السلاح الذين عليهم أن يدافعوا عن الحصن .

وذلك ليسهل عليهم الانسحاب من حصن ناعم إلى خط الدفاع الثانى (حصن الصعب بن معاذ) ولتكون نساؤهم وذراريهم وأموالهم فى مأمن إذا ما قدر للمسلمين أن يستولوا على حصن ناعم . وفعلاً ، فإن مقاومة اليهود عندما انهارت وعجزوا عن صدّ هجوم المسلمين على حصن ناعم ، تمكنوا بكل سهولة من الانسحاب إلى خط الدفاع الثانى (حصن الصعب بن معاذ) ويدلنا على ذلك أن أحداً من اليهود لم يقع فى أسر المسلمين ، أثناء معارك حصن ناعم ، فلم أرَ (فيما بين يدى من مصادر التاريخ أن أسيراً واحداً من اليهود قد وقع فى أيدى المسلمين .

محاصرة حصن الصعب :

وبعد أن تمكن المسلمون من الاستيلاء على حصن ناعم (بقيادة على بن أبى طالب) وتحوُّلِ اليهود إلى خط الدفاع الثانى (حصن الصعب بن معاذ) وجَّه المسلمون هجومهم على الحصن فضربوا عليه الحصار تمهيداً لاقتحامه وفتحه .

النبى يعطى الراية الحباب بن المنذر :

وكما أعطى النبى ﷺ الراية وقيادة المحاربين لعلى بن أبى طالب للقيام بمهمة فتح حصن ناعم أعطى الراية وقيادة الجيش للحباب بن المنذر الأنصارى للقيام بالهجوم على حصن الصعب بن معاذ فتولى أمر الهجوم حتى فتحه [1] .

المجاعة فى بعض وحدات الجيش :

وقد حدث نقص خطير فى المواد الغذائية بين عدة كتائب من الجيش الإسلامى إلى حدّ المجاعة نتيجة طول الحصار وشراسة اليهود فى القتال أثناء

(١) إمتاع الأسماع ص ٣١٦ وما بعدها .. والسيرة الحلبية ج ٢ .

الدفاع عن الحصون التى كانوا يعتصمون بها .

قال معتّب الأسلمي : أصابنا معشر أسْلم خصاصة [1] فى خيبر فأقمنا عدة أيام على حصن النطاة ، لا نفتح شيئاً فيه [2] طعام ، فأجمعت أسلم أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ أسماء بن حارثة ، فقالوا : إيت محمداً رسول الله ﷺ فقل له : إنا قد جهدنا من الجوع والضعف ، فجاء أسماء بن حارثة فقال : يارسول الله، إن أسلم [3] تقول : إنا قد جهدنا من الجوع والضعف فادع الله لنا ، فدعا لهم رسول الله ﷺ ، ثم قال : والله ما بيدى ما أقريهم [4] ثم صاح فقال : اللهمّ افتح عليهم أعظم حصن فيه ، أكثره طعاماً وأكثره ودكاً [5] وقالت أم مطاع [6] الأسلمية – وكانت قد شهدت خيبر مع رسول الله ﷺ – قالت : لقد رأيت أسلم حين شكَوا الى رسول الله ﷺ من شدة الحال فندب الناس ، فنهضوا ، فرأيت أسلم أول من انتهى إلى حصن الصعب بن معاذ ، وإن عليه لخمسمائة مقاتل فما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى فتحه الله ، وكان عليه قتال شديد ، برز رجل من اليهود يقال له : يوشع يدعو إلى البراز ، فبرز إليه الحباب بن المنذر ، فاختلفا ضربات ، فقتله الحباب ، وبرز آخر يقال له : الدَّيال ، فبرز له عمارة بن عقبة الغفارى [7] فيضربه ضربة على هامته ، وهو يقول خذها وأنا الغلام الغفارى فقال الناس : بطل جهاده ، فبلغ رسول الله ﷺ فقال : ما باس به يؤجر ويحمد [8] .

---

(١) الخصاصة : شدة الفقر .

(٢) حصن ناعم من حصون النطاة ، فتحه المسلمون ، ولكن ليس به أية مواد غذائية .

(٣) أسلم : قبيلة مشهورة ، وهى أسلم بن أفصى بطن من خزاعة من القحطانيين تقع منازلهم قريباً من المدينة .

(٤) أقريهم : أطعمهم .

(٥) الودك : الشحم .

(٦) قال فى الإصابة : أم مطاع الأسلمية قال أبو عمر (ابن عبد البر) : مدنية حديثها عند عطاء ابن أبى مروان عن أبيه عنها ، قال : وروى عنها أنها شاهدت خيبر مع رسول الله ﷺ فأسهم لها كسهم رجل وفى ذلك نظر ، وشهودها خيبر صحيح ، انتهى .

(٧) هو عمارة بن عقبة بن حارثة الغفارى ، ذكره ابن إسحاق فيمن استشهد يوم خيبر ، كذلك ذكره ابن عبد البر .

(٨) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٦٠ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٥ وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٢ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٤ .

النهى عن لحم الحمر الأهلية :

وقد بلغ الجوع ببعض وحدات جيش الإسلام بعد أن نفدت مواده الغذائية نتيجة طول الحصار ، بلغ الجوع ببعض هذه الوحدات إلى أن يذبحوا الحمير ليأكلوها .. فقد قال رهم الغفار : أصابنا جوع شديد، ونزلنا خيبر زمان البلح ، وهى أرض وخيمة حارة شديد حرّها ، فبينا نحن محاصرون (حصن الصعب بن معاذ) فخرج عشرون حماراً أو ثلاثون ، فلم يقدر اليهود على إدخالها ، وكان حصنهم له مَنعة ، فأخذها المسلمون فانتحروها وأوقدوا النيران وطبخوا لحومها فى القدور ، والمسلمون جياع ، ومرّ بهم رسول الله ﷺ وهم على تلك الحال ، فسأل فأخبر فأمر منادياً ينادى : إن رسول الله ﷺ ينهاكم عن الحُمُر الإنسية — قال : فكفّوا القدور — وعن متعة النساء وعن أكل ذى ناب ومخلب .

أما لحوم الخيل فقد أذن فيها [1] .

وكانوا أبو اليَسَر [2] يحدث أنهم حاصروا حصن الصعب بن معاذ ثلاثة أيام ، وكان حصناً منيعاً ، وأقبلت غنماً لرجل من اليهود ترتع وراء حصنهم ، فقال رسول الله ﷺ : من يطعمنا من هذه الغنم ؟ فقلت : أنا يارسول الله ، فخرجت أسعى مثل الظبى ، فلما نظر إلىَّ رسول الله ﷺ مولياً قال : اللهم متعنا به ! قال : فأدركت الغنم ، وقد دخل أولها الحصن فأخذت شاتين من آخرها فاحتضنتها تحت يدى ، ثم أقبلت أعدو كأن ليس معى شيء ، حتى أتيت بهما رسول الله ﷺ فأمر بهما فذبُحتا ، ثم قسمهما فما بقى أحد من أهل العسكر الذين هم معه محاصرين الحصن إلا أكل منها ، فقيل لأبى اليسر : وكم كانوا ؟ قال : كانوا عدداً كثيراً فيقال :

---

(١) وقد أباح ابن عباس أكل لحم الحمر الأهلية ، انظر البداية والنهاية ج ٢ ص ١٩٢ ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٦٠ وصحيح البخارى ج ٥ ص ٢٨١ وما بعدها .

(٢) أبو اليسر (بفتحتين) اسمه كعب بن عمرو بن عباد بن عمرو بن سواد الأنصارى . شهد العقبة وبدراً وله فى بدر بطولات كبيرة ، هو الذى أسر العباس بن عبد المطلب (عم النبى — ﷺ —) يوم بدر ، مات بالمدينة سنة خمس وخمسين ، قال ابن إسحاق : وكان آخر من مات من الصحابة ، قال ابن حجر فى الأصابة : كأنه يعنى أهل بدر ، روى عنه عبادة بن الوليد بن عبادة الصامت ، وحديثه مطول وأخرجه مسلم .

أين بقية الناس ؟ فيقول فى الرجيع بالمعسكر ، فسمع أبو اليسر - فيما بعد وقد كبر وصار شيخاً كبيراً - وهو يبكى فى شىء غاظه من بعض ولده ، فقال : لعمرى بقيت بعد أصحابى ومتّعوا بى وماأمتع بهم ؟! لقول رسول الله ﷺ : اللهم متّعنا به ، فبقى فكان من آخرهم .

عدد المدافعين عن حصن الصعب :

كان حصن الصعب (الذى تحوَّل إليه اليهود من حصن ناعم) يتولى الدفاع عنه وحده خمسمائة مقاتل [1] من اليهود بقيادة قائدين منهم ، أحدهما يقال له (الدَّيال) والثانى يقال له (يوشع) .

كان حصن الصعب منيع الأسوار عالى الأبراج وكان مشحوناً بالمقاتلة اليهود وبينهم رماة بالنبل على غاية من المهارة فى إصابة الهدف .

المبارزة أمام الحصن :

وذكر المؤرخون أن اليهود دافعوا عن حصن الصعب بن معاذ بشراسة وضراوة لا تقلان عن الضراوة والشراسة التى دافعوا بهما عن حصن (ناعم) بل كان دفاعهم عن حصن الصعب بن معاذ أشد وأقوى لأنه كان يضم كثيراً من الأموال والعتاد الحربى وآلات حربية مختلفة .

وعندما أخذت قوات الإسلام مواقعها وضربت الحصار على اليهود فى حصن الصعب ، خرج كبير قادة اليهود على فرسه أمام الحصن وطلب المبارزة على الطريقة العربية التقليدية المعروفة ، وكان اسم هذا القائد اليهودى (يوشع) فخرج لملاقاته حامل لواء جيش الإسلام والمكلف بقيادة الهجوم على الحصن ، الحباب بن المنذر بن الجموح فنازله (مبارزة) وبعد كرّ وفرّ ومقارعة عنيفة بالسيوف تمكن قائد قوات المسلمين من قتل القائد اليهودى يوشع .

بعد مصرع القائد اليهودى يوشع غضب اليهود أشد الغضب ، وفى الحال خرج قائد يهودى ثانٍ هو (الديال) وركزّ رمحه أمام الحصن وطلب من المسلمين المبارزة .

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٦٤ ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٦٠ .

فخرج إليه عمارة بن عقبة الغفارى فجرت المطاردة منهما على فرسيهما كل يريد القضاء على قرينه وبعد مبارزة شاقة حمل عمارة بن عقبة الفارس على الديال حملة صادقة فسدّد إليه ضربة من سيفه فكانت القاضية .

وكان تمكُّن المسلمين من قتل القائدين اليهوديين الكبيرين مبارزة أمام حصن الصعب بداية سيئة لليهود المدافعين عن الحصن .

معركة التراشق بالسهام :

وقد استشاط اليهود غضباً لمصرع قائديهم (يوشع والديال) فقاموا بهجوم عنيف معاكس على المسلمين مهدوا له بقذف شديد من سهامهم التى صبُّوها كالمطر على المسلمين من أبراج الحصن ، وقد ركز اليهود (أثناء قذفهم المسلمين بالسهام) على الموقع الذى يقف فيه القائد الأعلى النبى ﷺ بغية إصابته ، وكان يهود خيبر من أمهر رماة النبل .

وقد تساقطت نبال اليهود المصوّبة من مقاذف الحصن حول النبى ﷺ فأقام المسلمون من أنفسهم تُرْساً [1] حول النبى القائد ﷺ الذى كان راكباً جواده يرقب المعركة .. وذلك حماية لذاته الشريفة من أن يصيبها شىء من سهام اليهود التى أرسلوها نحوه كالمطر طمعاً منهم فى أن يتمكنوا من قتله .

وكان المسلمون يردون على قذف اليهود بقذف مثله من نبالهم ، ولكن أثر رمى المسلمين على اليهود ليس كأثر رميهم على المسلمين ، لأن اليهود كانوا يتسترون وراء أسوار وجدران حصنهم بينما كان المسلمون مكشوفين لليهود أمام الحصن .

ولم يذكر أحد من المؤرخين أن سهام اليهود قد أصابت أحداً من المهاجمين المسلمين غير أنه من المحتمل جداً أن تكون هناك إصابات بينهم نتيجة قذفهم بالسهام من الحصن ، وقد ذكر بعض المؤرخين [2] أن عدداً من المسلمين سقطوا قتلى قبل افتتاح الحصن ، ولم يذكر هل قتلوا بنبال اليهود أم بطريقة أخرى .

---

(١) الترس (بضم التاء) آلة يتستر بها المحارب أثناء القتال .

(٢) المقريزى فى كتابه إمتاع الأسماع .

هجوم اليهود المضاد :

وبعد معركة التراشق بالسهام وانتصار المسلمين فى عمليات المبارزة أمام حصن الصعب شدّد المسلمون من حصارهم حول الحصن وحاولوا اقتحامه بهجوم عام إلا أنهم قوبلوا من قبل اليهود المدافعين عن الحصن بمقاومة عنيفة حالت بينهم وبين اقتحام الحصن .

بل إن اليهود بلغ بهم الاستبسال والشراسة فى الدفاع عن حصن الصعب إلى أن يفتحوا أبواب هذا الحصن ويقوموا بهجوم مضادّ كاسح عنيف كشفوا به قوات المسلمين وهزموها وطاردوها حتى المكان الذى يقف فيه النبى القائد ﷺ وكادوا فى هجومهم المضادّ يصلون إلى النبى ﷺ إلا أنه ﷺ ثبت مكانه كعادته فى مثل هذه المواقف الحرجة وأخذ يثبّت المسلمين أمام هجوم اليهود الكاسح ويحضّهم على الجهاد حتى أن الرسول ﷺ عندما انهزم المسلمون (ماعدا قائدهم الحباب بن المنذر) أمام هجوم اليهود الكاسح - نزل ﷺ من على فرسه كأنه يوطّن المسلمين على الثبات ، وأمام نداءات الرسول ﷺ الموجّهة إلى أصحابه بأن يثبتوا ويواجهوا اليهود المهاجمين مواجهة المجاهد الصابر المحتسب ، عاد إلى هؤلاء الأصحاب المنهزمين رشدهم فعادوا إلى ميدان القتال وأخذوا يتحلّقون حول نبيهم الأعظم ﷺ الذى كان يلقى عليهم الدروس - عملياً - كيف يكون الثبات ساعة الكرب والشدة .. وبهذا صمدوا فى وجه هجوم اليهود الكاسح فأوقفوه فاضطر اليهود إلى أن يعودوا إلى حصنهم ويغلقوا الأبواب على أنفسهم بعد أن تركوا عدداً من قتلاهم فى الميدان . قال الواقدى فى ص ٦٦٢ لكنهم أخذوا يرمون بالحجارة . وقالت أم عمارة ٦٦١ تذكر انهزام أصحاب سعد بن عبادة .

وكان قائد المسلمين فى حرب (حصن الصعب بن معاذ) الحباب بن المنذر قد ثبت مكانه يقاتل اليهود بشراسة وثبات عندما انكشف رجاله أمام هجوم اليهود المضادّ ، ولهذا فإن المسلمين المنهزمين عندما ثبتوا بعدما رفع الرسول ﷺ من روحهم المعنوية بثباته مكانه وحضّهم على الجهاد جمعوا صفوفهم وعادوا من جديد إلى التجمع خلف قائدهم الحباب بن المنذر الذى قام بتنظيمهم فى الحال ثم شنّ بهم فى نفس الوقت هجوماً عنيفاً على

حصن الصعب بغية اقتحامه فطارد اليهود حتى أدخلهم حصنهم الذى أغلقوا أبوابه .

ولكنه لقى من اليهود مقاومة عنيدة حالت بينه وبين اقتحام الحصن ، فقد اقترب المسلمون من أسوار الحصن فى هجوهم ، ولكن اليهود أطلقوا عليهم سيولًا جارفة من سهامهم ، كما قذفوهم من أسوار الحصن قذفاً شديداً بالحجارة التى أعدُّوها لمثل ذلك الموقف .. فتراجع المسلمون عن الحصن أمام انهمار السهام والحجارة التى سلّطها عليهم المدافعون عن الحصن .

الهجوم اليهودى المعاكس مرة أخرى :

واغتنم اليهود فرصة تباعد المسلمين المهاجمين عن أسوار الحصن فشنّوا فى الحال على المسلمين هجوماً معاكساً ثانياً كان أعنف من الهجوم الأول ، حيث فتحوا أبواب حصنهم وحملوا على المسلمين حملة منكرة ، ولكن المسلمين هذه المرة ثبتوا مع قائدهم (الحباب) وقابلوا هجوم اليهود بهجوم مضادّ آخر ، فدارت أمام الحصن معركة طاحنة استمات فيها الفريقان وقد سقط فى هذا القتال من المسلمين عدد من القتلى ، ولكن النصر كان فى النهاية لهم حيث تمكنوا من صدّ هجوم اليهود ، فدحروهم حتى ولّوا منهزمين فدخلوا حصنهم وأغلقوا على أنفسهم الأبواب .

قال المقريزى فى كتابه (إمتاع الأسماع ص ٣١٧) : ولما أقام المسلمون على حصن الصعب يومين عدا بهم الحباب بن المنذر فى اليوم الثالث ومعه الراية فقاتلهم أشد قتال ، وبكّر رسول الله ﷺ فتراموا بالنبل ، وقد ترّس المسلمون على رسول الله ﷺ ثم حملت اليهود حملة منكرة ، فانكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ ، وهو واقف قد نزل عن فرسه ومدعم [١] يمسك الفرس ، وثبت الحباب برايته يراميهم على فرسه .

فندب رسول الله ﷺ الناس وحضّهم على الجهاد فأقبلوا حتى زحف بهم الحباب ، واشتد الأمر فانهزمت اليهود وأغلقوا الحصن عليهم ، ورموا على جدره بالحجارة رمياً كثيراً ، فتباعد عنهم المسلمون ، ثم كرّوا

---

(١) مدعم : اسم أحد موالى النبى .

فخرجت اليهود وقاتلوا أشد قتال ، فقتل ثلاثة من المسلمين ثم هزمهم الله تعالى .

قال الواقدى : حدثنى خالد بن إلياس عن جعفر بن محمود بن محمد عن محمد بن مسلمة قال . كنت فيمن ترّس عن النبى ﷺ ، فجعلت (عند اشتداد هجوم اليهود) أصيح بأصحابه : تراموا بالجحف ! ففعلوا ، فرمونا (أى اليهود) حتى ظننت أن لا يقلعوا ، فرأيت رسول الله ﷺ رمى بسهم فما أخطأ رجلاً منهم ، وتبسم إلىّ رسول الله ﷺ وانفرجوا ودخلوا الحصن .

وحدّث الواقدى أيضاً عن جابر بن عبد الله الأنصارى أنه قال « يصف القتال العنيف أمام حصن الصعب بن معاذ » : لما انتهينا إلى حصن الصعب ابن معاذ وغزا بنا الحباب بن المنذر بن الجموح ، ومعه رايتنا وتبعه المسلمون ، وقد أقمنا على حصن الصعب يومين نقاتلهم أشد القتال ، فلما كان اليوم الثالث بكّر رسول الله ﷺ فخرج رجل من اليهود (من الحصن) كأنه الدقل [١] وخرج وعاديته [٢] معه فرموا بالنبل ساعة سراعاً ، وترّسنا عن رسول الله ﷺ وأمطرونا بالنبل ، فكأن نبلهم الجراد ، حتى ظننت أن لا يقلعوا ، ثم حملوا حملة رجل واحد ، فانهزم المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ ، وهو واقف ، قد نزل عن فرسه، ومدعم (مولاه) يمسك فرسه ، وثبّت الحباب رايتنا ، والله مايزال يراميهم على فرسه .

وندب رسول الله المسلمين وحضّهم على الجهاد ورغّبهم فيه ، وأخبرهم أن الله قد وعده خيبر يغنّمه إياها ، قال : فأقبل الناس جميعاً حتى عادوا إلى صاحب رايتهم ، ثم زحف بهم الحباب ، فلم يزل يدنو قليلاً قليلاً ، وتراجع اليهود على أدبارها حتى لحَمَها الشر فانهزموا سراعاً ودخلوا الحصن وغلقوا

(١) الدقل بفتح أوله وثانيه : سارية طويلة من خشب يمد ويربط عليها شراع السفينة ، وقد شبه الفارس اليهودى بالدقل لطول جسمه .

(٢) العادية هم مشاة من الحرس يعدون أمام القائد وتلك عادة عند اليهود وبعض الأمم الأخرى كالأحباش ، يتبعونها للتدليل على الأبهة والعظمة ، حتى ولو لم يكونوا فى حالة حرب ، ترى هؤلاء المشاة يجرون أمام دابة القائد أو الحاكم .

عليهم ، ووافوا على جُدُرْ - وله جدر دون جدر - (أى سور خلف سور) فجعلوا يرموننا بالجندل [1] رمياً كثيراً ، ونحّونا عن حصنهم بوقع الحجارة حتى رجعنا إلى موضع الحباب الأول .

ثم إن اليهود تلاومت بينها ، وقالت : مانستبقى لأنفسنا ؟ قد قتل أهل الجد والجلد فى حصن ناعم ، فخرجوا مستميتين ورجعنا إليهم فاقتتلنا على باب الحصن أشدّ قتال .

وقتل يومئذ ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ - أبو صياح ، وقد شهد بدراً ، ضربه رجل منهم بالسيف فأطن قحف [2] رأسه ، وعدىّ بن مرّة ابن سراقة ، طعنه أحد اليهود بالحربة بين ثدييه فمات ، والثالث ، الحارث ابن حاطب وقد شهد بدراً ، رماه رجل من الحصن فدمغه ، وقد قتلنا منهم على الحصن عدّة ، كلما قتلنا منهم رجلاً حملوه حتى يدخلوه الحصن .

مصرع سلّام بن مشكم :

وفى معارك حصون النطاة لقى سلّام بن مِشكَم أحد سادات اليهود من بنى النضير وزوج زينب بنت الحارث أخى مرحب التى دسّت السم للنبى ﷺ فى الشاة بغية قتله - كما سيأتى تفصيله إن شاء الله - لقى سلّام هذا مصرعه أثناء القتال بين المسلمين واليهود فى النطاة .

وبالرغم من إشارة المؤرخين إلى أن سلّام بن مِشكم كان القائد العام لقوات اليهود المحاربة فى منطقة النطاة التى شهدت أعنف المعارك بين المسلمين واليهود ، وبالرغم من الإشارة إلى أن هذا القائد اليهودى الكبير قد لقى مصرعه فى معارك النطاة ، فإن أحداً من المؤرخين - فيما بلغنى - لم يذكر أن القائد (سلّام بن مشكم) قد كان له أى دور حربى يُذكر ، بالرغم من أنهم أكدوا أنه قتل فى معارك النطاة . إلا أن أحدهم (وهو الإمام الواقدى) قد أعطى تفسيراً لعدم مباشرة سلّام بن مِشكم القتال (كزملائه من قادة يهود النطاة مثل مرحب وياسر والحارث وأُسَير ويوشع) وهو أنه كان مريضاً ، وبالرغم من مرضه المقعد ، لم يترك النطاة حتى قتل ، بالرغم

---

(1) الجندل : الصخر .

(2) القحف بكسر أوله وسكون ثانيه : العظم الذى فوق الدماغ .

من نصح أصحابه له بأن يهرب إلى منطقة (الكتيبة) ليكون فى مأمن ، لأن خبراء اليهود كانوا يتوقعون أن أهل الكتيبة لن يقاتلوا المسلمين بل سيصالحونهم .

قال الواقدى : قال عبد الله : سألت إبراهيم بن جعفر عن قول زينب ابنة الحارث «للنبى ﷺ » : قتلت أبى [١] ، قال : قُتِلَ يوم خيبر أبوها الحارث ، أشجع اليهود ، وأخوه زبير قتل يومئذ ، فكان زوجها سيّدهم وأشجعهم (سلّام بن مِشكَم) ، مريضاً ، وكان فى حصون النطاة ، فقيل له : إنه لا قتال فيكم ، فكن فى الكتيبة ، قال : لا أفعل أبداً ، فقُتِل وهو مريض ، وهو (أى سلّام بن مِشكَمَ) أبو الحكم الذى يقول فيه الربِّيع بن أبى الحقُيق :

ولما تداعوا بأسيافهم فكان الطعانُ دعونا سلاما
وكنا إذا ما دعونا به سقينا سُراةَ العدوِّ السِّماما

وهو (أى سلّام بن مشكم) صاحب حربهم (أى قائدهم الحربى الأعلى) ولكن الله شغله بالمرض [٢] .

انهزام اليهود وفتح الحصن :

وبالرغم من أن يهود المدافعين عن حصن الصعب بن معاذ أغلقوا الأبواب عند تراجعهم أمام الحباب بن المنذر ورجاله ، إلا أن الاضطراب قد عمّهم ، وأخذت معنوياتهم فى الانهيار ، ولحظ ذلك قائد الهجوم على الحصن (الحباب بن المنذر) فاغتنم فرصة اضطراب اليهود وتدنى معنوياتهم ، فرسم فى الحال خطة لاقتحام حصن الصعب وفتحه .

وبموجب هذه الخطة شنّ القائد الحباب برجاله هجوماً عاماً خاطفاً على الحصن ، فاقتحموه وقاتلوا بضراوة حتى افتتحوه واستولوا على كل ما فيه من أسلحة وأرزاق ، وكانت شيئاً عظيماً فرّج الله به الضائقة التى كان يعانى منها الجيش الإسلامى الذى نفدت تمويناته بسبب طول إقامته محاصراً لحصون خيبر .

---

(١) سيأتى تفصيل قصة دس هذه اليهودية السم للرسول ﷺ .

(٢) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٨٠ .

وقد سقط قتلى كثيرون من اليهود الذين كانوا يدافعون عن حصن الصعب بن معاذ ، كما وقع عدد منهم فى الأسر .

معدات ثقيلة وأسلحة يستولى عليها المسلمون فى حصن الصعب :

وبالإضافة إلى المواد الغذائية الكثيرة التى استولى عليها المسلمون فى هذا الحصن ، وجدوا - تحت الأرض مدفوناً - آلات حربية وأسلحة كثيرة مختلفة ، بينها دروع وسيوف ومنجنيقات «وهى آلات قاذفة مهمتها تدمير القلاع والحصون» كما وجدوا من الآلات الحربية دبابات (وهى آلات من الحديد على شكل صفائح كبيرة العرض والطول تصنع ليتقدم خلفها الجنود لتحميهم من السهام والحراب عندما يريدون مهاجمة حصن أو قلعة لفتحها) .

والدبابات آلات واقية متطورة لا تستعملها فى تلك العصور إلا الجيوش الرومانية والفارسية لكونها أرقى الجيوش تنظيماً فى العالم آنذاك .

ولا يدرى أحد كيف حصل يهود خيبر على هذه الدبابات التى لا يعرف أن أحداً كان يصنعها أو يستعملها فى جزيرة العرب فى ذلك الوقت أو قبله .

ولا يستبعد أن يكون يهود خيبر قد جلبوها من الشام أو أنهم كانت لهم خبرة بصنعها فصنعوها محلياً فى خيبر عندما شعروا بخطر الغزو الإسلامى .

ثم أن الذى يثير سؤالًا آخر هو أن الدبابات التى غنمها المسلمون من يهود حصن الصعب هى آلات هجومية تستخدم فى الهجوم على المدن والقلاع ، فهل كان اليهود يعدّون العدة لغزو المدينة فأعدوا هذه الدبابات ليستخدموها فى الهجوم على المدينة ؟

إن الجواب على هذا السؤال (بنعم) هو التفسير الصحيح لوجود هذه الدبابات لدى اليهود فى خيبر وخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذه الدبابات هى آلات هجومية بينما المعركة فى خيبر بالنسبة لليهود هى معركة دفاعية لا تحتاج إلى هذه الدبابات .

آداب حربية نبوية :

وعندما استولى المسلمون على حصن ابن معاذ نادى منادى النبى القائد ﷺ بمنع أخذ أى شىء من الغنائم قبل قسمتها ما عدا الضرورى الذى يحتاجه الإنسان لحينه فقال : (كلوا واعلفوا ولا تحتملوا - يعنى لا تخرجوا به إلى بلادكم - فأخذوا من ذلك الحصن طعامهم وعلف دوابهم ، ولم يمنع أحد من شىء ، ولم يخمّس [١] ثم نقلت الغنائم والأسلاب إلى معسكر الجيش النبوى .

إراقة الخمر وكسر آنيتها :

وقد وجد المسلمون فى حصن الصعب ضمن متروكات اليهود المنهزمين كميات كبيرة من الخمر المعتّق فأمر النبى ﷺ بكسر آنيتها وإراقتها .

وشرب رجل من الجند المسلمين من هذه الخمر يقال له : « عبد الله الخمَّار » فخفقه رسول الله ﷺ بنعليه وأمر من حضروه فخفقوه بنعالهم [٢]

لا تلعنه :

وقد لعن عمر بن الخطاب هذا الرجل لشربه الخمر فقال النبى ﷺ - لا تلعنه - فإنه يحب الله ورسوله .

ثم راح عبد الله كأنه أحدهم فجلس معهم .

كما وجد الجيش فى حصن الصعب آنية من نحاس وفخّار كانت يهود تأكل فيها وتشرب فقال النبى ﷺ : اغسلوها واطبخوا وكلوا فيها ، واشربوا [٣] .

وقد وصف الواقدى معركة حصن الصعب فقال : (فيما رواه عن أبى سبرة أحد الذين شهدوا فتح خيبر) : ثم حمل صاحب رايتنا ، وحملنا معه ، وأدخلنا اليهود الحصن وتبعناهم فى جوفه فلما دخلنا عليهم الحصن ، فكأنهم

---

(١) إمتاع الأسماع ص ٣١٨ .

(٢) الخفق : هو الضرب الخفيف بالسوط أو النعل أو العصا .

(٣) إمتاع الأسماع ص ٣١٩ .

غنم، فقتلنا من أشرف لنا [١] ، وأسرنا منهم ، وهربوا فى كل وجه يركبون الحرّة [٢] يريدون حصن قلعة الزبير ، وجعلنا ندعهم يهربون (أى أن عسكر الإسلام لم يتعقبّوا اليهود المنهزمين من الحصن) ، وصعد المسلمون على جدره ، فكبّروا عليه تكبيراً كثيراً ، ففتتنا أعضاد اليهود بالتكبير ، لقد رأيت فتيان أسلم وغفار فوق الحصن يكبِّرون ، فوجدنا والله من الأطعمة ما لم نظن أنه هناك ، من الشعير والتمر والسمن والعسل والزيت والودك .

ونادى منادى رسول الله ﷺ : كلوا واعلفوا ولا تحتملوا ، يقول : لا تخرجوا به إلى بلادكم ، فكان المسلمون يأخذون من ذلك الحصن مقامهم ، طعامهم وعلف دوابهم ، لا يُمْنَعُ أحد أن يأخذ حاجته ، ولا يُخَمَّس الطعام ، ووجدوا فيه من البز والآنية ، ووجدوا خوابى السكر [٣] ، فأمروا فكسروها ، فكانوا يكسرونها حتى سال السكر فى الحصن ، والخوابى [٤] كبار لا يطاق حملها ، وكان أبو ثعلبة الخشنى [٥] يقول : وجدنا فيه آنية من نحاس وفخار ، كانت اليهود تأكل فيها وتشرب ، فسألنا رسول الله ﷺ فقال : اغسلوها واطبخوا فيها واشربوا ، وقال أسخنوا فيها الماء [٦] ثم اطبخوا بعد .. وكلوا واشربوا ، وأخرجنا منه غنماً كثيراً ، وبقراً وحُمراً ، وأخرجنا منه آلات كثيرة للحرب ، ومنجنيقاً ودبابات وعدّة ، فنعلم أنهم كانوا يظنون أن الحصار يكون دهراً ، فجعل الله خزيهم .

وحدّثنى عبد الحميد بن جعفر ، عن أبيه ، قال : لقد خرج من أطم [٧] من حصن الصعب بن معاذ من البز عشرون عكماً محزومة من غليظ متاع اليمن ، وألف وخمسمائة قطيفة ، يقال قدم كل رجل بقطيفة على أهله ، ووجد عشرة أحمال خشب ، فأمر به فأخرج من الحصن ثم أحرق ،

---

(١) أشرف الشىء : برز وظهر .

(٢) الحرة : هى الأرض ذات الحجارة السوداء التى كأن رؤوسها أطراف سكاكين .

(٣) السكر (بفتح السين والكاف) : هو الخمر بمختلف أنواعه .

(٤) الخوابى جمع خابية : جرار تصنع لتعتيق الخمر فيها .

(٥ ، ٦) تسخين الماء فى الأوانى مفيد من الناحية الطبية لأن الغليان يقتل جميع الميكروبات الضارة ، ومن هنا أمر ﷺ بتسخين الماء فى الأوانى قبل الأكل والشرب فيها خشية أن تكون موبوءة .

(٧) أطم الحصن (بضم أوله وثانيه) : أعلاه .

فمكث أياماً يحترق ، وخوابى سكر (بفتح أوله وثانيه) كسرت وزقاق خمر [١] فأهريقت وعمد يومئذ رجل من المسلمين فشرب من الخمر ، فرفع إلى رسول الله ﷺ فكره حين رفع إليه ، فخفقه بنعليه [٢] ، ومن حضره ، فخفقوه بنعالهم ، وكان يقال له : عبد الله الخمار ، وكان رجلاً ، لا يصبر عن الشراب ، قد ضربه رسول الله ﷺ مراراً ، فقال عمر بن الخطاب : اللهم العنه ! ما أكثر ما يضرب ! فقال رسول الله ﷺ : لا تفعل يا عمر ، فإنه يحب الله ورسوله ، ثم راح عبد الله فجلس معهم كأنه أحدهم .

وقالت أم عمارة [٣] (وكانت ممن حضر خيبر) : لقد وجدنا فى حصن الصعب بن معاذ من الطعام ، ما كنت أظن أنه لا يكون بخيبر ، جعل المسلمون يأكلون مقامهم شهراً وأكثر ، من ذلك الحصن ، فيعلفون دوابهم ، مايُمنَعُ أحد منهم ، ولم يكن فيه خمس وأخرج من البزوز شىء كثير يباع فى المقسم ، ووجد فيه خرز من خرز اليهود ، فقيل لها : فمن الذى يشترى ذلك فى المقسم ؟ قالت : المسلمون واليهود الذين كانوا فى الكتيبة فآمنوا ، ومن حضر من الأعراب ، فكل هؤلاء يشترى ، فأما من يشترى من المسلمين ، فإنما يحاسب به من المغنم .

وقال الواقدى أيضاً : لما نظر عُيينة بن حصن ، إلى حصن الصعب بن معاذ ، والمسلمون ينقلون منه الطعام والعلف والبز قال : ماأحد يعلف لنا دوابنا ويطعمنا من هذا الطعام ، فقد كان أهله كراماً فشتمه المسلمون [٤] وقالوا : لك الذى جعل لك رسول الله ﷺ ، ذو الرقيبة [٥] فأسكت .

(١) الزقاق : جمع زق وهى أوعية الخمر خاصة .

(٢) خفقه بالسيف ونحوه : ضربه ضرباً خفيفاً .

(٣) أم عمارة ، اسمها نسيبة بنت كعب كانت لها أدوار بارزة فى الدفاع عن رسول الله يوم أحد ، انظر ترجمتها فى كتابنا (غزوة أحد) .

(٤) أشرنا فيما مضى إلى أن النبى ﷺ عرض على عيينة بن حصن (قبل الهجوم) نصف ثمار خيبر شريطة أن يلتزم وغطفان قومه جانب الحياد ، غير أن عيينة رفض هذا العرض ، وأصر على مساندة يهود خيبر فتحرك بأربعة آلاف مقاتل من حيفاء فى نجد لمناصرة اليهود ، ولكنه وصل متأخراً حيث وجد المسلمون قد استولوا على خيبر ، فأكلت قلبه الحسرة .

(٥) ذو الرقيبة : جبل مطل على خيبر ، وكان ذكر إعطائه لعيينة سخرية به .

رجحان كفة المسلمين :

وهكذا (وبسقوط حصن ناعم وحصن الصعب فى أيدى المسلمين) ظهر رجحان كفة المسلمين فى المعركة ، وبدأ اليأس والجزع يتسرَّبان إلى قلوب اليهود ، وأخذت حالتهم المعنوية فى الضعف ، بعد أن كانوا لا يتصورّون أن قواتهم (وهى أكثر من عشرة آلاف مقاتل) ستأخذ فى التقهقر أمام جيش الإسلام الذى لا يزيد عدده على ألف وأربعمائة مقاتل ، مكشوفين فى العراء ، أمام أبراج اليهود المشحونة بآلاف الرماة الذين لا يجيد أحد الرمى بالنبل مثلهم ، كما شهد بذلك الحباب بن المنذر .

لقد كان حصن ناعم (حصن أشجع رجالات اليهود وهم من أسرة مرحب الحميريين المتهودِّين) ، وحصن الصعب بن معاذ يعتبران أقوى خطوط الدفاع اليهودية الأمامية التى كانوا يعلقون على مناعتها وبسالة الرجال المرابطين وراء أسوارهما أعظم الآمال فى صدّ هجمات الجيش النبوى ، الذى ما كان قادة اليهود يشكون لحظة ، بأن هذا الجيش سيطول به المقام أمام أسوار هذين الحصنين دون أن يتمكن من اقتحامهما ، الأمر الذى - كما كان يهود خيبر يتصورون - يضطره للعودة من حيث أتى دون أن يحقق أى شىء من أهدافه .. ولكن الذى حدث كان مفاجأة مذهلة لليهود وأنصارهم ، حيث تمكن الجيش الإسلامى من اقتحام هذين الحصنين الذين كان اقتحامهما بداية نهاية مقاومة اليهود فى خيبر .

فرقة تطهير منطقة النطاة :

وتدل تقارير المؤرخين على أن هناك حصوناً أخرى فى النطاة (غير حصنى ناعم والصعب) إلا أن هذه الحصون ليست ذات أهمية من الناحية العسكرية .

ولهذا فإن قيادة الجيش الإسلامى لم تكلّف نفسها بضرب الحصار على هذه الحصون ، أو مهاجمتها ، لأن تحرّيات استخبارات الجيش النبوى أكدت أنه ليس بحصون النطاة (ماعدا حصن ناعم وحصن الصعب بن معاذ وقلعة الزبير) ما يخشى منه على الجيش الإسلامى ، حيث اتضح أن هذه

الحصون خالية تقريباً من المقاتلين اليهود ، ولم يكن بها تحصينات حربية تذكر .

ومع ذلك فإن النبى القائد ﷺ قد أمر (بعد احتلال حصنى ناعم والصعب) وحدة من الجيش النبوى بالبقاء فى منطقة النطاة للتفتيش فى هذه الحصون وتعقب من يمكن أن يكون مختبئاً من المسلحين اليهود فى هذه الحصون ، ثم القضاء عليهم .

لأنه – كما يظهر – بلغه أن بعضاً من محاربى اليهود لا يزالون مختفين فى بعض حصون النطاة .

قال الواقدى : وتحوّلت اليهود من حصن ناعم ومن حصن الصعب بن معاذ ، ومن كل حصون النطاة إلى حصن يقال له : قلعة الزبير .

فزحف رسول الله ﷺ إليهم والمسلمون ، فحاصرهم ، وغلّقوا عليهم حصنهم ، وهو حصن منيع ، وإنما هو فى رأس قلعة ، لاتقدر عليه الخيل ولا الرجال لصعوبته وامتناعه : (وبقيت فى حصون النطاة بقايا ، لاذكر لهم فى بعض حصون النطاة ، الرجل والرجلان ، فجعل رسول الله ﷺ بإزائهم رجالًا يحرسونهم ، لا يطلع أحد عليهم إلا قتلوه) (١) .

فتح قلعة الزبير

وبعد أن استولى المسلمون على حصن الصعب بن معاذ – وهو الحصن الثانى من حصون النطاة – تحوّل اليهود إلى الحصن المسمى (بقلعة الزبير) وهوالحصن الثالث من حصون النطاة الواقعة فى الشطر الأول من مدينة خيبر .

وقلعة الزبير حصن منيع جداً يقع على قمة جبل عالية صعبة المسالك وحسب خطة انسحاب اليهود جعلوا من قلعة الزبير خط دفاعهم الثالث .

فانتقلوا إلى هذا الحصن بعد أن فقدوا (حصن الصعب بن معاذ) .

وقد تحصّن اليهود فى (قلعة الزبير المنيعة) واستعدوا فيه لقتال المسلمين ، فشحنوا أبراج القلعة بالمقاتلين ، ووضعوا كتائب رماة النبل فى مواضع

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٦٦ .

تشرف على قوات المسلمين التى كانت قد تحولت بدورها وضربت الحصار على اليهود فى قلعة الزبير بعد احتلال حصن الصعب .

صعوبة اقتحام الحصن :

قام المسلمون بعدة محاولات لاقتحام قلعة الزبير وفتحها ، ولكنهم لم يتمكنوا وذلك لمناعة هذا الحصن ووعورة المسالك المؤدية إليه ولوقوع هذه المسالك مكشوفة تحت مرمى سهام اليهود .

ومن جهة أخرى لم يقم اليهود أول الأمر بفتح أبواب الحصن لمهاجمة المسلمين أو طلب مبارزتهم كما فعلوا أثناء حصار حصن (ناعم) وحصن (الصعب بن معاذ) .

ويظهر أن ذلك راجع إلى اطمئنانهم إلى العلوّ الشاهق الذى يقع عليه هذا الحصن وإلى أن المسلمين لذلك لن يقدروا على اقتحامه لصعوبة الوصول إليه وفتحه بقوة السلاح .

إجبار اليهود على القتال خارج الحصن :

وكان المسلمون لا يرغبون فى إطالة مدة الحصار على الحصن ، بل يتوقون للدخول مع اليهود فى معركة فاصلة خارج الحصن لأنهم جازمون أن النصر سيكون حليفهم فى هذه المعركة .

وبينما المسلمون يتبرَّمون بامتناع اليهود بهذه القلعة المنيعة ويديرون الفكر ويرسمون الخطط التى يمكنهم بها الاستيلاء على قلعة الزبير المستعصية ، إذا بأحد اليهود واسمه (غزّال) يأتى إلى معسكر المسلمين - سراً - ويطلب مقابلة النبى القائد ﷺ .

ولدى اجتماعه بالنبى ﷺ أخبره بأن جيشه لن يقدر على اقتحام هذا الحصن وفتحه بقوة السلاح وأن يهود قلعة الزبير لن يتضرروا بالحصار مهما طال لمناعة الحصن ولكون المدافعين عنه ، لديهم من التموينات الضرورية ما يكفيهم لمدة طويلة جداً .

إلا أن هذا اليهودى (غزّال) أخبر النبى القائد ﷺ بأنه مستعد لأن يدله

على اتباع طريقة تيسِّر لهم فتح قلعة الزبير ، بإجبار اليهود على الخروج مكرهين للقتال ، مقابل أن يؤمِّنه المسلمون على ماله وأهله وولده .. فأعطاه النبى ﷺ الأمان له ولأهله وولده وماله .

وهنا أخبر اليهودى (غزال) النبى ﷺ بأن لليهود الممتنعين بقلعة الزبير منابع من المياه سرية تحت الأرض وخزَّانات قد صممت خصيصاً لأيام الحرب ينزلون إليها أثناء الليل عبر سراديب سرّية تصلها بالقلعة فيأخذون منها حاجتهم من الماء .

وبما أن هذه المنابع واقعة خارج القلعة فإنه بإمكان المسلمين الاستيلاء عليها بسهولة وعندها يجبر اليهود على الاستسلام أو الخروج للقتال بعد أن يقطع المسلمون عنهم الماء ، ثم قاد هذا اليهودى (غزّال) المسلمين إلى منابع المياه المذكورة فاستولوا عليها وقطعوا الماء عن اليهود المتعصمين بقلعة الزبير .

وهنا أسقط فى يد اليهود ورأوا أنه لا بد من اتباع أحد سبيلين : إما الاستسلام للمسلمين ، أو الخروج لمقاتلتهم ، واستعادة منابع المياه منهم أو يموتوا عطشاً .

وقد فضَّلوا مقاتلة المسلمين ففتحوا أبواب الحصن وشنُّوا على المسلمين هجوماً عنيفاً فنشب قتال عنيف بين الفريقين انتهى بانتصار المسلمين الذين تمكنوا من إنزال الهزيمة باليهود ثم اقتحموا القلعة وفتحوها .

قال الواقدى : وتحولت اليهود من حصن ناعم كلها ، ومن حصن الصعب بن معاذ ، ومن كل حصون النطاة ، إلى حصن يقال له : قلعة الزبير [١] ، فزحف رسول الله ﷺ إليهم والمسلمون ، فحاصرهم ، وغلّقوا عليهم حصنهم وهو حصين منيع ، وإنما هو فى رأس قلعة لا تقدر عليه الخيل ولا الرجال ، لصعوبته وامتناعه .

وأقام رسول الله ﷺ على محاصرة الذين فى (قلعة الزبير) ثلاثة أيام ، فجاءه رجل من اليهود يقال له : غزّال ، فقال : يا أبا القاسم ، تؤمنّى على

---

(١) كانت قلعة الزبير هذه آخر حصن من حصون النطاة الحربية التى قاوم فيها اليهود ، انظر إمتاع الأسماع ص ٣١٩ .

أن أدلك على ما تستريح به من أهل النطاة وتخرج إلى أهل الشق [1] ، فإن أهل الشق قد هلكوا منك رعباً ، قال : فأمّنه رسول الله ﷺ على أهله وماله ، فقال اليهودى : إنك لو أقمت شهراً تحاصرهم ما بالوا بك إن لهم شرباً ودبولاً وعيوناً تحت الأرض يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك ، فإن قطعت شربهم اصحروا [2] لك ، فسار رسول الله ﷺ إلى مائهم (الذى دلّه عليه اليهودى غزّال) فقطعه [3] .

إجبار اليهود على القتال :

ولقد حدث ما توقع اليهودى (غزّال) أنه سيحدث إذا ما قطع المسلمون الماء عن قلعة الزبير ، فبمجرد استيلاء النبى ﷺ على منابع المياه وقطعها عن اليهود ، اضطر المدافعون عن الحصن إلى الخروج منه للقتال . وكان يهود النطاة – وأهل قلعة الزبير منهم – أحدّ اليهود وأهل النجدة منهم [4] .

فخرج منه جميع المقاتلين وشنّوا على المسلمين هجوماً عنيفاً ، وقاتلوهم قتالاً شديداً استماتوا فيه محاولين إبعاد المسلمين عن الحصن واستعادة منابع المياه منهم .

ولكن المسلمين ثبتوا لهجوم اليهود فاحتدمت المعركة أمام القلعة ، ثم تحول المسلمون من موقف الدفاع إلى الهجوم ، فشدّوا على اليهود شدة رجل واحد ، فانكشفوا أمامهم ، وتسابق اليهود ليعودوا إلى القلعة ويقفلوا أبوابها للتحصن فيها كما كانوا يفعلون فى معارك حصن ناعم وحصن الصعب .

ولكن المسلمين لم يتركوا لهم الفرصة ليفعلوا ذلك حيث طاردوهم واقتحموا الحصن بعد أن قاتلوا اليهود عند أبوابه ومنعوهم من إغلاقها ثم استولوا على الحصن .

---

(١) الشق : منطقة تقع فى القسم الأول من خيبر .

(٢) أصحر : ظهر وانكشف .

(٣) انظر زاد المعاد ج ٢ ص ٣٣١ ، ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٦٦ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٨ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٥ .

(٤) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٦٧ .

خسائر المسلمين :

وقد فقد المسلمون فى معركة قلعة الزبير عدداً من الشهداء [1] كما تكبد اليهود وهم يدافعون عن القلعة عشرة من القتلى [2] إلا أن أحداً من المؤرخين لم يتحدث عن مبلغ الغنائم التى لا شك أنها وقعت فى أيدى المسلمين عند احتلالهم لقلعة الزبير .

فتح حصن أبى

ذكرنا فيما مضى من هذا الفصل أن مدينة خيبر تتكون من قسمين :

القسم الأول : تقع فيه خمسة حصون منيعة تحصَّن فيها اليهود وجعلوا منها خط الدفاع الأول عن خيبر وشحنوها بالآلاف من المقاتلين لمقاومة هجوم المسلمين وهى :

١ - حصن ناعم ، فتحه المسلمون بقيادة على بن أبى طالب .

٢ - حصن الصعب بن معاذ ، وقد فتحه المسلمون بقيادة الحباب بن المنذر .

٣ - وحصن أو قلعة (الزبير) ولم أعثر فيما بين يدى من مصادر على اسم القائد الذى تولى قيادة المسلمين عند فتحه .

وهذه الحصون الثلاثة يقال لها حصون (النطاة) لأنها تقع فى منطقة تسمّى بهذا الاسم [3] .

أما الحصنان الآخران فهما :

١ - حصن (أبىّ) .

٢ - حصن البزاة .

وهذان الحصنان يقعان فى منطقة يقال لها (الشق) ولذلك يقال لهما حصنا الشق ، وقد افتتحهما المسلمون عنوة بعد قتال ضار عنيف كما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٨ .

(٢) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٦٧ .

(٣) انظر : إمتاع الأسماع للمقريزى ص ٣١٩ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٨ والسيرة الحلبية ج ص ١٦٥ .

وذكر المؤرخون أن منطقة (الشق) بها حصون كثيرة أخرى لليهود [1] ولكن هؤلاء المؤرخين لم يذكروا منها - فيما بلغنى - سوى هذين الحصنين (حصن أبىّ وحصن البزاة)، ويظهر أن ذلك راجع إلى أن المسلمين استولوا على حصون الشق كلها (ما عدا حصن أُبى وحصن البزاة) بدون قتال الأمر الذى جعل المؤرخين يكتفون بالإشارة إلى هذه الحصون فقط.

وكل من حصون النطاة وحصون الشق تقع كما قلنا فى القسم الأول من مدينة خيبر وتمثل خط الدفاع الأول والأهم عن هذه المدينة، حيث دارت أعنف المعارك بين المسلمين واليهود.

تحويل المعسكر النبوى إلى مكانه الأول:

ذكرنا فيما مضى من هذا الفصل (وفى بداية الحديث عن معارك خيبر): أن النبى ﷺ عند بدء القتال قد عسكر بجيشه فى أعلى النطاة، فجعل مقر قيادته فى منطقة تقع بين حصون النطاة وحصون الشق [2]، فصار جيشه لذلك عرضة لأن يباغته اليهود فى أية لحظة وخاصة أثناء الليل، وذلك لكونه عسكر بجيشه بين سلسلة من حصون منطقتى النطاة والشق [3]، وفى موقع تكتنفه أحراش النخيل التى تُسهّل لوحدات من الجيش اليهودى أن تتسلل من حصونهم وتهاجم المسلمين ليلًا بسهولة، والهجوم الليلى هو الذى يسمّونه بالبيات.

الأمر الذى حمل الخبير العسكرى الشهير الحباب بن المنذر - كما تقدم - على أن ينصح النبى ﷺ ويقترح عليه تغيير مقر قيادته ونقل معسكره من هذه المنطقة بعيداً عن حصون اليهود قائلًا: (يا رسول الله: دنوت من الحصون ونزلت بين ظهرى النخل والنّز مع أن أهل النطاة لى بهم

---

(1) انظر مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٦٧ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٨ وإمتاع الأسماع ص ٣١٩.

(2) انظر مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٤١ - ٦٤٢.

(3) النطاة والشق بهما سلسلة من القلاع الحربية لليهود وفيهما (فقط) دارت أعنف المعارك التى بها تقرر مصير اليهود.

معرفة ليس قوم أبعد مدى سهم منهم ولا أعذل رمية منهم ، وهم مرتفعون علينا ، وهو أسرع لانحطاط نبلهم مع أنه لا أمن من بياتهم (أى عملياتهم الهجومية فى الليل) يدخلون فى خَمَر النخل تحوّل يارسول الله إلى موضع برئ من النز ومن الوباء ، نجعل الحَرَّة بيننا وبينهم حتى لا ينالنا نبلهم) .

وكان المكان الذى عسكر فيه النبى ﷺ بجيشه بين الشق والنطاة (أول نزوله خيبر) يقال له : (المنزلة) [1] - وكما تقدم تفصيله فى هذا الفصل عمل النبى ﷺ بنصيحة الحباب بن المنذر واتبع مشورته ، فتحول بعسكره من المنزلة (أعلى النطاة بينها وبين الشق) إلى وادى الرجيع فجعل فيه معسكر جيشه ومقر قيادته ، وصار من هذا الوادى يجرّد حملاته العسكرية ضد اليهود - ومازال كذلك - حتى تمكنت قواته من السيطرة على جميع حصون النطاة وخاصة الحصون الحربية القوية الرئيسية الثلاثة (حصن ناعم ، وحصن الصعب بن معاذ ، وحصن الزبير) .

وباستيلاء الجيش النبوى على حصون هذه المنطقة (النطاة) انتقل النبى ﷺ بجيشه من وادى الرجيع (أسفل النطاة) إلى أعلاها ، وهناك وفى المكان الأول الذى اتخذ منه معسكراً لجيشه يوماً واحداً فقط (أول نزوله خيبر) .. هناك فى (المنزلة) عسكر بجيشه للمرة الثانية ، ليدير عملياته الهجومية ضد اليهود فى حصون الشق ، الواقعة فى القسم المتبقى من الشطر الأول من مدينة خيبر .

وكان سبب انتقاله إلى (المنزلة) بين حصون النطاة والشق (المكان الذى اضطر بناءً على مشورة الحباب بن المنذر إلى التخلّى عنه فى بداية الحرب) هو أن جيشه (بعد سيطرته على قلاع النطاة) لم يعد واقعاً بين نارين كما كان عندما اتخذ من هذه المنطقة أول معسكر لجيشه ، فى وقت كانت فيه حصون النطاة المنيعة لا تزال فى أيدى اليهود الذين يعتبرون أشجع يهود

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٤٣ .

خيبر [1] . وأشدّهم ضراوة فى القتال [2] . فهذه الحصون أصبحت تحت سيطرة قوات المسلمين ، وبهذا أمن النبى ﷺ على نفسه وعلى جيشه من خطر بيات اليهود «هجماتهم الليلية المباغتة» ووقع سهامهم الحادة التى كانت (عندما كانت حصون النطاة العالية بأيديهم) تخالط المسلمين فى معسكرهم وتحدث الإصابات بينهم ، حيث أصيب بسهام هؤلاء اليهود فى اليوم الأول من القتال خمسون من المسلمين بجراح [3] . وهكذا صار ظهر الجيش النبوى مأموناً بعد أن تخلىّ اليهود عن قلعة الزبير وهى آخر قلعة حربية هامة من قلاع النطاة .

قال أهل السِّير والمغازى : فلما فرغ رسول الله ﷺ من النطاة أمر بالانتقال ، والعسكر أن يحوّل من منزله بالرجيع إلى مكانه الأول (بالمنزلة) ، وأمن رسول الله ﷺ من البيات ومن حرب اليهود (أى أهل النطاة) وما يخاف منهم ، لأن أهل النطاة كانوا أحدَّ اليهود وأهل النجدة منهم [4].

انتقال اليهود إلى حصون الشق :

وبعد أن فقد اليهود حصون وقلاع النطاة ، وخسروا كبار قادتهم فى معارك النطاة الضارية ، تحوّلت فلولهم المدحورة إلى قلاع الشق .

وقد تمركزت قواتهم الرئيسية فى حصن أمامى يقال له : (قلعة أُبىّ) ، وتحصّنوا فى هذه القلعة استعداداً لمقاومة جيش الإسلام الذى كان يتعقبهم فى زحفه .

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٦٧ .

(٢) مما يؤكد أن يهود النطاة هم أهل النجدة والشجاعة والبأس بين يهود خيبر وأشدهم ضراوة فى القتال والصبر على الحرب ، هو أن حصون النطاة الرئيسية الثلاثة لم يسلمها اليهود للمسلمين إلا بعد أن لقى جميع قادة اليهود ورؤساء أركان حربهم مصارعهم بسيوف المسلمين مبارزة (مثل القادة : مرحب وياسر وأسير وعامر والحارث أبى زينب ويوشع وسلام بن مشكم الذين جميعهم (ما عدا سلام بن مشكم) لاقوا حتفهم فى ساحة الميدان مبارزة .

(٣) إمتاع الأسماع ص ٣١٢ .

(٤) الواقدى ج ٢ ص ٦٦٧ .

ضرب الحصار على القلعة :

وكانت (قلعة أُبىّ) قلعة منيعة للغاية تقع على قُلَّة جبل من الصعب جداً اقتحامها لوعورة المسالك إليها .. ولكنها على كل حال ليست أحصن ولا أمنع من قلاع النطاة التى اقتحمها المسلمون بعد مراحل من أهوال القتال الضارى العنيف .

ولهذا لم يترددوا فى مهاجمتها بسرعة ، فقد قام الجيش النبوى بضرب الحصار على هذه القلعة ، تمهيداً لاقتحامها ، وكان النبى ﷺ بنفسه يدير دفة القتال ويجرد الحملات على القلعة المذكورة من مكان مرتفع فى المنزلة يقال له : (سموان) (١) .

شراسة اليهود فى المقاومة :

وقد استبسل اليهود فى القتال ، فقاوموا هجمات المسلمين بضراوة عهدها المسلمون منهم فى معارك النطاة ، فقد استماتوا فى الدفاع عن (قلعة أُبىّ) ، وقاتلوا المسلمين أشدّ قتال (٢) .

وكان قائد وحدات المسلمين التى تولّت مهاجمة حصن (أُبىّ) هو أبا دجانة الأنصارى الفارس المشهور (٣) .

اليهود يفتحون أبواب القلعة للمبارزة :

وقد بلغت الضراوة باليهود فى القتال للدفاع عن قلعة (أُبىّ) إلى أن يفتحوا أبواب هذه القلعة مستهينين بالموت ومعتدِّين بأنفسهم ومتَحدِّين قوات المسلمين المحيطة بهم ، وذلك بدعوة فرسان هؤلاء اليهود ، المسلمين إلى المبارزة خارج القلعة .

مصرع قائدين يهوديين :

فقد خرج من قلعة (أُبىّ) أحد فرسانهم يقال له : (عزول) وجال

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٨ .

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٥ .

(٣) انظر قصص بطولة أبى دجانة فى كتابنا (غزوة أحد) .

بفرسه أمام أسوار القلعة طالباً المبارزة .

فبرز له من صفوف المسلمين الحباب بن المنذر الأنصارى ، وبعد أن تجاولا ساعة حمل الحباب بن المنذر على الفارس اليهودى (عزول) فقطع يده اليمنى ففرّ هارباً إلى القلعة ، إلا أن الحباب طارده حتى لحق به قبل أن يدخل القلعة فقطع رجله ثم قضى عليه .

ثم عاد الحباب إلى صفوف المسلمين ، وعقب مصرع القائد اليهودى (عزول) برز فارس يهودى آخر (لم يذكر المؤرخون اسمه) وصاح خارج القلعة طالباً من المسلمين المبارزة ، فبرز إليه رجل من المسلمين فقتله اليهودى فى الحال .

فاستبدّت الغطرسة بهذا الفارس اليهودى ، فظل مكانه يجول بفرسه طالباً المبارزة ، فأجابه إليها الفارس الأنصارى الشهير (أبو دجانة سمّاك بن خرشة) ، فحمل كل منهما على صاحبه ، وظلا يتعاركان بضراوة حتى تمكن أبو دجانة من قتل الفارس اليهودى المذكور .

إحجام اليهود عن المبارزة وافتتاح القلعة :

وبعد أن قتل القائدان اليهوديان أمام أبواب قلعة (أُبىّ) دبّ الرعب فى قلوب بقية اليهود فى القلعة فأحجموا عن المبارزة ، ثم أغلقوا أبواب القلعة ، محاولين الاعتصام بها والدفاع عنها ومقاتلة المسلمين من وراء أسوارها ، ولكن قائد وحدات المسلمين المتقدمة (أبا دجانة الأنصارى) لم يترك الفرصة لليهود ليفعلوا ذلك ، فقد أمر وحداته بمهاجمة اليهود بسرعة ، فشنّ جند الإسلام هجوماً خاطفاً على القلعة ، يتقدمهم قائدهم أبو دجانة .

وقد قاوم اليهود المسلمين مقاومة شديدة ، فدار حول القلعة قتال ضارٍ عنيف بين الفريقين ، ولكن مقاومة اليهود - بالرغم من ضراوتها - كان مصيرها فى النهاية الانهيار ، حيث انهزم هؤلاء اليهود مقتحمين أسوار القلعة هرباً فى كل ناحية ، فاحتل المسلمون القلعة واستولوا على كل ما فيها من المؤن والأسلحة والمواشى ، ولم يذكر أحد من المؤرخين أنه قد وقع فى أيديهم أسرى من يهود هذه القلعة ، الذين التجأ الباقون منهم على قيد الحياة

إلى حصن النزار ، وهو الحصن الثانى من حصون الشق الذى قاوم اليهود المسلمين فيه مقاومة عنيفة واعتصموا به حتى قرر النبى ﷺ أن ينصب على هذا الحصن آلات المنجنيق لتدميره كما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

قال الواقدى : حدثنى موسى بن عمر الحارثى ، عن أبى عفير محمد بن سهل بن أبى حثمة ، قال : لما تحوّل رسول الله ﷺ إلى الشق ، وبه حصون ذات عدد ، كان أول حصن بدأ منها حصن أُبى ، فقام رسول الله ﷺ على قلعة يقال لها : (سمران) [1] فقاتل عليها أهل الحصن قتالًا شديداً ، وخرج رجل من اليهود يقال له غزّال [2] فدعا إلى البراز ، فبرز له الحباب بن المنذر فاختلفا ضربات ، ثم حمل عليه الحباب ، فقطع يده اليمنى من نصف الذراع ، فوقع السيف من يد غزّال ، فكان أعزل ، ورجع منهزماً فوقع ، فذفف عليه ، وخرج آخر فصاح : من يبارز ؟ فبرز إليه رجل من المسلمين من آل جحشى ، فقُتِلَ الجحشى ، وقام مكانه يدعو إلى البراز ، ويبرز له أبو دجانة قد عصب رأسه بعصابة حمراء فوق المِغفر يختال فى مشيته ، فبدره أبو دجانة فضربه فقطع رجليه ، ثم ذفف عليه وأخذ سلبه ، درعه وسيفه ، فجاء به إلى النبى ﷺ فنفله رسول الله ﷺ ذلك ، وأحجموا عن البراز ، فكبّر المسلمون ، ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه ، يتقدمهم أبو دجانة ، فوجدوا فيه أثاثاً ومتاعاً وغنماً وطعاماً ، وهرب من كان فيه من المقاتلة ، وتقحّموا الجدر كأنهم الظباء [3] حتى صاروا إلى حصن النزار [4] بالشق ، وجعل يأتى من بقى من قلل النطاة إلى حصن النّزار فغلقوه وامتنعوا فيه أشد الامتناع [5] .

---

(١) فى البداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٨ (سموان) .
(٢) فى السيرة الحلبية ج ٢ (ص) ... (غزوال) .
(٣) فى البداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٨ : (كأنهم الضباب) .
(٤) فى البداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٨ (البزاة) .
(٥) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٦٧ — ٦٦٨ تحقيق الدكتور مرسدن جونس ونشر جامعة أكسفورد وطبعة دار المعارف المصرية .

فتح حصن النزار

كان حصن (النزار) هو الحصن الثانى من حصون (الشق) والحصن الخامس والأخير من حصون القسم الأول من مدينة خيبر ، والتى تحصّن فيها اليهود وقاتلوا المسلمين دفاعاً عن كل حصن منها قتالًا عنيفاً ضارياً كما تقدم تفصيله .

أمنع حصن فى خيبر :

وكان آخر أمل لليهود معقوداً على حصن النّزار لأنه كان أمنع وأحصن وأقوى حصن فى خيبر على الإطلاق (١) ولذلك كان قادة فلول اليهود المنهزمة من النطاة والشق ، بل ويهود الشطر الثانى من مدينة خيبر (جماعة بنى أبى الحقيق من بنى النضير) يعتقدون أن المسلمين ستعجز وحداتهم عن اقتحام هذا الحصن لمناعته وقوة تحصيناته .

النساء والذرية فى حصن النزار :

وقد كان اليهود فى جميع الحصون الأربعة التى قاتلوا المسلمين منها فى النطاة والشق لا يسمحون للنساء والذرية بالبقاء معهم فى هذه الحصون الأربعة وإنما يجعلونها مناطق حربية محظور على غير المقاتلين البقاء فيها ، وذلك خوفاً من أن يقع النساء والذرية سبايا فى أيدى المسلمين (٢) ، كان قادة اليهود (بالرغم من قوة هذه الحصون الأربعة) غير واثقين من قدرتها على الصمود طويلًا أمام هجمات المسلمين ، ولهذا جرّدوها للمقاتلين فقط وأجلوا عنها النساء والصبيان ، ولهذا لم يقع أحد من النساء والذرية فى قبضة جيش الإسلام عند استيلائه على هذه الحصون الأربعة (٣) .

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٦٩ .

(٢) انظر أوسع التفاصيل عن وجهة نظر الإسلام فى إباحته إسترقاق النساء والذرية فى حالة الحرب ، وأن هذا العمل ليس أكثر من عمل حربى مقابل لا مناص للمسلمين من القيام به إزاء أعدائهم الذين يستبيحون (فى نفس الوقت) استرقاق وسبى نساء وأطفال المسلمين إذا ما وقعوا فى قبضتهم . أنظر كل هذه التفاصيل فى الفصل الرابع من كتابنا (غزوة بنى قريظة) ص ٢٨٣ تحت عنوان (الإسلام والرق) .

(٣) أنظر مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٦٩ .

ولكن هؤلاء اليهود لشدة ثقتهم بمناعة وحصانة وقوة حصن النزار ولكونهم على ما يشبه اليقين بأن قوات المسلمين ستعجز عن فتح هذا الحصن ، وأنها ستضجر من طول المقام محاصرة له دون أن تتمكن من فتحه ، فتعود أدراجها ، أو ستُجبر على الدخول فى مفاوضة مع اليهود وهم فى وضع من القوة يجعلهم يحصلون على شروط أفضل فى صلح يعقدونه مع المسلمين .. من أجل هذا كله شحن اليهود (حصن النزار) بأفضل ما لديهم من المحاربين ، ثم جمعوا فى هذا الحصن النساء والذرية وكانوا حوالى ألفين [1] ثم تحصنوا فى هذا الحصن أشد التحصن وامتنعوا فيه أشد الامتناع ، وصاروا يدافعون عنه دفاع المستميت ، لأنهم يدركون تمام الإدراك أن سقوط هذا الحصن فى أيدى المسلمين يعنى سقوط الشطر الأول والأهم من مدينة خيبر ، وبالتالى يعنى انهيار المقاومة اليهودية انهياراً كاملاً ، قد يجعلهم غير قادرين على الدفاع عن الشطر الثانى من المدينة الذى لم يكن مستوى أهله كمستوى يهود الشق والنطاة من حيث الشجاعة والنجدة والصبر على القتال ، وقد كان قادة وزعماء اليهود فى الشطر الثانى من خيبر يعرفون هذا ، وقد صرح به أحد قادتهم (كنانة بن أبى الحقيق النضرى) حيث قال (عند سقوط آخر حصن من حصون النطاة والشق فى أيدى المسلمين) : قد فرغ محمد من النطاة وليس أحد هاهنا يقاتل ، قد قتلت يهود حيث قتل أهل النطاة [2] .

ضرب الحصار على حصن النزار :

قال ابن كثير فى البداية والنهاية : (وهرب من كان فى حصن (أُبىّ) من المقاتلة وتقحموا الجُدُر وكأنهم الضباب ، حتى صاروا إلى حصن البزاة (يقصد حصن النزار) بالشق ، وتمنّعوا أشد الامتناع اهـ . وكان أهل حصن (النزار) أشد أهل الشق قتالًا [3] .

---

(١) إمتاع الأسماع ص ٣١٨ .
(٢) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٧٤ .
(٣) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٦٨ .

إخلاء جميع حصون الشق ما عدا (النزار) :

وفى منطقة الشق كانت حصون كثيرة ، ولكن يظهر أن اليهود أخلوها وتجمّعوا كلّهم فى حصن (النزار) لمناعته وقوة تحصينه ، ثم هربوا جميعاً (بعد سقوط حصن النزار) إلى حصون الكتيبة فى الشطر الثانى من خيبر [1] .

الهجوم على حصن النزار :

وبعد أن سقطت قلعة (أُبىّ) - كما تقدم - وانهزم المدافعون عنها إلى (حصن النزار) سارع المسلمون إلى مطاردتهم فلم يتركوا لهم فرصة يستريحون فيها ، بل سارعوا إلى ضرب الخناق عليهم بقيادة النبى الأعظم ﷺ ، وصاروا يضغطون عليهم بعنف ليستسلموا .

مقاومة اليهود العنيفة :

ولكن اليهود قاوموا المسلمين مقاومة عنيدة ، إلا أنهم بالرغم من شدة مقاومتهم العنيدة لم يخرجوا من حصن (النزار) للاشتباك مع قوات المسلمين بالهجوم عليها ، ولم يطلب فرسانُهم المبارزة كما كانوا يفعلون أثناء محاصرة المسلمين لهم فى حصون (ناعم والصعب بن معاذ والزبير وأُبىّ) فى النطاة والشق .

وكل ما فعله هؤلاء اليهود فى حصن (النزار) هو أنهم شحنوا أبراجه ومسالحه الأخرى بالمقاتلة (وخاصة رماة النبل) واعتصموا به وصاروا يمطرون المسلمين بسيول من نبالهم ، وكانوا مهرة فى الرمى ، كما صاروا يسلطون جنادل الحجارة على المسلمين من قلل الحصن الذى يقع على جبل مرتفع منيع [2] بغية إبعادهم عن أسواره .

---

(١) انظر مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٦٩ .
(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٥ ، وصاحب السيرة الحلبية يسمى حصن النزار : (حصن البرىء) ويظهر أنه تصحيف من النساخ .

النبى يُجرح بنبال اليهود :

وكان المسلمون يردون على رمى اليهود برمى شديد مثله بالنبال ، إلا أن نبال اليهود كانت أشد فعالية فى جند الإسلام وذلك لكون اليهود يسلطونها من أبراج قلعة (النزار) العالية التى يعسكر المسلمون تحتها .

وكان النبى ﷺ يشترك مع المسلمين فى قذف اليهود بالنبال أثناء الترامى بالسهام ، ويظهر أن رماة اليهود كانوا يركّزون رمْىَ سهامهم الغزيرة بصفة خاصة على الموقع الذى يرابط فيه النبى القائد ﷺ حول الحصن المحصور ، لذلك جرِحَ النبى ﷺ نتيجة إصابته ببعض سهام اليهود ، كما أصابت بعض نبال اليهود ثيابه فمزقتها وهو يدير العمليات ضدهم [١] .

نصب المنجنيق على الحصن :

ويدل سياق المؤرخين على أن يهود قلعة (النزار) قد صمدوا طويلًا ، وصدُّوا كل المحاولات التى قامت بها وحدات من مشاة الجيش النبوى لاقتحام الحصن وفتحه بقوة السلاح ، وذلك راجع إلى تحصين قلعة النزار ووعورة الوصول إليها حيث تقع على أعلى قمة جبل ، ثم كثرة المدافعين عنها وشدة تيقظهم ، وعنادهم فى المقاومة . الأمر الذى جعل المسلمين يضيقون من طول المقام حول الحصن محاصرين بدون نتيجة .

لذلك قرر النبى القائد ﷺ استخدام آلات التدمير لضرب أبراج الحصن وأسواره لتدميرها وفتح ثغرات كبيرة فيها ليتمكن مشاة المسلمين من اقتحام الحصن عن طريقها ، ولم يكن هناك مجال للخيل فى عمليات الهجوم على الحصن لعدم وجود أى طريق تقدر الخيل على سلوكه ولذلك كانت هجمات المسلمين مقتصرة على وحدات من المشاة .

وكان المسلمون قد غنموا فى حصن الصعب بن معاذ فى النطاة بعض المنجنيقات ، وهى الآلات الوحيدة التى تستخدم فى ذلك الزمن لتدمير الحصون كما غنموا بعض الدبابات التى تحمى صفايحها الحديدية المشاة أثناء

(١) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٥ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٨ ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٦٨ .

زحفهم على القلاع المنيعة من وقع نبال العدو .

وعندما استعصى حصن النزار على قوات المسلمين التى عجزت عن اقتحامه ، أمر النبى ﷺ بنصب آلات المنجنيق [1] لتدمير الحصن وإجبار اليهود إما على الاستسلام أو الانسحاب .

ومع تحدث بعض المؤرخين عن قصة نصب النبى ﷺ آلات المنجنيق على حصن النزار بعد أن استعصى فتحه ، فإن أحداً منهم لم يذكر هل قذف النبى ﷺ هذا الحصن بقذائف هذه الآلات التدميرية أم لا ؟

ولكن القرائن تدل على أنه فعل ذلك ، فقد تمكن المسلمون من اقتحام حصن النزار بعد أن نصبوا المنجنيق عليه ، ولا شك أن هناك قتالاً عنيفاً دار بين المسلمين ويهود حصن النزار داخل الحصن بعد أن فتحت قذائف المنجنيق فى أسوار الحصن ثغرات وأحدثت فيه قذائف اللهب حرائق مكنت المسلمين من الوصول إلى داخل الحصن ، بدليل أن اليهود انهزموا من هذا الحصن شر هزيمة ، بعد أن تركوا للمسلمين غنائم كثيرة ومن بينها ألفان من السبايا من النساء والذرية [2] ، «فرَّ بقية المقاتلة اليهود مذعورين وتركوهم فى حصن النزار» .. فلا شك إذن (وهذا مجرد استنتاج) أن الذى يسَّر للمسلمين افتتاح هذا الحصن المنيع العاتى الحصين هو قذفه بقذائف آلات المنجنيق التى أمر النبى ﷺ بنصبها على ذلك الحصن ، وإلا فكيف تنزل بيهود هذا الحصن العاتى المنيع تلك الهزيمة المدمّرة التى جعلتهم يفرون إلى القسم الثانى من المدينة مذعورين تاركين فى الحصن نساءهم وذراريهم يقعون فى قبضة المسلمين ؟ . كيف تنزل بهم هذه الهزيمة ، وهم الذين صمدوا للحصار وصدّوا كل محاولات المسلمين الهجومية حتى برم المسلمون وضجروا من طول المرابطة حول هذا الحصن ؟ الأمر الذى حدا بالنبى القائد ﷺ إلى أن يأمر بنصب آلات التدمير على الحصن باعتبارها آخر وأقوى سلاح يمكن استخدامه ضد اليهود فى هذا الحصن المنيع

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٥ .

(٢) إمتاع الأسماع ص ٣١٨ .

لإجبارهم على الدخول فى معركة فاصلة كانوا يتحاشون الدخول فيها مع المسلمين . وهناك قرينة أخرى تدل على أن يهود حصن النزار ، لم ينسحبوا من الحصن إلا بعد قتال مرير ضار داخل الحصن ، ذلك أنهم لو انسحبوا من الحصن دونما اشتباك والتحام مع المسلمين (ونتيجة خوفهم فقط من قصف المنجنيق) لتمكنوا من التسلل فى غلس الظلام بنسائهم وأطفالهم ، ولما تركوهم وعددهم يربو على الألفين فى هذا الحصن .

قصة تحتاج إلى تمحيص :

وذكر بعض الإخباريين (١) أن اليهود لما طال صمودهم وقاوموا حصار المسلمين طويلًا ، وأصابت سهامهم بنان النبى ﷺ بجراح ، وهو يقود عملية الحصار ، ويرمى يهود (حصن النزار) بالنبل ، أخذ بيده الكريمة كفاً من الحصى فرمى به حصن النزار المذكور ، حتى رجف وساخ فى الأرض بمن فيه من اليهود ، حتى جاء المسلمون ، وأخذوهم باليد أخذاً .

وهذا يعنى أن اليهود دافعوا عن حصن النزار بشراسة وعناد واستماتة حالت بين المسلمين وبين اقتحام الحصن وافتتاحه بالأساليب الحربية التقليدية ، وأن هذا الحصن (لذلك) إنما فتح بمعجزة حيث ساخ هذا الحصن فى الأرض حتى أصبح أثراً بعد عين ، فسهل على المسلمين أن يقبضوا على جميع من فيه من اليهود بكل سهولة بعد أن حصبه النبى الأعظم ﷺ بكف من الحصى .

ونحن لا نميل إلى الأخذ بهذا الخبر ، لا لأننا ننكر المعجزات التى يكرّم الله بها أنبياءه ، كلا ، فمعجزات الأنبياء ثابتة بالتواتر ، وإنما لأن كل الذين رأيناهم أوردوا هذه القصة لم يذكروا لها أى سند متصل بسلسلة من الثقات كما هى الطريقة المفروض اتباعها عن أهل الحديث ، وخاصة فى نقل مثل هذه المعجزة الخارقة للعادة ، وإنما اكتفى هؤلاء الإخباريون بذكر هذه القصة دونما أى سند .

---

(١) انظر البداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٨ ، السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٥ ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٦٨ .

حصن النزار آخر حصن كان فيه قتال :

قال الواقدى : فلما فتح رسول الله ﷺ حصن النزار بقيت حصون فى الشق ، فهرب أهلها منها حتى انتهوا إلى أهل الكتيبة والوطيح والسلالم ، وكان محمد بن مسلمة يقول : ونظر رسول الله ﷺ إلى حصن النزار فقال : هذا آخر حصون خيبر كان فيه قتال ، لما فتحنا هذا الحصن لم يكن بعده قتال حتى خرج رسول الله ﷺ من خيبر (١) .

كيف صارت صفية اليهودية أما للمؤمنين :

وكان من السبايا اللواتى وقعن فى أيدى المسلمين ، صفية بنت سيد يهود بني النضير (حيى بن أخطب) ألد أعداء النبى ﷺ وزوجة كنانة بن أبى الحقيق سيد خيبر ، وكانت صفية قبلًا ، زوجة لسلّام بن مشكم النضرى ، فطلقها قبل أن يدخل بها كما ذكر ذلك صاحب السيرة الحلبية .

القمر فى حجر صفية :

كانت صفية (وهى تحت كنانة بن أبى الحقيق) رأت فى المنام كأنَّ قمر السماء قد وقع فى حجرها ، فلما قصَّت رؤياها على زوجها كنانة بن أبى الحقيق (ملك خيبر) غضب ثم لطمها على وجهها لطمة شديدة أخضرَّت لها عينها ، ثم قال لها : أتتمنين ملك يثرب (يعنى النبى ﷺ) أن يصير بعلك (٢) .

كيف تزوج النبى صفيّة ؟

بالرغم من إجماع المؤرخين على أن صفيّة قد وقعت من جملة السبايا فى أيدى المسلمين ، فقد اختلفوا فى الطريقة التى بها وقعت سبيّة مع السبايا .. فقد ذكر ابن هشام أن صفية أُخذت من حصن القموص ، حصن زوجها (كنانة بن أبى الحقيق) الواقع فى القسم الثانى من خيبر (٣) .

---

(١) المغازى ج ٢ ص ٦٦٩ .

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٦ ، ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٧٤ وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٦ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٦ .

إلا أن الواقدى ذكر أن صفية وقعت سبيَّة فى أيدى المسلمين فى حصن (النزار) الذى يقع فى الشطر الأول من مدينة خيبر الذى لا يوجد فيه شيء من حصون ابن أبى الحقيق، ويذكر سبب ذلك فيقول: حدثنى عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر، قلت لجعفر بن محمود: كيف صارت صفية فى حصن النزار فى الشق، وحصن آل أبى الحقيق بسلالم (أى فى القسم الثانى) ولم يسب فى حصون النطاة من النساء والذريَّة أحد ولا بالشق، إلا حصن النزار؟.

فقال: إن يهود خيبر أخرجوا النساء والذرّية إلى الكتيبة وفرّغوا حصن النطاة للمقاتلة، فلم يسب أحد منهم إلا من كان فى حصن النزار، صفيّة وابنة عمها ونسيّات معها.. وكان كنانة بن أبى الحقيق قد رأى أن حصن النزار أحصن ما هنالك فأخرجها فى الليلة التى تحوّل رسول الله ﷺ فى صبيحتها إلى الشق حتى أُسرت وبنت عمّها ومن كان معهما من ذرارى اليهود، وبالكتيبة من اليهود ومن نسائهم وذراريهم أكثر من ألفين [١].

وفى مكان آخر قال الواقدى وروى عن صفية نفسها قالت: وجعلت اليهود ذراريها فى الكتيبة وجرّدوا حصون النطاة للمقاتلة، فلما نزل رسول الله ﷺ خيبر وافتتح حصون النطاة ودخل عليٌّ كنانة فقال: قد فرغ محمد من النطاة، وليس ها هنا أحد يقاتل، وقد قُتِلَت اليهود حيث قُتل أهل النطاة وكذبتنا العرب (يعنى غطفان الذين خذلوا اليهود ولم يقاتلوا إلى جانبهم) فحوّلنى إلى حصن النزار بالشق - قال وهو أحصن ما عندنا - فخرج حتى أدخلنى وابنة عمّى ونسيّات معنا، فسبُيتُ فى النزار قبل أن ينتهى النبى ﷺ إلى الكتيبة [٢].

تخيير النبى صفية بين الإسلام والرجوع إلى أهلها اليهود:

وكانت صفية قد وقعت (كما فى صحيح البخارى) فى سهم أحد أصحاب النبى ﷺ وهو دحْية الكَلْبى [٣] فجاء رجل إلى النبى ﷺ فذكر

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٦٩ تحقيق الدكتور مارسدن جونس.

(٢) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٧٤ و ٦٧٥.

(٣) انظر ترجمته فى كتابنا (غزوة بنى قريظة).

له شأنها وقال أعطيت دحية صفيّة سيدة قريظة والنضير ، أنها لا تصلح إلا لك ، فقال : ادعوه بها ، فلما نظر إليها قال : خذ جارية من السبى غيرها ، ففعل ، واصطفاها النبى ﷺ لنفسه حيث تزوجها بعد أن أعتقها (١) .

وبهذا الزواج الاختيارى (٢) أصبحت صفيّة بنت حيى بن أخطب (سيد يهود بنى النضير وألد أعداء النبى ﷺ) إحدى أُمّهات المؤمنين ، تتساوى فى جميع الحقوق مع عائشة بنت أبى بكر الصديق وحفصة بنت عمر بن الخطاب وكل زوجات النبى ﷺ .

تفنيد تهمة خبيثة :

وبهذه المناسبة هنا نقطة لا بد من الإشارة إليها وتوضيحها ، وهى أن حادثة استرجاع النبى ﷺ صفية من دِحْية الكلبى واصطفائها ﷺ لنفسه زوجة قد جعلت بعض مرضى النفوس (وخاصة أعداء الإسلام من اليهود وغيرهم) يتهمون الرسول الأعظم ﷺ بأنه ما استرجع صفيّة وتزوجها إلا بدافع رغبة جسدية .

بينما الحقيقة التى يؤكّدها سياق القصة هى أن الدافع لجعل النبى ﷺ صفية زوجة له أسمى وأشرف من ذلك ، وهو أن صفية بنت ملك وزوجة ملك ، ومثلها لا يوهب كما توهب السبايا الأخريات .

ولهذا استرجعها النبى ﷺ من دِحْية ، مما يدل على الباعث الإنسانى النبيل الذى فيه تكريم لهذه السيدة العظيمة فى قومها ، وذلك حسب القاعدة الإسلامية الشريفة (أكرموا عزيز قوم ذل) .. وليس أكرم لها وأجبر لخاطرها من أن تكون زوجة النبى ﷺ بدلًا من أن تكون مملوكة عند رجل من عامة الناس .

بل إن هناك ما هو أقوى فى الدلالة على أن باعث استرجاع النبى ﷺ لصفية من دحية الكلبى ليس الرغبة الجسدية كما يدَّعى مرضى

---

(١) سمط النجوم العوالى ج ٢ ص ١٦٠ .

(٢) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٨ وإمتاع الأسماع ص ٣٢١ .

النفوس ، وإنما هو أسمى من ذلك وأرفع ، وهو مواساة هذه السيدة العظيمة فى قومها وإعزازها وتكريمها .. الأقوى فى الدلالة على ذلك هو أن النبى ﷺ لما استرجع صفية أعتقها وبعد أن أصبحت حرّة خيَّرها بين أن تعود معززة مكرّمة إلى أهلها اليهود وبين أن تسلم وتكون زوجة للنبى ﷺ طائعة مختارة .

غير أن الله تعالى قذف فى قلبها الإسلام فتخلَّت عن اليهودية باختيارها ، فتزوجها النبى ﷺ فصارت إحدى أُمّهات المؤمنين وكانت من أطيبهن نفساً وأرجحهن عقلاً .

فقد روى الواقدى عن أُبى بن أبى سبرة عن أبى حرملة عن أخته أم عبد الله عن ابنة أبى القين المزنىّ قالت : كنت آلف صفية من بين أزواج النبى ﷺ وكانت تحدثنى عن قومها وما كانت تسمع منهم ثم ذكرت حديثاً طويلاً إلى أن قالت ، فقالت صفية : «فسبُيتُ فى (حصن النزار) [1] قبل أن ينتهى رسول الله ﷺ إلى الكتيبة (أحد الأودية فى الشطر الثانى من خيبر) فأرسل بى إلى رحله ثم جاءنا حين أمسى فدعانى ، فجئت وأنا مقنّعة حييّة فجلست بين يديه فقال : إن أقمت على دينك لم أُكرهك ، وإن اخترت الله ورسوله فهو خير لك . قالت : أختار الله ورسوله والإسلام فأعتقنى رسول الله ﷺ وتزوجنى » [2] .

وعن صفية رضى الله عنها أنها قالت : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وما من أحد أكره إلى منه ، قتل أبى وزوجى وقومى ، فقال : يا صفية أما إنى اعتذر إليك مما صنعت بقومك إن قومك صنعوا كذا وكذا (وأخذ يعدد الأسباب التى حملته على أن يفعل بهم ما فعل) ، قالت صفية : ومازال يعتذر إلى حتى ذهب ذلك من نفسى ، فما قمت من مقعدى ومن الناس أحدٌ أحب إلى منه ﷺ ثم قالت : ما رأيت أحداً قط أحسن خلُقاً من رسول الله ﷺ [3] .

---

(١) حصن النزار آخر حصن افتتحه النبى ﷺ من حصون الشق فى الشطر الأول من خيبر .
(٢) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٧٤ ــ ٦٧٥ تحقيق الدكتور مارسدن جونس .
(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٨ و ١٦٩ .

فلو لم يكن باعث استرجاع صفية من دِحْية الكلبى هو باعث إنسانى شريف ما خيّرها النبى ﷺ ــ بعد أن حررها من رق الأسر ــ بين أن تعود إلى أهلها حرّة معززة مكرمة وبين أن يتزوجها لتكون إحدى أمّهات المؤمنين .

ولو أراد صلى الله عليه وسلم أخذها لنفسه جارية سريّة لفعل ، ولا يمكن أن يجد طاعن أى مجال للطعن فى تصرفه ﷺ لأن قوانين الحرب المتفق عليها بين جميع الشعوب والأمم والتى عمل بها الإسلام وطبقها (كعمل حربى مقابل) (١) فى ذلك العصر تبيح للنبى ﷺ أن يعامل صفية كنوع من الرقيق فيتخذها لنفسه جارية دونما أخذ موافقتها لأنها أسيرة حرب تعتبر مملوكة بموجب قانون الحرب الدولى المعمول به فى ذلك العصر .

ولكن النبى ﷺ تكريماً لهذه السيدة العظيمة فى قومها أبى إلا أن يخصها من بين جميع السبايا بإعطائها مطلق الحرية فى أن تختار أى السبيلين تريد بمحض إرادتها : العودة إلى عشيرتها مع البقاء على دينها أو الدخول فى الإسلام لتكون زوجة لرسول الله ﷺ لا فرق بينها وبين ابنة أبى بكر الصديق فى الحقوق والواجبات ، فاختارت الزواج من رسول الله ﷺ بمحض اختيارها .

وكان النبى ﷺ يبالغ فى إكرام هذه السيدة ويراعى شعورها لعلمه بما هى عليه من حساسية وشعور مرهفْ ، كامرأة عزيزة فى قومها فقدت الوالد والزوج (كلاهما ملك على قومه) .

فقد كانت صفية نفسها تتحدث عن هذه المعاملة النبيلة والمواساة النابعة من أشرف قلب ، فقد قالت : كنت ألقى من أزواج النبى ﷺ ، يفخرن علىّ ، يقلن : ياابنة اليهودى وكنت أرى رسول الله ﷺ يلطف بى ويكرمنى ، فدخل على يوماً وأنا أبكى فقال : مالك ؟ فقلت : أزواجك

---

(١) انظر كتابنا (غزوة بنى قريظة) الفصل الرابع تجد (تحت عنوان : لماذا أباح الإسلام الرق) أوسع التفاصيل لدفع الشبه التى وجهها أعداء الإسلام لموقفه من الرق الحربى .

يفخرن عليّ ويقلن : يا ابنة اليهودى قالت فرأيت رسول الله ﷺ قد غضب ثم قال : إذا قالوا لك أو فاخروك فقولى : أبى هارون وعمّى موسى[1].

وأضاف صاحب كتاب (سمط النجوم العوالى ج ٢ ص ١٦٠) إلى البواعث التى ذكرنا باعثا آخر فقال : إن صفية بنت حيى بن أخطب ، هى بنت ملك وزوجة ملك من ملوك اليهود وليست ممن توهب لِدحية لكثرة من كان من الصحابة مثل دِحية وفوقه ، وقلة من كان فى السبى مثل صفية فى نفاستها ، فلو خصه بها لأمكن تغيير خاطر بعضهم ، فكان من المصلحة العامة ارتجاعها منه فإن فى ذلك رضى للجميع .

أكرموا عزيز قوم ذل :

ثم إننا إذا نظرنا بعين الإنصاف ، وجدنا (من خلال تصرفات سادات المسلمين وقادتهم) أن إكرام العزيز (وخاصة العنصر النسائى) الذى ذلّ بعد عزة وانخفض بعد رفعة ، خلق إسلامى أصيل سار عليه صاحب الرسالة العظمى محمد ﷺ ومن بعده من الخلفاء الراشدين والأئمة والحكام المهتدون .

ولعل من أبرز ما يؤكد تغلغل هذا الخُلُق النبيل فى نفوس الفاتحين المسلمين بعد الرسول الأعظم ﷺ اقتداء به تلك المعاملة النبيلة التى عامل بها الخليفة الفاروق (بتوصية من مستشاره علىّ بن أبى طالب) بنات الملك كسرى الثلاث اللواتى وقعن سبايا فى يد الجيش الإسلامى المنتصر فى بلاد الفرس فى عهد ابن الخطاب .

فقد ذكر المؤرخون أن الجيش الإسلامى بعد إستيلائه على مملكة فارس أحضر إلى المدينة سبايا كثيرات من بنات الفرس ، وكان بينهن ثلاث من بنات الملك كسرى (يزدجرد) فأمر الخليفة الفاروق ببيعهن فى المزاد العلنى من جملة السبايا ، ولكن أمير المؤمنين على بن أبى طالب لفت نظر الخليفة الفاروق إلى أنه ينبغى معاملتهن معاملة خاصة لأنهن بنات ملك حيث

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٧٤ من حديث أبى سيرة عن أبى حرملة عن أخته أم عبد الله عن ابنة القين المزنى عن صفية .

قال : إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السّوقة .

ولما استشاره الفاروق : كيف تكون معاملتهن ؟ قال : يقوّمن ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن .. فاستصوب الفاروق رأى على ، فقوّمن ، فاشتراهن على ثم أعتقهن ، فزوّج إحداهن ابنه الحسين ، وزوّج الثانية محمد ابن أبى بكر الصديق ، وزوّج الثالثة عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وذلك تكريماً لهن وجبراً لخواطرهن ، لأنهن عزيزات ذللن بعد عزة الملك ، وقد سعدن بهذا الزواج سعادة أنستهن مآسى الماضى ، وقد أنجب الحسين بن على من ابنة كسرى ابنه على الملقب زين العابدين رضى الله عنهم أجمعين ، فجميع فروع الدوحة الهاشمية الكريمة بعد على بن الحسين قد أنجبتهم ابنة الملك كسرى ، ولهذا لمّا تجادل هشام بن عبد الملك وزيد بن على بن الحسين حول مطالبة زيد بالخلافة ، قال له هشام : كيف تطمع أن تكون خليفة وأنت ابن أمة ، فأجابه زيد : لقد نال ابن أمة ماهو أعلى من الخلافة : النبوة نالها إسماعيل وهو ابن أمة ، فأفحم هشام ولم يتكلم .

وهكذا يتضح نبل القصد وشرف الغاية فى كل عمل يعمله النبى ﷺ وصحابته الكرام ، كما تنكشف أمام أضواء هذه الحقيقة المشرقة الناصعة خبث نوايا وسوء مقاصد الذين يفسرون تزوج النبى ﷺ من صفية ذلك التفسير المقصود به الطعن فى مقام الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

فانظر كيف أعتق النبى ﷺ صفية بنت ملك اليهود ومنحها مطلق الحرية لأن تبقى على دينها وتعود إلى عشيرتها اليهود وبين أن تدخل فى الإسلام وتكون زوجة له ، ثم انظر كيف أكرم على بن أبى طالب بنات الملك كسرى حيث أعتقهن وزوجهن أبناء أرفع الناس منزلة بعد رسول الله ومن هم (فى نظر بنات كسرى من الناحية الاجتماعية) فى درجة أبناء الملوك (على بن الحسين وعبد الله بن عمر ومحمد بن أبى بكر) كلهم أبناء خلفاء ، والخلفاء من زاوية النظرة الكسروية هم الملوك .

فهل يفهم الحاقدون على الإسلام ونبى الإسلام وخلفاء الإسلام هذه الحقائق المشرقة والمفاسد النبيلة السامية التى يحاولون طمسها بألوان قاتمة كالحة من الشكوك الباغية الظالمة ؟ .

الفصل الرابع

- زحف المسلمين على الشطر الثانى من خيبر .
- فرض الحصار على حصون اليهود فى هذا الشطر .
- استسلام اليهود النهائى فى خيبر .
- اتفاقية الجلاء .
- تحقيق المقام : هل فتح الشطر الثانى من خيبر عنوة أم صلحاً ؟ .
- السماح لليهود بالبقاء فى خيبر لفلاحتها مقابل نصف المحصول .
- محاولة اغتيال النبى ﷺ فى خيبر بعد فتحها .
- عودة مهاجرى الحبشة إلى خيبر بعد فتحها .
- استسلام يهود فدك للمسلمين دون قتال .
- القتال فى وادى القرى بين المسلمين واليهود .
- استسلام يهود وادى القرى .
- يهود تيماء يصالحون المسلمين ويدفعون الجزية .
- كيف تلقى أهل مكة نبأ انتصار المسلمين فى خيبر .
- قتلى الفريقين فى المعركة .
- عودة النبى بجيشه إلى المدينة .

لقد تمت للجيش الإسلامى السيطرة على

خيبر بسقوط قلعة (البزاة) فى أيديهم ، وهى آخر قلعة من القلاع الخمس التى اعتصم بها المحاربون اليهود التى جعلوا منها الواحد بعد الآخر خطوط دفاع رئيسية للدفاع عن خيبر كلها ضد الجيش الإسلامى المهاجم الذى كان يستهدف فى هجومه (بصفة رئيسية) احتلال منطقة خيبر كلها لإنهاء الوجود اليهودى الدخيل الزنيم فى تلك البقعة من الوطن العربى المسلم .

وكما رأينا ، فقد قاتل اليهود عن كل حصن من هذه الحصون الخمسة قتالًا لا يسع المؤرخ المنصف إلا أن يصفه بأنه قتال كان يتسم بالشجاعة والجرأة والاستماتة بل والمغامرة ، رأينا كيف أن المحاربين اليهود كانوا يفتحون أبواب قلاعهم ويتحدون المسلمين طالبين المبارزة بالسيف بل رأينا كيف كانوا يفتحون أبواب حصونهم ويخرجون لملاقاة المسلمين خارج هذه الحصون فيصدون هجماتهم ويُحبطونها مراراً وتكراراً إلى درجة اغتم لها القائد الأعلى النبى ﷺ ، بل لقد بلغت الجرأة والإقدام باليهود المدافعين عن هذه الحصون الخمسة إلى أن يفتحوا أبوابها ويشنوا هجمات عنيفة مضادة يكشفون بها المسلمين ويطاردونهم حتى المقر الذى يرابط فيه القائد الأعلى النبى ﷺ .

الأمر الذى يدل على أن يهود خيبر يختلفون (من حيث الشجاعة والجرأة والصبر على القتال) عن يهود يثرب الذين (بالرغم من كونهم أكثر عدداً من يهود خيبر) لم يثبت (ولا مرة واحدة) أنهم فى نزاعهم المسلح مع المسلمين قد واجهوهم فى أية معركة وجهاً لوجه خارج حصونهم كما فعل يهود خيبر الذين (كما شهد التاريخ) بأن خيبر لم تسقط فى أيدى المسلمين إلا بعد أن سقط جميع قادتها المحاربين قتلى فى ميدان القتال [1] .

---

(١) ذكر بعض المؤرخين ومنهم (ابن هشام) أن يهود خيبر هم عرب أصليون دانوا باليهودية . وقد ذكر ابن إسحاق أن عائلة مرحب التى تولى فرسانها الدفاع عن حصن ناعم يرجع نسبها إلى قبيلة حمير اليمنية .

الزحف على الشطر الثانى من خيبر :

بعد أن خسر اليهود الشطر الأول من مدينة خيبر ، والذى وقع بأكمله فى يد الجيش النبوى ، وبعد أن سقطت فى أيدى جند الإسلام القلاع الخمس التى (قاتل اليهود بشراسة وضراوة عن كل قلعة منها فى النطاة والشق) تحوّل المنهزمون اليهود من هذه الحصون إلى الشطر الثانى من مدينة خيبر والتحقوا بإخوانهم المتحصنين فى القلاع الواقعة فى ذلك الشطر ، وكانت قلاعاً منيعة كثيرة أهمها (القَمُوص والوَطِيح والسلالم) .

وكانت قلعة (القموص) أقوى وأمنع حصون الشطر الثانى من خيبر ، وكانت هذه القلعة الكبيرة الحصينة لأبناء أبى الحُقيق وهم عائلة حُيَىّ بن أخطب ثم من بنى النضير المنفيين من المدينة بسبب محاولتهم الشهيرة التى دبروها لاغتيال النبى ﷺ وهو آمن فى ديارهم ، وحالة عهد وتحالف قائمين بينه وبينهم .

هل فتح الشطر الثانى من خيبر ؛ صلحاً أم عنوة ؟

اختلف الإخباريون الإسلاميون هل تم استيلاء المسلمين على الشطر الثانى من مدينة خيبر عنوة أم صلحاً وبدون قتال ؟

فقد ذكر بعضهم أن الشطر الثانى فتح صلحاً وأن مقاومة اليهود انهارت بعد فقدهم الشطر الأول من المدينة ، فلم يبدوا أية مقاومة بل سارعوا إلى طلب المفاوضة ثم استسلموا للنبى ﷺ على أساس الصلح ، ومن أجل ذلك يقول هذا الفريق إن النبى ﷺ لم يقسم خيبر كلها بين المسلمين وإنما قسم نصفها وأبقى القسم الآخر تحت تصرفه دونما قسمة ليصرفه فى مصالح المسلمين باعتباره فيئاً [(١)] وليس غنيمة وحجتهم ما رواه يحيى بن سعيد عن بشير بن يسار أن رسول الله ﷺ قسم خيبر نصفين : نصفاً له ، ونصفاً للمسلمين [(٢)] .

---

(١) الفئ : هو ما استولى عليه المسلمون فى ظروف الحرب دونما قتال ، والغنيمة : ما استولى عليه المسلمون من أموال العدو بعد قتال .

(٢) زاد المعاد ج ٢ ص ٣٥٢ .

وفريق آخر قال : إن خيبر بشطريها فتحت عنوة ولم يفتح أى شيء منها صلحاً ، وهذا هو الصحيح الذى يدل عليه سياق جمهرة المحدِّثين وأهل السيَر .. فكل حصون اليهود فى خيبر (كما رأيت وكما سترى فيما يأتى إن شاء الله) فتحت بقوة السلاح وعن طريق الإقتحام والإلتحام ماعدا حصنين فى الشطر الثانى من المدينة وهما (الوطيح والسلالم) استسلم أهلهما للمسلمين بعد حصار شديد وتهديد بالضرب بالمنجنيق ، وقد استسلموا مقابل حقن دمائهم وإعفاء نسائهم وذراريهم من السبى ، كما سيأتى تفصيله إن شاء الله ، والاستسلام على هذه الصورة يعتبر استسلام بعد قتال وحصار فيدخل تحت حكم العنوة لا الصلح .

روى أبو داود عن ابن شهاب فقال : بلغنى أن رسول الله ﷺ افتتح خيبر عنوة بعد القتال ونزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال .

قال ابن عبد البر : هذا هو الصحيح فى أرض خيبر ، إنها كانت عنوة كلها مغلوباً عليها ، بخلاف فدك ، فإن رسول الله ﷺ قسم أراضيها على الغانمين لها الموجفين عليها بالخيل والركاب ، وهم أهل الحديبية .

ولم يختلف العلماء : أن أرض خيبر مقسومة وإنما اختلفوا هل تقسم الأرض إذا غنمت البلاد ، أو توقف ؟ .

فقال الكوفيون : الإمام مخير بين قسمتها ، كما فعل رسول الله ﷺ بأرض خيبر ، وبين إيقافها ، كما فعل عمر بسواد العراق ، وقال الشافعى : تقسم الأرض كلها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر ، لأن الأرض غنيمة كسائر أموال الكفار ، وذهب مالك إلى إيقافها اتباعاً لعمر ، لأن الأرض مخصوصة من سائر الغنيمة بما فعل عمر فى جماعة من الصحابة : من إيقافها لمن يأتى بعده من المسلمين .

وروى مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر يقول : « لولا أن يترك آخر الناس لا شيء لهم ما افتتح المسلمون قرية إلا قسمتها سهمانا ، كما قسم رسول الله ﷺ خيبر سهمانا .

وهذا يدل على أن أرض خيبر قسمت كلها سهمانا ، كما قال ابن

إسحاق ، وأما من قال : إن خيبر كان بعضها صلحاً وبعضها عنوة : فقد وهم وغلط ، وإنما دخلت الشبهة بالحصنين اللذين أسلمهما أهلهما فى حقن دمائهم فلما لم يكن أهل دينك الحصنين من الرجال والنساء والذرية مغنومين ، ظن أن ذلك لصلح ، ولعمرى أن ذلك فى الرجال والنساء والذرية كضرب من الصلح ، ولكنهم لم يتركوا أرضهم إلا بالحصار والقتال ، فكان حكم أرضهما ، حكم سائر أرض خيبر ، كلها عنوة ، غنيمة مقسومة بين أهلها ، وربما شبّه على من قال : إن نصف خيبر صلح ، ونصفها عنوة بحديث يحيى بن سعيد عن بشير بن يسار « أن رسول الله ﷺ قسم خيبر نصفين : نصفاً له ، ونصفاً للمسلمين » .

قال أبو عمر (ابن عبد البر) : لو صح هذا لكان معناه : أن النصف له سائر من وقع فى ذلك النصف معه لأنها قسمت على ستة وثلاثين سهماً ، فوقع السهم للنبى ﷺ ، وطائفة معه فى ثمانية عشر سهماً ووقع السهم لسائر الناس فى باقيها وكلهم ممن شهد الحديبية ثم خيبر ، وليست الحصون التى أسلمها أهلها بعد الحصار والقتال صلحاً ، ولو كانت صلحاً لملكها أهلها ، كما يملك أهل الصلح (من الكفار) أرضهم وسائر أموالهم ، فالحق فى هذا ، ما قاله ابن إسحاق ، دون ما قاله موسى بن عقبة وغيره عن ابن شهاب ، هذا آخر كلام أبى عمر (ابن عبد البر) [1] ، قال ابن القيم .

قلت ذكر مالك عن ابن شهاب : أن خيبر كان بعضها عنوة وبعضها صلحاً ، والكتيبة أكثرها عنوة ، وفيها صلح ، قال مالك : والكتيبة (بضم الكاف وفتح التاء) أرض خيبر (أى حقولها الزراعية) وهو أربعون ألف عذق ، وقال مالك : عن الزهرى عن ابن المسيب : « أن رسول الله ﷺ افتتح بعض خيبر عنوة » اهـ .

وذكر ابن كثير : أن النبى ﷺ قسم خيبر نصفين .. نصفاً لنوائبه ونصفاً بين المسلمين .. الشق والنطاة وما حيز معهما من الشطر الأول من خيبر هو نصف المسلمين الذى قسمه النبى ﷺ بينهم ، والوطيح والسلالم والكتيبة وما حيز معها وهو الشطر الثانى من خيبر لم يقسمه ﷺ وإنما

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٣٥٢ — ٣٥٣ .

رصده لنوائب المسلمين ومصالحهم العامة [1] .

استسلام الشطر الثانى من خيبر بعد القتال :

والواقع الذى يدل عليه سياق أصحاب المغازى والسير جميعاً أن يهود الشطر الثانى من مدينة خيبر قد تحصنوا فى حصونهم واستعدُّوا لمقاتلة المسلمين وقاتلوهم وقد كانت مقاومة يهود الشطر الثانى من العناد والعنف إلى درجة عجز معها المسلمون عن اقتحام هذه الحصون بالرغم من استمرار الحصار الخانق عليها أكثر من نصف شهر .

الأمر الذى جعل النبى ﷺ يأمر بنصب آلات التدمير (المنجنيق) على هذه الحصون لتدميرها ، وعندما نُصِبَتْ أيقن اليهود بالهلاك فبعثوا إلى النبى ﷺ يطلبون المفاوضة على أساس التسليم ، فتمت المفاوضة بين الفريقين على أن يستسلم اليهود مقابل حقن دمائهم وإعفاء نسائهم وذراريهم من السبى ، وهذا (كما ستراه مفصلا إن شاء الله) استسلام لا صلح ، لأن هذا الاستسلام إنما جاء بعد حصار شديد وقتال عنيف .

القول الفصل :

ولعل القول الفصل الذى يزيل الالتباس الذى نشأ عند بعض المؤرخين من كون مزارع الكتيبة (الشطر الثانى من مدينة خيبر) لم يقسمها النبى ﷺ وإنما رصدها لمصالح المسلمين هو ما أورده الإمام الواقدى من أن سبب ذلك أن أراضى الكتيبة كانت (عند قسمة أراضى خيبر بين المسلمين) الخمس الذى (بموجب قانون الغنائم فى سورة الأنفال) يرصد لمصالح المسلمين ، ومعنى هذا أن أراضى القسم الثانى من مدينة خيبر لم تكن فيئا غير مقسوم وإنما كانت غنيمة شملها التقسيم كسائر أراضى خيبر .

قال الواقدى (المغازى ج ٢ ص ٦٩٢) : وحدَّثنى قدامة بن موسى ، عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزام ، قال : كتب إلىّ عمر بن عبد العزيز فى خلافته أن افحص لى عن الكتيبة (أراضى القسم الثانى من

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٠١ .

خيبر) ، قال أبو بكر : فسألت عمرة بنت عبد الرحمن فقالت : إن رسول الله ﷺ لما صالح بني أبي الحُقَيق جزأ النطاة والشق والكتيبة خمسة أجزاء ، وكانت الكتيبة جُزءاً منها ، ثم جعل رسول الله ﷺ خمس بعرات ، وأعلَم في بعرة منها ، فجعلها لله ، ثم قال : اللهم اجعل سهمك (يعنى الخمس الخاص بمصالح المسلمين) فى الكتيبة ، فكان أول ما خرج منها الذى فيه مكتوب على الكتيبة ، فكانت الكتيبة ، خمس النبى ﷺ ، وكان السهمان أغفالًا ، ليس عليها علامات ، وكانت فوضى للمسلمين على ثمانية عشر سهماً ، قال أبو بكر : فكتبت إلى عمر بن عبد العزيز بذلك .

وقال الواقدى أيضاً عن حزام بن سعد بن محيصة أنه قال : لمّا خرج سهم النبى ﷺ وكان الشق والنطاة أربعة الأخماس للمسلمين فوضى .

وحدثنى عبد الله بن عون عن أبى مالك الحميرى ، عن سعيد بن المسيّب ، وحدّثنى محمد (أى ابن عبد الله) ، عن الزهرى ، قال : الكتيبة خمس رسول الله ﷺ قال : فكان رسول الله يطعم من أطعم من فى الكتيبة وينفق على أهله منها ، قال ابن واقد : والثبت عندنا أنها خمس النبى ﷺ من خيبر ، لأن رسول الله ﷺ لم يطعم من الشق والنطاة أحداً وجعلها سهمانا للمسلمين ، وكانت الكتيبة التى أطعم فيها ، كانت الكتيبة تخرص ثمانية آلاف وسق تمر ، فكان لليهود نصفها أربعة آلاف وكان يزرع فى الكتيبة شعير ، فكان يحصد منها ثلاثة آلاف صاع فكان للنبى ﷺ نصفه ، ألف وخمسمائة صاع شعير ، وكان يكون فيها نوى فربما اجتمع ألف صاع فيكون لرسول الله ﷺ نصفه ، فكل هذا قد أعطى منه رسول الله ﷺ المسلمين من الشعير والتمر والنوى [1] .

دروس فى النزاهة والعفة :

وفى فتح خيبر ألقى النبى ﷺ على أصحابه دروساً عالية ، كان التمسك بها قاعدة القواعد لنزاهة الجندى المحارب المجاهد فى سبيل الله تعالى ، وكانت درساً فى التمسك بالنظام ورهبة الخروج عليه حتى فى أحقر الأمور التى قد

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٩٣ .

لا يُؤبه لها . فقد نهى أشد النهى عن أن يأخذ الجندى أى شيء من الغنيمة قبل أن تقسم مهما قلّ . فقد نادى منادى النبى ﷺ : إن الغلول [1] عار وشنار يوم القيامة ، أدّوا الخيط والمخيط . قال الواقدى : فباع يومئذ فروة ابن عمرو (الموكل ببيع الغنائم) المتاع ، فأخذ عصابة فعصب بها رأسه ليستظل بها من الشمس ، ثم رجع إلى منزله وهى عليه فذكر فخرج فطرحها ، وأخبر بها رسول الله ﷺ فقال : عصابة من نار عصبت بها رأسك ، وسأل رسول الله ﷺ يومئذ من الفيء شيئاً ، فقال رسول الله ﷺ : لا يحل لى من الفيء خيط ولا مخيط ، ولا آخذ ولا أعطى ، فسأله رجل عقالًا ، فقال ﷺ : حتى تقسّم الغنائم ثم أعطيك عقالًا وإن شئت مراراً [2] .

نموذج نادر فى صدق الجهاد لله :

وفى معركة خيبر ظهرت نماذج من نوع مثالى بلغت أعلى درجات الكمال فى صدق الجهاد والحرص على بذل الروح بسخاء ما بعده سخاء فى سبيل مرضاة الله تعالى .

فقدّ روى البيهقى والنسائى : أن رجلًا من الأعراب جاء إلى النبى ﷺ فآمن به واتبعه ، فقال : أهاجر معك ، فأوصى به بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله ﷺ شيئاً ، فقسّمه ، وقسم للأعرابى ، فأعطى أصحابه ما قسم له ، وكان يرعى ظهرهم [3] .

فلما جاء الأعرابى (إياه) دفعوا إليه قسمه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : قسم قسمه لك رسول الله ﷺ ، فأخذه فجاء به إلى النبى ﷺ ، فقال : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : قسم قسمته لك . قال : ما على هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى هاهنا ــ وأشار إلى حلقه ــ بسهم ، فأموت ، فأدخل الجنة .

فقال النبى ﷺ : إن تصدق الله يصدقك ، ثم نهضوا إلى قتال العدو ،

---

(١) الغلول : هو أن يأخذ المحارب شيئاً من الغنيمة قبل قسمتها .

(٢) المرار : الحبل (النهاية فى غريب الحديث) ج ٤ ص ٨٨ .

(٣) الظهر : يكنى به عن الإبل المعدة للركوب فى المغازى وغيرها .

فأتى به إلى النبى ﷺ وهو مقتول .

فقال ﷺ : هو هو ؟ قالوا : نعم .

قال : صدق الله فصدقه . فكفنه النبى ﷺ فى جبته ، ثم قدّمه فصلى عليه ، وكان من دعائه له : اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً فى سبيلك قتل شهيداً وأنا عليه شهيد (١) .

وكان رجل أسود مع النبى ﷺ يمسك دابّته عند القتال يقال له كركرة ، فقتل يومئذ ، فقيل : استشهد كركرة ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنه ليحرق فى النار على شملة غلها ، فقال رجل : أخذت شراكين يومئذ كذا وكذا ، فقال رسول الله ﷺ : شرا كان من نار ، وتوفّى يومئذ رجل من أشجع ، وأنهم ذكروه لرسول الله ﷺ فقال : صلوا على صاحبكم ، فتغيّرت وجوه الناس لذلك فقال رسول الله ﷺ : إن صاحبكم غلّ فى سبيل الله ، قال زيد بن خالد الجهنى ففتشنا متاعه فوجدنا خرزاً من خراز اليهود لا يسوى درهمين ، وكان نفر من المسلمين أصابوا خرزاً من خرز اليهود ، وكانوا رفقاء ، فقال المحدّث لهذا الحديث : لو كان الخرز عندكم اليوم لم يَسْوَ درهمين ، فأُتِىَ بذلك رسول الله ﷺ بعدما فرغ من المقسم فقالوا : يا رسول الله ، نسينا هذا الخرز عندنا ! فقال ﷺ : كلكم يحلف بالله أنه نسيه ؟! فحلفوا جميعاً أنهم نسوه ، فدعا رسول الله ﷺ بسرير الموتى فسجىّ عليهم بالرباط ، ثم صلىٌ عليهم صلاة الموتى ، وكان رسول الله ﷺ يجد الغلول فى رحل الرجل فلا يعاقبه ، ولم يسمع أنه أحرق رحْل أحد وجد فى رحله، ولكنه يعنّف ويؤنّب ويعرّف الناس به (٢) .

إشراك غائبين فى الغنيمة :

وكان من عادة النبى ﷺ أن لا يشرك فى الغنيمة غائباً عن المعركة ، ولكنه فى بدر أشرك فى الغنيمة ثمانية لم يشهدوا القتال (٣) . وفى خيبر أسهم

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٣٣٠ .

(٢) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٨٢ .

(٣) انظر أسماء هؤلاء الثمانية فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) فى الحديث عن الغنائم .

النبى ﷺ لرجال من المسلمين غابوا عن القتال . قال الواقدى : وكانت خيبر لأهل الحديبية من شهدها منهم أو غاب عنها . قال الله عز وجل : ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه﴾[1] يعنى خيبر ، وقد تخلّف عنها رجال (مرّى بن سنان وأيمن بن عبيد وسبّاع بن عرفطة الغفارى وجابر بن عبد الله وغيرهم ومات منهم رجلان فأسهم رسول الله ﷺ لمن تخلّف منهم ومن مات ، وأسهم لرسل كانوا يختلفون إلى أهل فدك (محيصة ابن مسعود الحارثى وغيره) ، وأسهم لثلاثة مرضى لم يحضروا القتال (سويد بن النعمان وعبد الله بن سعد بن خيثمة ورجل من بنى خطامه ..) ، وأسهم للقتلى الذين قتلوا من المسلمين .

إشراك عشرة من اليهود فى الغنيمة :

وذكر المؤرخون أن النبى ﷺ غزا بعشرة من يهود المدينة إلى خيبر فكانوا معه فى الجيش ، وعند تقسيم الغنيمة أسهم لهم كسهمان المسلمين ، وكان معهم مملوكون منهم عمير أبو اللحم ، قال عمير : ولم يسهم لى وأعطانى خرثى متاع[2] .

غطفان تنجد اليهود ولكن ؟ :

كنا ذكرنا فى الفصل الثالث من هذا الكتاب أن عيينة بن حصن الفزارى قائد غطفان قد رفض نصيحة الحارث بن عوف المرّى وأبى إلا أن يظاهر اليهود على النبى ﷺ ويسارع إلى مدّهم بقوات كثيفة من غطفان ، فقد تحرّك من جديد نحو خيبر بحوالى أربعة آلاف مقاتل ، وهى التى عادت إلى ديارها بعد أن قطعت مرحلة نحو خيبر وذلك على أثر ما سمعت من أن قوات للمسلمين قد أخلفتها فى ديارها ، قبل نشوب معركة خيبر بقليل .

غير أن قوات غطفان وصلت إلى خيبر بعد فوات الأوان ، حيث لم تصل إلا بعد أن وجدت النبى ﷺ قد استولى على خيبر كلها ، ولم يعد بها من اليهود من يحمل السلاح ، حيث استسلموا جميعاً لقوات المسلمين .

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٠ .

(٢) زاد المعاد ج ٢ ص ٣٣٨ ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٧٥ و ٦٧٦ .

غطفان تطلب من النبى قسماً من الغنيمة :

غير أن قائد غطفان (عيينة بن حصن الفزارى) لم يجد من الحياء ما يمنعه من أن يطلب من النبى ﷺ إعطاءه من غنائم خيبر ، فقد قال للنبى ﷺ : أعطنى يا محمد مما غنمت من حلفائى فإنى انصرفت عنك وعن قتالك وخذلت حلفائى ولم أكثر عليك ورجعت عنك بأربعة آلاف مقاتل .

فقال رسول الله ﷺ : كذبت ، ولكن الصياح الذى سمعت أنفرك إلى أهلك قال : أجزنى يا محمد ، فقال النبى ﷺ : لك ذو الرقبة ، قال عيينة : وما ذو الرقبة ؟

قال النبى ﷺ : الجبل الذى رأيت فى النوم أنك أخذته .

وكان عيينة بن حصن رأى فى المنام (وهو بجيشه دون خيبر) أنه أعطى ذا الرقبة ــ جبلا بخيبر ــ وعندها تفاءل قائلًا : قد والله قد أخذت برقبة محمد .

عيينة بن حصن يتحسر على اليهود :

قال الواقدى : فانصرف عيينة فجعل يتدسس إلى اليهود ويقول : ما رأيت كاليوم أمراً ، والله ما كنت أرى أن أحداً يصيب محمداً غيركم ، قلت : أهل الحصون والعدّة والثروة ، أعطيتم بأيديكم (أى استسلمتم) وأنتم فى هذه الحصون المنيعة وهذا الطعام الكثير ما يوجد له آكل ، والماء الواتن [١] ! قالوا : قد أردنا الامتناع فى قلعة الزبير [٢] ولكن الدبول [٣] قطعت عنّا ، وكان الحر ، فلم يكن لنا بقاء على العطش ، قال : قد ولّيتم من حصون ناعم منهزمين حتى صرتم إلى قلعة الزبير ، وجعل يسأل عمن قتل منهم فيخبر ، فقال : قتل والله أهل الجد والجلد ، لا نظام ليهود بالحجاز أبداً .

---

(١) الواتن : المستمر دونما انقطاع .
(٢) قلعة الزبير هى الحصن الثالث والأخير من حصون النطاة فى القسم الأول من مدينة خيبر .
(٣) الدبول : جمع دبل ، وهو مجرى الماء .

ويسمع كلامه ثعلبة بن سلّام بن أبى الحقيق ــ وكانوا يقولون : إنه ضعيف العقل مختلط ــ فقال : يا عيينة أنت غررتهم وخذلتهم وتركتهم وقتال محمد ، وقبل ذلك ما صنعت ببنى قريظة [١] ! فقال عيينة : إن محمداً كادنا فى أهلنا (أى أوقعنا فى مكيدة) فنفرنا إليهم حين سمعنا الصريخ ونحن نظن أن محمداً قد خالف إليهم ، فلم نرَ شيئاً فكررنا إليكم لننصركم .

قال ثعلبة : ومن بقى تنصره ؟ قد قتل من قتل ، وبقى من بقى فصار عبداً لمحمد وسبانا وقبض الأموال !

قال يقول رجل لعيينة : لا أنت نصرت حلفاءك فلم يعدّوا عليك حلفنا ! ولا أنت حيث ولّيت .. كنت أخذت تمر خيبر من محمد سنة [٢] ! والله إنى لأرى أمر محمد أمراً ظاهراً ، ليظهرن على من ناوأه ، فانصرف عيينة إلى أهله يفتل يديه ، فلما رجع إلى أهله جاءه الحارث بن عوف المرّى ، قال : ألم أقل لك إنك توضع فى غير شىء ؟ ، والله ليظهرن محمد على ما بين المشرق والمغرب ، اليهود كانوا يخبروننا هذا ، أشهد لسمعت أبا رافع سلّام بن أبى الحقيق يقول : إنّا نحسد محمداً على النبوة حيث خرجت من بنى هارون ، وهو (أى محمد) نبى مرسل واليهود لا تطاوعنى على هذا ولنا منه ذبحان ، واحد بيثرب وآخر بخيبر ، قال الحارث : قلت لسلّام : يملك الأرض جميعاً ؟ قال : نعم والتوراة التى أنزلت على موسى ، وهنا أحب أن تعلم اليهود بقولى فيه [٣] .

كيف استسلم يهود الشطر الثانى من خيبر :

ذكر المؤرخون جميعهم أن من بقى على قيد الحياة من مقاتلة يهود الشطر الأول من خيبر (النطاة والشق) انهزموا والتحقوا بإخوانهم فى الشطر الثانى

(١) كان عيينة بن حصن الفزارى قائد أحد الأجنحة الأربعة فى قوات غطفان التى اشتركت ضد المسلمين فى قوات الأحزاب فى العام الرابع من الهجرة وقد انسحبت هذه القوات وتركت بنى قريظة يلاقون جزاءهم على أيدى المسلمين الذين غدرت بهم قريظة معتمدة على قوات الأحزاب الضاربة .

(٢) ذكرنا فيما مضى فى الفصل الثالث من هذا الكتاب أن النبى ﷺ عرض على غطفان أن يعطيها تمر خيبر لسنة واحدة إذا امتنعت عن مظاهرة اليهود ومدهم بالمحاربين ، ولكن قائد غطفان عيينة بن حصن رفض هذا العرض وأبى إلا مناصرة اليهود فقرر أن يمدهم بأربعة آلاف مقاتل .

(٣) زاد المعاد ج ٢ ص ٦٧٧ .

وتحصنوا معهم فى حصونهم ، وهى عدة حصون أهمها ثلاثة وهى :

١ ــ القموص (بفتح القاف) .

٢ ــ السلالم (بضم السين) .

٣ ــ الوطيح ، ضبطه الواقدى (بفتح الواو وكسر الطاء) [1] .

وبالرغم من إجماع المؤرخين على أن اليهود المعتصمين بهذه الحصون الثلاثة لم يستسلموا للقوات الإسلامية إلا بعد قتال شديد ومقاومة عنيدة ، وحصار دام أربعة عشر يوماً أو أكثر .. فإن هناك (كما ذكرنا فى أول هذا الفصل) خلافاً بينهم ، هل افتتح المسلمون شيئاً من هذه الحصون عن طريق الاقتحام بالقوة (كما فعلوا فى حصون النطاة والشق) أم أن جميع هذه الحصون الثلاثة استسلم المدافعون عنها وسلموها للمسلمين عن طريق المفاوضة ؟

رأى ابن إسحاق :

يرى إمام المغازى ابن إسحاق أن حصناً واحداً من الحصون الثلاثة ، وهو حصن القموص (بفتح أوله وضم ثانيه) قد فتحه المسلمون بقوة السلاح كما فعلوا فى الشق والنطاة ، فهو يقول : ولما افتتح رسول الله ﷺ (القموص) حصن بنى أبى الحُقيق أتى رسول الله ﷺ بصفية بنت حيى ابن أخطب وبأخرى معها ، فمر بهما بلال ــ وهو الذى جاء بهما ــ على قتلى من قتلى يهود ، فلما رأتهم التي مع صفية صاحت ، وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها ، فلما رآها رسول الله ﷺ قال : اعزبوا عنى هذه الشيطانة [2] ، ثم قال لبلال : انزعت منك الرحمة ، يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما [3] ؟

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٦ ، والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٩ .

(٢) عبارة الواقدى فى المغازى ج ٢ ص ٦٧٣ : « فكره رسول الله ﷺ ما صنع بلال فقال : أذهبت منك الرحمة ؟ تمر بجارية حديثة السن على القتلى ، فقال بلال : ما ظننت أنك تكره ذلك ، وأحببت أن ترى مصارع قومها ، فقال رسول الله ﷺ لابنة عم صفية : (كالمواسى) : ما هذا إلا شيطان (كذا) . وما ذكره الواقدى أقرب إلى آداب النبى ﷺ وعفته فى الكلام .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٦ .

وهذا السياق من ابن إسحاق ، يدل على أن المسلمين لم يستولوا على حصن (القموص) وهو من حصون الشطر الثانى — إلا بعد مقاومة عنيفة أبداها اليهود وفقدوا خلالها عدداً كبيراً من القتلى . وجاء فى السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٦ ، أن الذى تولى فتح حصن القموص على بن أبى طالب ، وقال : إن من هذا الحصن سبيت صفية بنت حيى بن أخطب ، كما قال ابن حجر . وقد سبق تحقيق المقام فى ذلك . وقول صاحب السيرة الحلبية هذا ، يؤيد ما ذكره ابن إسحاق من أن حصن (القموص) اقتحمه المسلمون وفتحوه بقوة السلاح .

أما الحصنان (الوطيح والسلالم) فيتفق ابن إسحاق مع باقى المؤرخين فى أن اليهود المعتصمَين بهما استسلموا بعد الحصار الشديد وبعد أن أيقنوا بالهلكة [١] .

غير أن هناك ما ينبغى الإشارة إليه هنا ، وهو أن هناك نقصاً فى سرد ابن إسحاق لحوادث فتح حصون خيبر ، فقد قال عند ابتدائه لوصف فتح خيبر ، وتدنى رسول الله ﷺ الأموال يأخذها مالًا مالا ، ويفتتحها حصناً حصناً ، فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم ، ثم القموص [٢] .

فهو كما نرى لم يذكر من حصون النطاة والشق الخمسة سوى حصن ناعم ، كما أن سياقه هذا يوهم بأن حصن (القموص) هو من حصون النطاة أو الشق فى الشطر الأول من خيبر ، بينما الذى عليه جمهرة المؤرخين أنه من حصون الشطر الثانى من خيبر ، فى الكتيبة .

قول الواقدي :

أما الواقدى (وهو الند لابن إسحاق فى المغازى) فقد ذكر فى كتابه (المغازى) [٣] :

أن اليهود بعد أن فقدوا الشطر الأول من خيبر انهزموا وتحولوا إلى الشطر

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٧ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٠ .
(٣) ج ٢ ص ٦٧٠ نشر جامعة اكسفورد بتحقيق الدكتور مارسدن جونس .

الثانى واعتصموا مع يهود هذا الشطر بحصونهم الثلاثة (الوطيح والسلالم والقموص) واستعدوا للمقاومة ، وظلوا يقاومون ممتنعين بحصونهم حتى ضرّسهم الحصار فاستسلموا ، وهنا يختلف الإمام الواقدى مع الإمام ابن إسحاق ، فبينا يذكر ابن إسحاق أن المسلمين افتتحوا حصن (القموص) بقوة السلاح والحصنين الآخرين (الوطيح والسلالم) عن طريق المفاوضة ، يذكر الواقدى أن جميع الحصون الثلاثة سلّمها اليهود للمسلمين عن طريق المفاوضة وأن المسلمين لم يقتحموا بقوة السلاح أى حصن من هذه الحصون وإنما فتحت بالرعب الذى قذفه الله فى قلوب اليهود بعد الحصار الذى دام ١٤ يوماً . فقد قال الواقدى : (ثم تحول رسول الله ﷺ إلى الكتيبة [١] والوطيح وسلالم (حصن ابن أبى الحقيق الذى كانوا فيه) ، فتحصنوا فيه أشد التحصن وجاءهم كل فلّ [٢] كان قد انهزم من النطاة والشق ، فتحصنوا معهم فى القموص (وهو فى الكتيبة) وكان حصناً منيعاً ، وفى الوطيح وسلالم ، وجعلوا لا يطلعون من حصونهم مغلقين عليهم حتى همّ رسول الله ﷺ أن ينصب المنجنيق عليهم لما رأى من تغليقهم ، وأنه لا يبرز منهم بارز ، فلمّا أيقنوا بالهلكة ــ وقد حصرهم رسول الله ﷺ أربعة عشر يوماً سألوا رسول الله ﷺ الصلح . قال أبو عبد الله : قلت : لإبراهيم بن جعفر : وجد فى الكتيبة خمسمائة قوس عربية .

وقال : أخبرنى أبى عمّن رأى كنانة بن أبى الحقيق يرمى بثلاثة أسهم فى ثلاثمائة ــ فيدخلها فى هدف شبراً فى شبر ، فما هو إلا أن قيل : هذا رسول الله ﷺ قد أقبل من الشق فى أصحابه ــ وقد تهيأ أهل القموص وقاموا على باب الحصن بالنبل ، فنهض كنانة إلى قوسه فما قدر أن يوترها من الرعدة ، وأومأ إلى أهل الحصون : لا ترموا ! وانقمع ، فما رُئِى منهم

(١) الكتيبة : أحد أودية خيبر (نهاية الأرب ج ١٧ ص ٢٦٣ ، وهو واد خصب به وحده أربعون ألف نخلة .

(٢) الفل (بفتح الفاء) بقايا القوم المنهزمين .. يقال رجل فل ، وقوم ، فل (الصحاح ص ١٧٩٣) .

أحد حتى أجهدهم الحصار وقذف الله فى قلوبهم الرعب [1] .

ويدل سياق الواقدى وكل المؤرخين أن السيادة على اليهود فى الشطر الثانى من مدينة خيبر كانت لبنى أبى الحقيق (رهط حيى بن أخطب سيد بنى النضير المنفيين من المدينة) . وأن بنى أبى الحُقَيق كانوا بمثابة الملوك بين يهود الشطر الثانى من مدينة خيبر .

طلب اليهود المفاوضة للتسليم :

فقد ذكروا جميعهم أن اليهود المتحصنين فى حصون (القموص والوطيح والسلالم) فى القسم الثانى من خيبر لما ضرّ سهم الحصار ، وقرر النبى ﷺ أن ينصب على حصونهم آلات التدمير (المنجنيقات) وقذفهم بها أيقنوا بالهلاك ودب الذعر فى قلوبهم ، فقرر ملكهم كنانة بن أبى الحقيق التسليم ، فبعث إلى النبى ﷺ بوفد يطلب باسمه الاجتماع به للتفاوض على أساس إنهاء الحرب بتسليم اليهود للمسلمين ، وكان رئيس الوفد الذى أرسله كنانة اسمه (شمّاخ) [1] .

وعندما خرج شمّاخ (رسول كنانة بن أبى الحُقَيق) من حصن القَموص اعتقله الحرس النبوى ثم جاء به إلى النبى ﷺ فى مقر قيادته .

وهناك أبلغ المندوب اليهودى شمّاخ النبى ﷺ أنه مبعوث من سيد اليهود كنانة بن أبى الحقيق ، بعثه ليبلغه استعداد يهود الشطر الثانى من خيبر للمفاوضة ، وأن ملك اليهود (كنانة بن أبى الحقيق) يرغب فى الاجتماع بالنبى القائد ﷺ ويطلب السماح له بذلك . وقد وافق النبى ﷺ على الاجتماع بكنانة بن أبى الحقيق للمفاوضة .

الاستسلام النهائى :

فرجع اليهودى (شمّاخ) إلى كنانة بن أبى الحُقيق ، وأخبره بموافقة النبى ﷺ على الاجتماع به ، فأمر كنانة أصحابه بالكف عن القتال ، ثم

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٧٠ .

خرج إلى النبى ﷺ فى نفر من زعماء اليهود .

ولدى اجتماعهم بالنبى ﷺ فى مقر قيادته حول الحصون جرى التفاوض بين النبى ﷺ وبين كنانة بن أبى الحقيق وباقى الوفد ، حول الطريقة التى يتم بها تسليم ما تبقى من منطقة خيبر للمسلمين ، وهو القسم الثانى من المدينة .

وقد حاول الوفد اليهودى (برئاسة كنانة بن أبى الحقيق) ، الحصول على شروط وضمانات مثل التى يحصل عليها أهل الذمة الذين يقبلون الدخول فى مفاوضات مع قائد الجيش الإسلامى قبل إعلان الحرب ، فيعقدون معه الصلح الذى بموجبه يكون لهم حق البقاء فى بلادهم مع الاحتفاظ بأموالهم وممتلكاتهم ، وإعفاء نسائهم وذراريهم من السبى وحقن دماء الجميع ، مقابل دفع شىء معين للمسلمين وهو الجزية ، مع الاعتراف بسلطان الإسلام والخضوع لأحكام قانونه .

حقن الدماء والإعفاء من السبى فقط :

ولكن استعداد كنانة بن أبى الحقيق ووجهاء وأعيان وقادة اليهود فى الشطر الثانى من خيبر للصلح جاء متأخراً .

ذلك أنهم لم يبدوا استعدادهم للتسليم على أساس الصلح ، إلا بعد أن قاوموا أشد المقاومة وامتنعوا بحصونهم ، وحاربوا المسلمين وقاوموهم إلى درجة عجز الجيش الإسلامى معها عن اقتحام حصونهم الثلاثة (الوطيح والسلالم والقموص) بالرغم من المحاولات الهجومية التى استمرت حوالى نصف شهر .. الأمر الذى جعل النبى ﷺ يستعد لنصب آلات التدمير (المنجنيقات) لضرب أبراج الحصون وأسوارها ليسهل على المسلمين اقتحامها ، وهو الإجراء الذى جعل كنانة بن أبى الحُقيق والمدافعين عن هذه الحصون ، يوقنون بالهلاك ويفكرون فى المفاوضة والتسليم بعد أن تأكدوا أن مقاومتهم لن تجدى نفعاً إذا ما تمكنت منجنيقات الجيش الإسلامى من تهديم أبراج وأسوار الحصون التى امتنع فيها هؤلاء اليهود وقرروا محاربة المسلمين حتى النهاية .

تسامح القائد الأعلى النبى :

وبالرغم من أن النبى ﷺ قد أدرك أن كنانة بن أبى الحقيق والوفد المرافق له ، لم ينزلوا من حصونهم لمفاوضة النبى ﷺ ، إلا بعد أن انهارت مقاومتهم وأيقنوا أنهم مأخوذون عَنْوة ، وأن حكمهم كحكم الذين تؤخذ حصونهم وأراضيهم عَنْوة ، فيؤسر مقاتلوهم وتسبى نساؤهم وذراريهم ، وتؤخذ كل أموالهم غنيمة للمسلمين دونما استثناء ، كأعداء لم يسلموا إلا بعد حصار وحرب وقتال .. فإن النبى ﷺ قد تسامح مع هؤلاء اليهود ، حيث أبرم معهم اتفاقية أهم ما حصلوا عليه فيها « حقن دمائهم وإعفاء نسائهم وذراريهم من السبى » وهو أمر ما كانوا ليظفروا به لولا روح التسامح التى عاملهم بها النبى ﷺ .

بنود اتفاقية التسليم :

ويمكن تلخيص بنود الاتفاق النهائى هذا فيما يلى :

١ – على اليهود أن يخلوا جميع القلاع والحصون ويتركوا كل ما فيها من آلات حربية وأسلحة ، ليستولى عليها الجيش الإسلامى لتصبح جزءاً من أملاك المسلمين الغزاة .

٢ – على اليهود أن يسلموا للمسلمين كل ما فى حوزتهم من أسلحة ، وأن لا يحملوا سلاحاً ما داموا فى خيبر .

٣ – يتعهد النبى ﷺ بحقن دماء اليهود التى جرت المفاوضة باسمهم ويعفى نساءهم وأطفالهم من الاسترقاق .

٤ – على اليهود أن يجلوا عن خيبر ويغادروها إلى الشام .

٥ – يسمح المسلمون لليهود عند جلائهم عن خيبر أن يأخذوا من الأموال ما حملت ركابهم(١) .

---

(١) هذه رواية أبى داود عن حماد بن سلمة (انظر نصب الراية للزيلعى ج ٣ ص ٣٩٩ وقد ذكر بعض المؤرخين أن اتفاقية الجلاء تمت على أساس أن لا يحمل اليهود معهم عند الجلاء شيئاً إلا ثوباً على إنسان ،ولكن الأول أثبت وأقرب إلى أسلوب الرسول ﷺ فى معاملة المهزومين المضوب =

٦ - يتعهد اليهود - وعلى رأسهم سيدهم كنانة بن أبى الحقيق - أن يدلوا المسلمين على جميع الأموال بما فى ذلك الكنوز المخفية ويسلموها للفاتحين .

٧ - يوافق اليهود على أن لا ذمة لهم وأن المسلمين فى حل من كل التزامات هذه الاتفاقية وأن دماء اليهود وأموالهم وذراريهم حلال للمسلمين إذا ما خالفوا شيئاً من بنود هذه الاتفاقية أو غيبوا أو كتموا شيئاً مما يجب أن يظهروه .

وقد تم إبرام هذه الاتفاقية فى مقر قيادة النبى ﷺ وأشهد عليها رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً والزبير وعشرة من اليهود .

وعقِبَ إبرام هذه الاتفاقية سلّم اليهود الحصون والقلاع للمسلمين كما انتدب النبىّ من أصحابه من يستلم الأموال والأسلحة والمزارع والبساتين .. وبهذا وضعت الحرب أوزارها فى خيبر باستيلاء المسلمين عليها استيلاءً كاملاً بعد معارك وحروب طاحنة دامت حوالى شهرين وهى أطول مدة يقضيها رسول الله ﷺ فى أية معركة .

نهاية الاستعمار اليهودى :

وبسقوط منطقة خيبر فى أيدى المسلمين انهار آخر وأقوى معقل لسلطان اليهود الدخيل الزنيم فى جزيرة العرب .. هذا السلطان الاستعمارى الذى دام فى يثرب وخيبر (بصفة خاصة) حوالى ألفين من السنين ، والذى ظل وجوده طيلة تلك القرون مصدر الشرور والفتن والقلاقل والحروب الأهلية الطاحنة بين العرب ، التى دأب اليهود (بأساليبهم التقليدية الشريرة) على إثارتها وتغذية أسبابها للتمكين لوجودهم فى بلاد العرب كأقلية دخيلة

= إجلاؤهم ، إذ يستبعد أن يتركهم النبى ﷺ ـــ وقد حقن دماءهم وأعفى نسائهم وذراريهم من السبى والاسترقاق ـــ أن يغادروا خيبر بنسائهم وأطفالهم ، وليس معهم ما يقتاتونه ويتبلغون به حتى يصلوا الشام .. بل أن النبى ﷺ قد قبل بقاء اليهود فى خيبر وعدل عن إجلائهم فظلوا فيها حتى عهد الخليفة الفاروق عمر الذى أجلاهم عنها . تمشياً مع روح اتفاقية إبقائهم ليعملوا زراعاً بنصف المحصول كما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

لا يمكنها الاستقرار والبقاء فى أرض غير أرضها وبين شعب هى غريبة عنه (جنساً ولغةً وديناً ولحماً ودماً) إلا باستمرار التخاصم والتناحر والتفرق والتعادى بين عناصر هذا الشعب الواحد ، والعمل على تصعيد أسباب الخلاف الدامى بين مختلف فئات الشعب الواحد ، الذى لو توحَّد وتخلَّت عناصره (ذات القوة الذاتية العظيمة) عن مساوئ التخاصم الجاهلى والتنافر القبلى ، لما استطاع هؤلاء اليهود الدخلاء ، أن يجدوا موطئ قدم فى جزيرة العرب ، ولا اضطروا إلى العودة من حيث أتوا ، وهو ما حدث لهم مرغمين (بالفعل) بعد أن وحَّد بين أمة العرب تحت راية التوحيد .. الأمر الذى لو حَدَث قبل ألفين من السنين ، لما استطاع اليهود الدخلاء البقاء فى جزيرة العرب طيلة هذه المدة الطويلة الطويلة جداً .

ما أشبه الليلة بالبارحة :

فهل يتقى الله العرب (أو المنتسبون إلى العروبة) الذين هم سبب تفريق كلمة العرب وتصنيفهم إلى صنفين ، صنف يجب أن يكون له كل شيء وصنف لا يستحق أى شيء ولا حتى البقاء حياً .. هل يتقى الله هؤلاء الذين يكرسون تفرقة العرب وتمزيق وحدتهم تحت شعار الوحدة والتلاق .. هل يتقى الله هؤلاء فيعودون إلى رشدهم ويدركون الواقع المؤلم فيعملون على تغييره بصدق وإخلاص ؟ وهو أن الوجود اليهودى الزنيم المستعمر الدخيل فى فلسطين ، لا يستمد بقاءه من قوته الذاتية أو طائرات الميراج أو حتى الفانتوم أو التكنولوجيا ، وإنما يستمد بقاءه البغيض من تمزيق وحدة العرب واختلاف كلمتهم ، وكيد بعضهم لبعض .

إن العرب يستحيل أن يتم اجتماع كلمتهم وقيام وحدتهم إلا فى ظل راية الإسلام والإسلام فقط .

الغنائم فى خيبر :

وبعد سقوط القسم الثانى من مدينة خيبر واستسلام حصونها وقلاعها لجيش الإسلام الظافر ، أخذ المسلمون فى إحصاء الغنائم ، وكانت شيئاً عظيماً لم يغنم الجيش الإسلامى مثله فى أية غزوة من الغزوات التى انتصر

فيها المسلمون على أعدائهم فى العهد النبوى .

فبالإضافة إلى الأسلحة والمعدات والآلات الحربية (مثل الدبابات والمنجنيقات) التى استولى عليها المسلمون عند افتتاحهم قلاع الشطر الأول من خيبر ، استولوا فى قلاع وحصون الشطر الثانى من المدينة على كميات كبيرة من الأسلحة نذكر منها :

١ - ألف (١٠٠٠ رمح) .

٢ - أربعمائة (٤٠٠ سيف) .

٣ - خمسمائة (٥٠٠ قوس عربية) بجعابها[١] .

وهو شىء عظيم بالنسبة للمستوى العسكرى فى ذلك العصر .

الغنائم غير الحربية :

أما الغنائم غير الحربية الأخرى التى غنمها الإسلام فى هذا الفتح العظيم فهو شىء عظيم لا يمكن حصره .

فبالإضافة إلى الكميات الكبيرة من الذهب والفضة التى يشتهر اليهود (منذ أقدم العصور) باكتنازها ، غنم المسلمون ما هو أهم وأعظم من ذلك وهو المزارع والبساتين وأحراش النخيل التى تغطى مئات الأميال المربعة من أرياف مدينة خيبر العربية .

وإذا علمنا أن ما غنمه المسلمون (فقط) فى الكتيبة - وهى واحة من عشرات الواحات التى تغطى أراضى خيبر - هو أربعون ألف نخلة[٢] أدركنا مدى ضخامة كميات الأراضى المزروعة المغنومة من اليهود المهزومين فى خيبر .

خيبر أغنى منطقة زراعية فى الحجاز :

ولا غرو ، فقد كانت منطقة خيبر (فى ذلك العصر) أغنى منطقة

---

(١) الجعبة (بضم الجيم وفتحه) وعاء مستطيل توضع فيه السهام ويحمله أنبال على ظهره ساعة الحرب .

(٢) انظر إمتاع الأسماع ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

زراعية فى الحجاز بل وجزيرة العرب على الإطلاق . حيث كانت - ولا تزال حتى اليوم - تفيض منها بالماء مئات العيون وهو ما لا يوجد مثله فى أية منطقة فى الحجاز ، مع جودة التربة وسعة الأراضى الصالحة لزراعة مختلف أنواع الأشجار والفواكه والحبوب كالذرة والحنطة والشعير .

وقد كان العرب فى ذلك العصر يسمون واحات خيبر ، ريف الحجاز ، وقد ارتفعت ميزانية دخل خزينة الدولة الإسلامية باستيلاء المسلمين على واحات خيبر ، إرتفاعاً كبيراً ملحوظاً ، لا سيما بعد أن رصد النبى القائد والحاكم الأعلى خمس مغانم خيبر لبيت المال للصرف منه على مصالح المسلمين العامة حسب الظروف ومتطلبات الحاجة .

النبى يعيد التوراة لليهود :

وعند إحصاء الغنائم وجد المسلمون من بينها عدة أجزاء من التوراة (كتاب اليهود المقدس) وقد طلب اليهود من النبى ﷺ أن يعيد إليهم هذه الصحائف من كتابهم، فاستجاب لطلبهم ، وأمر بإعادتها إليهم فأعيدت[1] .

ولعل فى إعادة صحائف التوراة إلى اليهود البرهان الذى يلقم متهمى الإسلام بالتعصب ومصادرة غير المسلمين فى معتقداتهم وإجبارهم على اعتناق الإسلام حجراً .

فإعادة صحائف التوراة إلى اليهود (وخاصة فى ذلك العصر) فيها أعظم الدليل على تسامح الإسلام وإطلاقه الحريات لمن يخالفه فى العقيدة ، فى عصر بلغ فيه التعصب الأعمى للدين والمذهب بين الأمم الأخرى (كالرومان) إلى أن أباحوا لأنفسهم سفك دم الذين يخالفونهم فى المذهب داخل إطار الدين الواحد ، كما فعل حكام دولة الروم البيزنطية بمعاقبة النصارى فى مصر . فكيف بمن يخالفهم فى جوهر الدين ذاته ؟

وأين تصرفات المسلمين الفاتحين المنتصرين المتسامحة بإطلاقهم الحريات لمخالفيهم فى الدين ليمارسوا شعائرهم فى ظل الدولة الإسلامية كما يريدون ،

(١) كتاب المغازى للواقدى ج ٢ ص ٦٨٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٦ .

من تصرفات الصليبيين الذين أعماهم الحقد والتعصب ؟ فلم يكتفوا بمصادرة حرية المسلمين فى ممارسة شعائر دينهم ، بل لجأوا إلى تخييرهم بين أمرين : إما قتلهم وتحريقهم بالنار ، وإما مفارقة دين الإسلام واعتناق النصرانية ، كما حدث من الملك فيرديناند والملكة إيزابلا فى الأندلس (إسبانيا) عندما كتبت لهم الغلبة على المسلمين هناك ، فأقاموا لهم محاكم التفتيش الوحشية التى نفذت حكم الإعدام (ضرباً بالسيف وحرقاً بالنار) فى مئات الآلاف من المسلمين ولم تتوقف هذه المجازر الرهيبة إلا بعد أن أخطر جميع المسلمين على اعتناق النصرانية حفاظاً على أرواحهم .. وكما حدث من ملك الصليبيين (قلب الأسد) عندما ذبح ثلاثة آلاف مسلم من أسرى المسلمين بالرغم من إعطائهم الأمان عند استيلائه على مدينة القدس ، التي استعادها منه صلاح الدين بقوة السلاح ، والذى لم يقتل أسيراً مسيحياً واحداً ، بالرغم من تلك المجزرة التى ارتكبها الصليبيون على يد قلب الأسد الإنكليزى .. الذى بلغ التسامح الإسلامى بصلاح الدين إلى أن يعوده وهو فى مرضه ، ويأمر طبيبه بمعالجته حتى شفى من مرضه كما تشهد بذلك مصادر التاريخ الغربى فى أوروبا قبل الشرق فى بلاد الإسلام .

كيف سمح النبى لليهود بالبقاء فى خيبر ؟

وهكذا (وباستسلام حصون الشطر الثانى من مدينة خيبر) وضعت الحرب أوزارها فى هذه المنطقة الحيوية الهامة من جزيرة العرب .. وبسقوط خيبر فى أيدى المسلمين انهار أقوى وآخر معقل للوجود اليهودى الدخيل فى جزيرة العرب .

وقد جاء فى نص اتفاقية تسليم الشطر الثانى من خيبر على أن يقوم اليهود بالجلاء عن خيبر إلى الشام ويتعهد المسلمون بحقن دمائهم وإعفاء نسائهم وذراريهم من السبي والاسترقاق شريطة أن لا يكتموا أو يغيبوا شيئاً من الأموال التى هى (بموجب قوانين الحرب فى ذلك العصر) ملك من أملاك المسلمين المنتصرين ، وأنهم (أى اليهود) إن فعلوا ذلك برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله وحلّت دماؤهم وحق المسلمين سبى نسائهم وذراريهم (انظر تفاصيل الاتفاقية فيما مضى من هذا الكتاب) وقد نقض اليهود العهد

وخانوا وغيّبوا وكتموا [1] ، الأمر الذى أباح للنبى ﷺ دماءهم وأموالهم كما تنص عليه اتفاقية الجلاء صراحة .

غير أن النبى ﷺ (بالرغم من نقض اليهود العهد وإبطال مفعول الاتفاقية بالخروج على نصوصها كما تقدم ، لم يقتل اليهود ولم يسترق نساء وذراري سوى رجلين اثنين هما (كنانة بن أبى الحقيق وأخوه الربيع) اللذان وقعا الاتفاقية بالنيابة عن اليهود . أما بقية اليهود وهم عدة آلاف فلم يتعرض لهم بأذى إذ أعفاهم من عقوبة النكث ونقض العهد ، لأن المسؤول الأول عن هذا النكث والنقض والغدر إنما هما (كنانة بن أبى الحقيق وأخوه الربيع) .

السماح لليهود بالإقامة فى خيبر :

إلا أن النبى ﷺ تنفيذاً لاتفاقية التسليم قرر إجلاء اليهود عن خيبر ، فلم يعارض اليهود فى ذلك ، إلا أنهم تقدموا إلى النبى القائد ﷺ بعرض من طلبوا فيه أن يسمح لهم بالبقاء فى خيبر فى ظل حكم الإسلام ، ليعملوا كأجراء فى أرض خيبر للعناية بمزارعها وبساتينها وتولّى فلاحتها مقابل جزء من محصولها يعطى لهم يتفق عليه الفريقان .

فقد جاؤوا إلى النبى ﷺ . بعد أن علموا أنه سيخرجهم من خيبر فقالوا : يا محمد نحن أعلم منكم بخيبر ، دعونا نكون فيها نعمرها لكم بشطر ما يخرج منها .

وقد راقت هذه الفكرة للنبى ﷺ فقبل عرض اليهود فسمح لهم بالبقاء فى خيبر وأبرم معهم اتفاقاً خلاصته أن يقوموا بعمارة الأرض واستصلاحها وعمارتها على أن يكون لهم مقابل ذلك نصف ما تخرجه أرض خيبر من ثمار ، على أن يكون من حق المسلمين إخراج اليهود من خيبر متى شاؤوا .

---

(١) انظر زاد المعاد ج ٢ ص ٣٣٢ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٩ وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٦ ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٧٢ وإمتاع الأسماع ص ٣٢٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٧ وطبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ١١٢

قال الزيلعى فى نصب الراية ج ٣ ص ٣٩٩ : وقالوا (أى اليهود) نحن أعلم بكم منها فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف وقال : على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم .

وفى صحيح البخارى : أعطى النبى ﷺ خيبر اليهود أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر مايخرج منها .

وقال ابن حزم (فى جوامع السيرة) : وأقر النبى ﷺ اليهود على أن يعتملوها أى أرض خيبر بأموالهم وأنفسهم ولهم النصف من كل ما يخرج منها من زرع أو ثمر ويقرهم على ذلك ما بدا له ، فبقوا على ذلك حتى مات رسول الله ﷺ ، ومدة خلافة أبي بكر ، وجمهور خلافة عمر ، فلما كان فى آخر خلافته بلغه أن رسول الله ﷺ أمر في مرضه الذى مات فيه أن لا يبقى فى جزيرة العرب دينان ، فأمر بإجلائهم عن خيبر .. اهـ . وكانت الاتفاقية كما تقدم تعطى المسلمين حق إجلاء اليهود متى شاؤوا .

قال ابن إسحاق : وقال اليهود للنبى ﷺ : نحن أعلم بها (أى خيبر) منكم وأعمر لها ، فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف ، وقال لهم ، على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم [1] .

اليهود فى حماية المسلمين :

وبعد أن قبل النبى ﷺ عرض اليهود فوافق على أن يبقوا فى منطقة خيبر للعناية بزروعها والقيام بفلاحتها وإعمارها مقابل إعطائهم نصف ما تنتجه أرضها ــ بقى هؤلاء اليهود فى ذمة المسلمين وحمايتهم آمنين على أموالهم وأرواحهم وأعراضهم .

وعقب موافقة النبى ﷺ على بقاء اليهود فى خيبر لإعمار أرضها مقابل نصف المحصول من ثمارها أخذ اليهود يعاودون نشاطهم التجارى فى المنطقة بمنتهى الحرية والأمان ، وكانوا (كما هو المشهور عنهم) من أنشط الناس فى الأعمال التجارية .

---

(١) انظر صحيح البخارى ج ٥ ص ٣٩٠ الطبعة المنيرية ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٩٠ وسيرة ابن هشام ج ٢ ونصب الراية ج ٣ ص ٣٩٩ وجوامع السيرة ص ٢١٣ والسيرة الحلبية ج ٢ وإمتاع الأسماع ص ٣٢٨ والكامل فى التاريخ ج ٢ ص ١٥٠ وزاد المعاد ج ٢ ص ٣٤٧ .

وقد أخفى عامة اليهود أكثر ما لديهم من نقود الذهب والفضة عندما شعروا بأنهم سيخسرون المعركة ، ويدل سياق الأحداث (كما هو فى أمهات التاريخ) أن النبى ﷺ تسامح معهم فى هذا الأمر بالرغم من علمه به وبالرغم من أن نصوص المعاهدة تلزمهم بتسليم كل ما لديهم من أموال منقولة وغير منقولة كغنيمة حرب للجيش الإسلامى (كما هى قوانين الحرب فى ذلك العصر) .

ويدل على تسامح النبى ﷺ مع هؤلاء اليهود هو أنهم قد اشتروا بأموالهم الشيء الكثير من الغنائم التى غنمها الجيش فى خيبر فربحوا من ذلك أرباحاً طائلة .

يدل على ذلك ما رواه الواقدى : فلقد كان من اليهود حين أمّنهم رسول الله ﷺ يقبلون ويدبرون ويبيعون ويشترون ، لقد أنفقوا عامة المغنم مما يشترون من الثياب والمتاع ،وكانوا قد غيّبوا نقودهم وعين مالهم[1] .

النبى يحذر من الاعتداء على أموال اليهود :

وبعد أن عقد النبى ﷺ مع اليهود اتفاقية المساقاة والمزارعة وأعطاهم الأمان صار المسلمون يقعون فى حرثهم وبقلهم فشكت اليهود ذلك إلى رسول الله ﷺ فأمر النبى ﷺ بجمع المسلمين والجيش لما يزل فى خيبر . فلما اجتمعوا حذّرهم من التعرض لليهود وأخذ أى شيء من زروعهم ، فقد وقف فيهم ﷺ خطيباً وقال : (بعد أن حمد الله وأثنى عليه) ـــ إن اليهود شكوا إلىّ أنكم وقعتم فى حظائرهم وقد أمّناهم على دمائهم وعلى أموالهم والذى فى أيديهم من أراضيهم ، وعاملناهم ، وأنه لا تحل أموال المعاهدين إلا بحقها .

فامتثل المسلمون أمر النبى ﷺ وصاروا لا يأخذون شيئاً من ثمار الأراضى التى أعطيت لليهود إلا بثمن ، ولقد بلغ بالمسلمين التحرز والتعفف إلى أن يقول اليهودى للمسلم ، أنا أعطيك هذا (من الثمار) بلا

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٦٩ ـــ ٦٧٠ من رواية عبد الرحمن بن أبى بكر عن جعفر بن محمود .

ثمن فيأبى المسلم أن يأخذه إلا بثمن ، بعدما سمع من النبى ﷺ ما سمع من نهى عن التعرّض لأموال اليهود [1] .

محاولة اغتيال النبى فى خيبر :

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها وتمت السيطرة التامة للمسلمين على هذه المنطقة الهامة ، وبعد أن عدل النبى ﷺ عن إجلاء يهود خيبر واتفق معهم على إعمار بساتين ومزارع خيبر ومنحهم الأمان والحماية ، جرت محاولة شرّيرة لاغتيال النبى فى مدينة خيبر .

وتفصيل ذلك أن امرأة يهودية اسمها زينب بنت الحارث (زوجة سلّام ابن مشكم المقتول فى حصن النطاة وابنة أخي مرحب (الحارث) وكلاهما قتل فى المعركة ، قررت اغتيال النبى ﷺ عن طريق دس السم له فى الطعام .

فقد عمدت إلى شاة لها فذبحتها ــ وكانت بالتشاور مع بعض اليهود ــ قد اختارت أخطر نوع من أنواع السم يقال له لابطي ، لا يلبث أن يقتل متناوله فى الحال ، ثم وضعته فى جميع أوصال الشاة ، وأكثرت من هذا السم (بصفة خاصة) فى الذراعين ، لأنها (كجزء من حبك المؤامرة) سألت أثناء التخطيط لها : (أي أنواع اللحم أحب إلى النبى ﷺ) فقيل لها : الذراع والكتف ، وكان قصدها الرئيسى أن يقضى السم على الرسول ﷺ بمجرد تناوله أية كمية من لحم الشاة التى كانت قد شوتها وحملتها إلى معسكر النبى ﷺ بقصد إهدائها له ، وكان ﷺ يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة .

ولما صلّى النبى ﷺ صلاة المغرب وعاد إلى مقر قيادته فى خيبر وجد زينب اليهودية جالسة عند رحله فلما سألها ما شأنها ؟ قالت : أبا القاسم هدية أهديتها لك ، فقبلها وأمر بقبضها منها فقبضت ثم وضعت الشاة المسمومة بين يديه ﷺ وكان معه بعض أصحابه ، فقال لهم : ادنوا فتعشّوا فدنوا فمدوا أيديهم ، وتناول رسول الله ﷺ الذراع فانتهش منها نهشاً ،

---

(١) انظر مغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٩١ والروض الأنف ج ٢ ص ٢٤٣ .

وازدرد لقمة ، وتناول بشر بن البراء [1] عظماً فأكل منه لقمة أيضاً ، وفجأة أمر النبى ﷺ أصحابه بأن يتوقفوا عن الأكل قائلا : كفوا أيديكم فإن هذه الذراع تخبرنى أنها مسمومة ، فقال بشر : والذى أكرمك لقد وجدت ذلك من أكلتى التى أكلتها فما منعنى أن ألفظها إلا كراهية أن أنغِّص عليك طعامك فلما تسوغت مافى يدك لم أرغب بنفسى عن نفسك .

أما بشر فلم يقم من مكانه حتى تحول لونه أسود من شدة تأثير السم وظل يعانى من وجعه طيلة سنة كاملة مشلولاً حتى مات متأثراً بهذا السم .

وكان بعض الصحابة قد أكلوا شيئاً من هذه الشاة أيضاً ، لذلك أمر النبى ﷺ كل من أكل شيئاً من هذه الشاة أن يحتجم كما احتجم ﷺ نفسه على كاهله كعملية لتخفيف تأثير السم .

ويقول ابن القيم : إن النبى ﷺ ظل يعانى من تأثير هذا السم طيلة أربع سنوات حتى توفاه الله تعالى .

وقد روى عنه ﷺ أنه قال فى وجعه الذى مات فيه : (مازلت أجد ـــ أى أتألم ـــ من الأكلة التى أكلت من الشاة يوم خيبر ، فهذا أوان انقطاع الأبهر منى) ، قال الزهرى : فتوفي رسول الله ﷺ شهيداً

وعلى أثر ما حدث أمر النبى ﷺ بإحضار زينب اليهودية لاستجوابها .

ولدى التحقيق معها اعترفت بأنها سمّت الشاة قاصدة بذلك قتل النبى ﷺ ، ولما سألها النبى ﷺ : ما حملك على ما صنعت ؟ فقالت بكل صراحة : لقد بلغت من قومى مالا يخفى عليك قتلت زوجى وأبى وعمّى ، فقلت : إن كان نبياً فسيخبره الله ، وإن كان ملكاً استرحنا منه ؛ فعفى عنها النبى ﷺ ...

---

(١) هو بشر بن البراء بن معرور الأنصارى . شهد بيعة العقبة مع أبيه ، وشارك فى معركة بدر وكل المعارك إلى جانب رسول الله ﷺ ، جعله رسول الله ﷺ سيداً على قومه بنى نضلة . فقد جاء فى كتاب الجود من طريق ابن شهاب الزهرى أن النبى ﷺ قال : من سيدكم يا بنى نضلة ؟ قالوا : جد بن قيس ، قال : وبم تسودونه ؟ فقالوا : إنه أكثرنا مالاً وإنا على ذلك لنزنه بالبخل ، قال : وأى داء أدوى من البخل ؟ ليس ذا سيدكم ، قالوا : فمن سيدنا ؟ قال : بشر بن البراء بن معرور .

وروى حماد بن سلمة أنه ﷺ عفا عنها بالنسبة لحقه الخاص غير أنه أمر بقتلها فيما بعد قصاصاً ببشر بن البراء الذى مات متأثراً بذلك السم الذى دسته فى الشاة ، وقد وفّق بهذا بين الروايتين بأنه عفى عنها ولم يقتلها أولًا .. غير أنه لما مات بشر قتلها قصاصاً .. والقصاص مطلوب تنفيذه على أى إنسان مسلماً كان أو غير مسلم [1] .

دور المرأة فى معركة خيبر :

ومعركة خيبر هى ثانى معركة تشترك فيها المرأة المسلمة فى العهد النبوى ، فقد روى الإمام أحمد عن حشرج بن زياد عن جدته أم أبيه قالت : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزاة خيبر وأنا سادسة ست نسوة ، قالت : فبلغ النبى ﷺ أن معه نساء ، قالت : فأرسل إلينا فدعانا ، قالت : فرأينا فى وجهه الغضب ، قال : ما أخرجكن ؟ وبأمر من خرجتن ؟

قلنا خرجنا نناول السهام ونسقى السويق ومعنا دواء للجرحى ونغزل الشعر فنعين فى سبيل الله ، قال : فمرن فانصرفن ، قالت : فلما فتح الله عليه خيبر أخرج لنا سهاماً كسهام الرجال ، وفيه ما يدل على أن النبى ﷺ سوى النساء بالرجال فى تقاسم الغنيمة .

أما ابن إسحاق فقد أورد ما يتفق مع ما أورده الإمام أحمد بصدد خروج النساء فى غزوة خيبر إلا أنه ذكر أن النبى ﷺ إنما رضخ [2] لهن من الغنيمة ، ولم يجعل لهن أسهما كأسهم الرجال .

وقال : حدثنى سليمان بن سحيم غن أمية بنت ابن أبى الصلت ــ امرأة من غفار قد سماها ، لى ــ قالت : أتيت رسول الله ﷺ فى نسوة من غفار ، فقلنا : يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك لوجهك هذا ــ وهو

---

(١) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٧٨ وزاد المعاد ج ٢ ص ٣٤٠ ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٦٧٨ و ٦٧٩ وإمتاع الأسماع للمقريزى ص ٣٢١ ــ ٣٢٢ وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٧ ــ ٣٣٨ وصحيح البخارى ج ٥ ص ٢٩٠ الطبعة المنيرية .

(٢) الرضخ : إعطاء الشىء على غير قاعدة معلومة أو نصاب معلوم .

يسير إلى خيبر ـ فنداوى الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا ، فقال : على بركة الله .

قالت : فخرجنا معه ، وكنت جارية (أى فتاة حديثة السن) فأردفنى رسول الله ﷺ على حقيبة رحله ، قالت : فو الله لنزل رسول الله ﷺ إلى الصبح ونزلت عن حقيبة رحله وإذا بى يدركنى ما يدرك النساء من العادة (ولأول مرة) قالت : فتقبضت إلى الناقة واستحيت ، فلما رأى رسول الله ﷺ مابى ، قال : مالك ؟ لعلك نفست ؟ قالت : قلت نعم ، قال ﷺ : فأصلحى من نفسك ثم خذى إناء من ماء فاطرحى فيه ملحاً ثم اغسلى ما أصاب الحقيبة ثم عودى لمركبك .

قالت : فلما فتح الله خيبر رضخ لنا من الفئ ، وأخذ هذه القلادة التى ترين فى عنقى فأعطانيها ، وعلّقها فى عنقى فو الله لا تفارقنى أبداً ، وكانت فى عنقها حتى ماتت ، ثم أوصت أن تدفن معها .

وأخرج الحافظ البيهقى من حديث عبد الله بن أنيس الصحابى المشهور قال : خرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر ومعى زوجتى وهى حبلى فنفست فى الطريق ، فأخبرت رسول الله ﷺ فقال : انقع لها تمراً ، فإذا انغمر فأمر به لتشربه ، ففعلت فما رأت شيئا تكرهه ، فلما فتحنا خيبر أجدى النساء ولم يسهم لهن ، فأجدى زوجتى وولدى الذى ولد .

الأصل جواز خروج النساء للجهاد :

كل هذه الروايات المتساندة لا تدع مجالًا للشك فى أن الأصل جواز خروج النساء للمساهمة فى الجهاد فى سبيل الله شريطة أن لا يصاحب ذلك خروج على آداب وتعاليم الإسلام .. كالأساليب التى يلجأ إليها الكثير فى هذا العصر من تجنيد الفتيات بقصد الترفيه بالوسائل المرذولة ، كالغناء والرقص وما شابه ذلك مما يعد تمرداً على تعاليم الإسلام ويستنزل غضب الله تعالى على المحاربين فيحرمهم النصر ويسبب لهم الهزائم .

قتلى الفريقين فى المعركة :

وقد استشهد فى معارك خيبر ستة عشر من المسلمين :

أربعة من قريش ، وواحد من أشجع ، وواحد من أسلم ، وواحد من أهل خيبر نفسها والباقون من الأنصار .

عدد شهداء المهاجرين

من بنى أمية بن عبد مناف :

١ ــ ربيعة بن أكثم بن سخبرة [1] (حليفاً لهم) قتله بالنطاة الحارث اليهودى .

٢ ــ ثقيف بن عمرو [2] (حليفاً لهم) قتله أسير اليهودى بالنطاة .

٣ ــ رفاعة بن مسروح [3] (حليفاً لهم) قتله الحارث اليهودى بالنطاة .

من بنى أسد بن عبد العزّى :

١ ــ عبد الله بن أبى أمية بن وهب (حليفاً لهم) وهو ابن أختهم ، قتل بالنطاة .

من غفار :

١ ــ عمارة بن عقبة ، قتل بسهم .

من أسلم :

١ ــ عامر بن سنان بن الأكوع [4] قتله سيفه حين رجع عليه وهو يبارز أحد اليهود .

---

(١) هو ربيعة بن أكثم بن سخبرة بن عمرو بن بكير الأسدى حليف بنى عبد شمس قال موسى بن عقبة وابن إسحاق : إنه شهد بدراً وأحداً ، استشهد بخيبر وهو ابن ثلاثين سنة . قال فى الإصابة : قتله بالنطاة الحارث اليهودى ، وكان يكنى أبا زيد .

(٢) هو ثقاف بن عمرو بن شميط من بنى غنم ثم من بنى أسد بن خزيمة شهد بدراً (قاله موسى بن عقبة وابن إسحاق) وقد شهد بدراً مع إخوته مدلاج ومالك .

(٣) هو رفاعة بن مسروح الأسدى .. أسد بن خزيمة .

(٤) عامر بن سنان بن الأكوع الأسلمى تقدمت ترجمته .

من أهل خيبر نفسها :

١ ــ الأسود الراعى ، لا يعرف اسمه ، قتل فى اليوم الذي أسلم فيه وقصته مفصلة فى هذا الكتاب .

من أشجع :

١ ــ رجل لم يذكر اسمه .

شهداء الأنصار

من الخزرج :

١ ــ بشر بن البراء بن معرور [١] .

٢ ــ فضيل بن النعمان [٢] .

٣ ــ مسعود بن سعد بن قيس .

من الأوس :

١ ــ محمود بن مسلمة ، قتله مرحب اليهودى بواسطة سهم رماه بها من أعلى حصن ناعم .

٢ ــ أبو ضيّاح بن ثابت بن النعمان [٣]

٣ ــ الحارث بن حاطب [٤] .

(١) تقدمت ترجمة بشر فى هذا الكتاب .

(٢) فضيل بن النعمان الأنصارى السلمى قال فى الإصابة ، ذكره ابن إسحاق فى المغازى فى رواية يونس بن بكير وسلمة بن الفضيل وغيرهما عنه . وقال محمد بن سعد ، كذا وجدناه فى غزوة خيبر وطلبناه فى نسب بنى سلمة فلم نجده ، ولا أحسبه إلا وهماً وإنما أراد الطفيل بن النعمان بن خنساء بن سنان اهـ .

(٣) أبو الضياح .. اسمه عمير بن ثابت بن أمية الأوسى شهد بدراً وأحداً أو الخندق والحديبية .

(٤) هو الحارث بن حاطب بن عمرو بن عبيد الأوسى الأنصارى ، كان ضمن الجيش النبوى الزاحف إلى بدر ، ولكن النبى ﷺ أعاده إلى المدينة من الروحاء فى مهمة تتعلق ببنت عمرو بن عوف . وضرب له بسهم فى غنائم بدر فكان كمن شهدها (فى قول ابن إسحاق) شهد الحارث أحداً والخندق .

٤ ــ عروة بن مرة بن سراقة [١] .

٥ ــ أوس بن القائد [٢] .

٦ ــ أنيف بن حبيب [٣] .

٧ ــ ثابت بن أثلة [٤] .

٨ ــ طلحة بن يحيى بن مليل .

من بنى زهرة :

١ ــ مسعود بن ربيعة (حليفاً لهم من القارة) .

عدد قتلى اليهود :

أما اليهود فقد كانت حصيلة قتلاهم فى معارك خيبر ثلاثة وتسعون رجلًا قتل أكثرهم فى معارك النطاة والشق بالشطر الأول من مدينة خيبر ، وكان على رأس هؤلاء القتلى اليهود أحد عشر من قادتهم وزعمائهم . وهم :

١ ــ مرحب ، قتله (مبارزة) على بن أبى طالب ، وقيل محمد بن مسلمة أمام حصن ناعم .

٢ ــ الحارث أبو زينب ، وهو أخو مرحب ، قتله (مبارزة أمام حصن ناعم) على بن أبى طالب .

٣ ــ ياسر .. قتله (مبارزة) الزبير بن العوام أمام حصن ناعم .

٤ ــ أسير قتله (مبارزة) أمام حصن ناعم .

٥ ــ عامر .. قتله ، على بن أبى طالب (مبارزة أمام حصن ناعم) .

---

(١) قال فى الاستيعاب : عروة بن مرة بن سراقة الأنصارى من الأوس قتل يوم خيبر .

(٢) قال فى الإصابة : اسمه أوس بن عابد ، قال ابن عبد البر : هو من الأنصار قتل يوم خيبر ، انظر الاستيعاب .

(٣) هو أنيف بن حبيب من بنى عمرو بن عوف ، من الأنصار .

(٤) قال فى الإصابة : هو ثابت بن أثلة الأوسى من بنى عمرو بن عوف .

٦ ــ يوشع .. قتله الحباب بن المنذر ، مبارزة أمام حصن الصعب .

٧ ــ الديّال .. قتله عمارة بن عقبة الغفارى .

٨ ــ سلام بن مشكم ، قتل فى معارك النطاة .

٩ ــ عزول .. قتله الحباب بن المنذر مبارزة أمام حصن (أبى) فى الشق .

١٠ ــ كنانة بن أبى الحقيق النضرى .. أعدم فى الشطر الثانى من خيبر لإدانته بالخيانة والنكث .

١١ ــ الربيع بن أبى الحقيق النضرى .. أعدم أيضاً لنفس الإدانة .

هؤلاء هم القادة البارزون من اليهود الذين لقوا مصرعهم فى معارك خيبر .. أما بقية قتلى اليهود فى هذه المعارك والذين يبلغ عددهم ٨١ فلم يذكر أحد من المؤرخين اسم أحد منهم .

قدوم مهاجرى الحبشة إلى خيبر :

وعقب انتهاء النبى ﷺ من فتح خيبر ، قدم إليها المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة هرباً من اضطهاد المشركين فى مكة ، وكانوا قد هاجروا إلى الحبشة بناءاً على تعليمات النبى الأعظم ﷺ عندما اشتد عليهم الأذى من قريش فى مكة قبل الهجرة [١] .

وقد كان على رأس هؤلاء المهاجرين جعفر بن أبى طالب ، وكان حضور هؤلاء المهاجرين من الحبشة بناءاً على طلب من النبى ﷺ بعث به إلى النجاشى ملك الحبشة ، وكان مبعوثه بهذا الطلب عمرو بن أمية الضمرى [٢] .

وقد جاء هؤلاء المهاجرون على ظهر سفينتين حملتهم من الحبشة إلى بلاد العرب .

---

(١) أنظر تفاصيل هجرة المسلمين من مكة إلى الحبشة وأسماء هؤلاء المهاجرين فى سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٢١ .

(٢) انظر ترجمة عمرو بن أمية الضمرى فى كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

فرح النبى بقدوم جعفر :

وقد فرح النبى ﷺ بقدوم جعفر فرحاً عظيماً ، حتى إنه روى عنه أنه ـــ عند قدوم جعفر ـــ قام ﷺ والتزم جعفر وقبّل بين عينيه ثم قال : ما أدرى بأيهما أنا أُسرّ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر [1] .

فتح فدك ، وتيماء ، ووادى القرى :

وقد بقيت بعد سقوط خيبر عدة جيوب يهودية فى مناطق متفرقة حول خيبر كانت بها قوات تعتزم مقاومة المسلمين ولكنها كانت تنتظر نتائج معركة خيبر ، وكان اليهود فى هذه الجيوب المبعثرة فى نواحى فدك [2] ووادى القرى وتيماء لا يتوقعون أن تكون الغلبة للمسلمين على يهود خيبر ، لأنهم أهل عدد وعدة ومنعة وقوة ، ولكن الذى حدث كان مفاجأة ليهود هذه الجيوب الذين سارع بعضهم إلى الاستسلام للمسلمين ، وبعضهم دفع الجزية لهم وقاومهم البعض الآخر ولم يستسلم إلا بعد قتال كيهود وادى القرى .

استسلام يهود فدك :

كان النبى ﷺ عندما أقبل إلى خيبر (وقبل أن يقوم بمهاجمتها) بعث بأحد أصحابه (محيّصة بن مسعود) إلى يهود فدك يعرض عليهم الإسلام ويدعوهم إلى الدخول فيه ليكونوا ضمن الأسرة الإسلامية .

ولكن يهود فدك كان لديهم ما يشبه اليقين ، بأن المسلمين سيفشلون فى هجومهم على خيبر ، ولهذا أظهروا الشيء الكثير من الخبث والمماطلة إزاء دعوة النبى ﷺ إياهم إلى الإسلام ، ولم يعطوا رسوله (محيّصة بن مسعود) جواباً قاطعاً ، وكأنهم كانوا ينتظرون ورود أنباء انتصار اليهود على المسلمين فيعلنون الرفض ، ولكنهم فوجئوا باستسلام اليهود فى حصن ناعم (وهم أقوى يهود خيبر) فانهارت لذلك معنوياتهم (أى أهل فدك)

---

(١) انظر تفاصيل عودة المهاجرين من الحبشة وأسماءهم فى سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٥٩ .

(٢) سبق التعريف بهذه المناطق فيما مضى من هذا الكتاب .

فصالحوا المسلمين على نصف الأرض .

قال الواقدى : لما أقبل رسول الله ﷺ إلى خيبر فدنا منها بعث محيّصة ابن مسعود إلى فدك يدعوهم إلى الإسلام ، ويخوّفهم أن يغزوهم كما غزا أهل خيبر ويحل بساحتهم .

قال محيّصة : جئتهم فأقمت عندهم يومين ، وجعلوا يتربصون ، ويقولون : بالنطاة عامر ، وياسر وأسير والحارث ، وسيد اليهود مرحب ، ما نرى محمداً يقرب حراهم [1] ، إن بها (أى خيبر) عشرة آلاف مقاتل ، قال محيّصة : فلما رأيت خبثهم أردت أن أرحل راجعاً ، فقالوا : نحن نرسل معك رجالًا يأخذون لنا الصلح — ويظنون أن اليهود (أى فى خيبر) تمتنع — فلم يزالوا كذلك حتى جاءهم قتل أهل حصن ناعم وأهل النجدة منهم ، ففتَّ ذلك عضدهم وقالوا لمحيّصة : أكتم عنا ما قلنا لك ، ولك الحَلْي ! لحلىْ من نسائهم ، جمعوه كثيراً ، فقال محيّصة : بل أخبر رسول الله ﷺ الذى سمعت منكم ، فأخبر النبى ﷺ بما قالوا .

قال (محيّصة) : وقدم معى رجل من رؤسائهم يقال له (نون بن يوشع) فى نفر من اليهود (للمفاوضة) .

كيف صالح النبى يهود فدك :

وقد اختلف المؤرخون فى كيفية استسلام يهود فدك للمسلمين ، فقال بعضهم : إنهم صالحوا النبى ﷺ أن يحقن دمائهم ويجليهم ويخلوا بينه وبين الأموال ففعل .

وقال بعضهم : إنهم عرضوا على النبى ﷺ أن يخرجوا من بلادهم ولا يكون للنبى ﷺ عليهم من الأموال شىء ، وإذا كان جذاذها جاءوا فجذُّوها فأبى أن يقبل ذلك .

وبعض المؤرخين يشير إلى أنهم بعد رفض النبى عرضهم الأخير ، قرروا المقاومة ، فقال لهم مبعوث النبى ﷺ — محيّصة بن مسعود — : مالكم

---

(١) الحرا (بفتح الحاء) جناب الرجل ، يقال : إذهب فلا أراك بحراى . (قاله فى النهاية ج ١ ص ٢٢٢) .

مَنَعة ولا رجال ولا حصون ، لو بعث رسول الله ﷺ إليكم مائة رجل لساقوكم إليه ، وهنا طلبوا الصلح ، فصالحهم النبى ﷺ على أن لهم نصف الأرض بتربتها ، ولرسول الله ﷺ نصفها [1] ، قال الواقدى : وهذا القول أثبت .

وقد تم الصلح بينهم وبين النبى ﷺ دون أن يبلغهم بجيشه ، وقد استمروا على حالهم حتى قرر عمر بن الخطاب فى خلافته إجلاء يهود خيبر ومعهم يهود فدك ، فبعث من خبراء الاقتصاد والمال من الصحابة من يقوّم مزارع فدك وكل أراضيها ، وبعد أن تم تقدير قيمتها دفع الخليفة إلى يهودها نصف القيمة التى بلغت خمسين ألفاً أو يزيد ثم أجلاهم مع يهود خيبر إلى الشام [2] . كما تقدم تفصيله فى الفصل الأول من هذا الكتاب .

فتح وادى القرى :

يقع وادى القرى بين خيبر والمدينة ، وهو واد خصب وبه مزارع عظيمة وعيون كثيرة ، وكانت تقطنه ــ عند فتح خيبر ــ جماعة من اليهود على جانب لا يستهان به من القوة ، ولهذا فقد كان يهود هذا الوادى هم الوحيدين من بين الفئات اليهودية التى رفضت ــ بعد سقوط خيبر ــ الاستسلام للمسلمين ، وقررت مقاومتهم بحدّ السلاح .. وقد كان يهود وادى القرى (كيهود خيبر) يمتنعون بقلاع وحصون حربية ، كما أنهم استغاثوا بجمع من الأعراب الوثنيين استعداداً لمواجهة المسلمين الذين كانوا فى طريقهم إلى وادى القرى من خيبر .

وفعلا انضم كثير من الأعراب الوثنيين إلى يهود وادى القرى واستعدوا جميعاً لمقاتلة المسلمين بمجرد وصولهم إلى الوادى .

اليهود يبدأون القتال :

وكانت العادة المتبعة لدى النبى ﷺ أن لا يبدأ أحداً بالقتال حتى ينذر

---

(١) انظر الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ١٥٠ و ١٥٢ وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٥٣ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٧٥ ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٠٦ .

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢١٨ ، ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٧١٠ .

ويعذر ويعرض الإسلام ، فإن أسلموا كف عنهم واعتبرهم جزءاً من الأسرة الإسلامية .

غير أن يهود وادى القرى لم يتركوا للنبى ﷺ فرصة توجيه الدعوة إليهم ليكف عن دمائهم ، فبمجرد وصول الجيش الإسلامى إلى وادى القرى (وقبل أن يحط رحاله أو يستعد للقتال) شن اليهود الهجوم على المسلمين فقتلوا رجلاً من المسلمين ، وهو مدعم مولى رسول الله ﷺ ، أصابه سهم من سهام اليهود وهو يحط رحل رسول الله ﷺ .

تعبئة المسلمين للقتال :

وعند ذلك عبّى رسول الله ﷺ أصحابه للقتال وصفهم ، فكتّب الكتائب ووزع الرايات على القادة المختارين من أصحابه لخوض المعركة .

فدفع لواءه إلى سيد الخزرج سعد بن عبادة [١] ودفع راية إلى الحباب بن المنذر [٢] وراية إلى عبّاد بن بشر [٣] وراية إلى سهل بن حنيف ليتولوا قيادة المحاربين .

دعوة اليهود إلى الإسلام :

ومع بداية يهود وادى القرى بالعدوان ، فلم يتعجل النبى ﷺ فى مقاتلتهم ، بل حرصاً منه على حقن الدماء ورغبة منه فى هداية هؤلاء اليهود ، وجه إليهم الدعوة إلى الدخول فى الإسلام ، وأكد لهم أنهم إن أسلموا سيحوزون أموالهم وستحقن دماؤهم وحسابهم على الله .

رفض اليهود الدعوة ومسارعتهم للحرب :

غير أن إشعال نار الحرب كان جواب يهود وادى القرى على دعوة الرسول السلمية ، فقد رفض اليهود أن يردوا على دعوة رسول الله ﷺ

---

(١) انظر ترجمة سعد بن عبادة فى كتابنا غزوة بدر الكبرى .

(٢) انظر ترجمة الحباب بن المنذر فى كتابنا ، غزوة بدر الكبرى .

(٣) انظر ترجمة عباد بن بشر فى كتابنا ، غزوة الأحزاب ص ٨١ .

وسارعوا إلى القتال ، حيث خرج من حصونهم أحد فرسانهم وطلب المبارزة ، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله ، ثم برز فارس آخر ، فخرج إليه الزبير أيضاً فقتله ، ثم برز يهودى آخر فبرز له على بن أبى طالب فقتله ، ثم فارسان آخران فبرز لهما أبو دجانة فقتلهما الواحد بعد الآخر ، وظلت المبارزة مستمرة حتى قتل من اليهود أحد عشر رجلًا ، كلما قتل رجل منهم دعا رسول الله ﷺ من بقى منهم إلى الإسلام .

وقد استمر القتال بين المسلمين واليهود فى الوادى طوال اليوم حتى المساء ، وكان النبى ﷺ كلما حضرته الصلاة صلى بأصحابه ، وبعد كل صلاة يكرر توجيه الدعوة إلى اليهود للدخول فى الإسلام ، ولكنهم يرفضون ويستمرون فى القتال .

استسلام اليهود :

وفى اليوم التالى شن المسلمون على اليهود هجوماً عاماً كاسحاً ، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعلن اليهود الاستسلام وأعطوا بأيديهم إلى المسلمين ، فتمَّ فتح وادى القرى عنوة ، فغنمه المسلمون بأكمله .

إبقاء اليهود فى وادى القرى :

وقد عامل النبى ﷺ يهود وادى القرى كما عامل يهود خيبر المغلوبين ، إلا أنه لم يقتل أحداً من أهل وادى القرى بعد الاستسلام .

وقد سمح النبى ﷺ ليهود وادى القرى بالبقاء فى الوادى وترك النخل والأرض بأيديهم على أن يقوموا برعايتها واستصلاحها وزراعتها مقابل أن يأخذوا نصف المحصول منها (تماماً) كما فعل مع يهود خيبر . وقد أقام النبى ﷺ بوادى القرى أربعة أيام فقط .

ولم أر أحداً من المؤرخين ذكر أن المسلمين سبوا أحداً من نساء وذرارى يهود وادى القرى ، ويظهر أنهم ظفروا بالعفو كما ظفر يهود الشطر الثانى من خيبر .

وباستسلام يهود وادى القرى تمّ القضاء على أقوى جيب من جيوب

المقاومة اليهودية فى جزيرة العرب ، كانت قد قاومت المسلمين بعد سقوط خيبر .

يهود تيماء يدفعون الجزية :

وقد كانت تيماء الواقعة فى الركن الشمالى الغربى للجزيرة بها مجموعة من اليهود ، وكانت بهم قوة ولهم حصون فى قمم الجبال ، وكان من المتوقع أن يُبْدوا شيئاً من المقاومة ، إلا أنه لما بلغهم استسلام خيبر ثم فدك ووادى القرى للمسلمين ، بعثوا من تلقاء أنفسهم إلى رسول الله ﷺ يطلبون الصلح ويعرضون دفع الجزية للمسلمين ، فقبل منهم النبى ﷺ الجزية ، وترك لهم ما بأيديهم من أموال فلم يستول المسلمون على شيء منها لأنهم بدفعهم الجزية أصبحوا أهل ذمة ، شأنهم غير شأن العدو المحارب الذى لم يستسلم إلا بعد قتال وحرب .. ولهذا فإن الخليفة لمّا أجلى يهود خيبر فى خلافته ، لم يجل يهود تيماء بل تركهم فى ديارهم أحراراً لأنهم أهل ذمة ولم يحدث منهم ما يعتبر نقضاً للعهد الذى بموجبه حقن المسلمون دماءهم وضمنوا لهم أموالهم [١] .

محاولة قبيلة فزارة :

كانت قبيلة فزارة الغطفانية من أعتى القبائل النجدية وأشدّها على المسلمين ، وقد حاولت بقيادة سيدها عيينة بن حصن أن تمدّ يهود خيبر بأربعة آلاف مقاتل ليكونوا إلى جانبهم فى القتال ضد المسلمين كما تقدم تفصيله فى هذا الكتاب . كما أن قبائل غطفان (خاصة فزارة) تعتبر نفسها الحليف الأول ليهود خيبر ، وقد حاول عيينة بن حصن إنجاد اليهود للمرة الثانية ، ولكنه وصل خيبر بعد فوات الأوان ، حيث وجد النبى ﷺ قد سيطر بقواته على جميع نواحى خيبر ، فعاد عيينة بأصحابه إلى غطفان يجر أذيال الخيبة والفشل .

---

(١) انظر البداية والنهاية ج ٢ ص ٢١٨ ، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٨٣ وزاد المعاد ج ٢ ص ٣٥٤ ، وإمتاع الأسماع ص ٣٣٢ ، ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٠٩ وما بعدها ، وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٨ .

فزارة تحاول اعتراض النبى فيتحداها :

غير أن قبيلة فزارة بالرغم من الهزيمة الساحقة التى نزلت بحلفائها اليهود فى خيبر ، وبالرغم من خيبة الأمل التى أصيبت بها لهذه الهزيمة الساحقة ، فإن رجال هذه القبيلة قد ظل الأمل يراودهم فى الإيقاع بالمسلمين والتغلب عليهم .

ولهذا قررت فزارة بقيادة عيينة بن حصن أن تهاجم المسلمين مرجعهم من خيبر ، فحشدت لهذا الغرض قوات كثيفة من رجالها فى المناطق الواقعة على الطريق الذى سيمر به النبى ﷺ بجيشه عائداً إلى المدينة .

وعندما بلغ النبى ﷺ أن فزارة تنوى مقاتلته أرسل إليها يتحدّاها إذ عيَّن لها موضعاً أبلغها بأنه على استعداد لملاقاة رجالها فيه .

غير أن قادة فزارة لم يكادوا يتبلّغون هذا التحدّى النبوى حتى خارت قواهم وخافوا خوفاً شديداً ، فعدلوا عن قرارهم ، وهربوا كل مهرب وذهبوا من طريق النبى ﷺ (مذعورين) كل مذهب بعد أن علموا بتحرّك قواته فى اتجاههم [1] ، ويظهر أن زعماء فزارة أرادوا بإعلان محاربة المسلمين إخافتهم بأنهم سيقطعون الطريق عليهم لعل ذلك يحمل النبى ﷺ على أن يفاوض هؤلاء الزعماء ليعطيهم شيئاً من المال مقابل التخلى عن اعتراض سبيله ، لأنهم لا يزالون يذكرون كيف عرض عليهم (قبل معركة خيبر) ثمار خيبر مقابل أن يخلوا بينه وبين اليهود فلا يعينوهم بل يلتزموا جانب الحياد ، ولكن هيهات هيهات ، فشأن النبى ﷺ – عند زحفه على خيبر – غير شأنه عند عودته منها .

فعند زحفه عليها كان فى موقف حرج ، أوقعه فيه إصرار غطفان على نجدة اليهود بأربعة آلاف مقاتل ضد المسلمين ، الأمر الذى جعل النبى ﷺ وجيشه (يوم ذاك) بين نارين .. اليهود وعددهم عشرة آلاف مقاتل ، وغطفان بقيادة سيد فزارة وعددهم أربعة آلاف مقاتل ، بينما لا يزيد عدد المسلمين على ألف وأربعمائة مقاتل .

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢١٢ .

لذلك فقد اضطر النبى ﷺ إلى أن يعرض على قائد غطفان وسيد فزارة عيينة بن حصن إعطاءهم ثمار خيبر ، مقابل أن يلتزموا جانب الحياد فى الصراع الذى سينشب بين المسلمين واليهود ، ولكن غطفان رفضت هذا العرض فى حينه ، ومع ذلك فقد كسب النبى المعركة وألغى الوجود اليهودى الدخيل بأكمله فى خيبر والشمال كله .

والآن وقد عاد بجيشه منتصراً من خيبر ذلك الانتصار الساحق الرائع ، فشأنه شأن آخر فهو لم يعد يخشى أحداً – لا فزارة ولا غطفان كلها – بعد أن سحق أقوى قوة عاتية فى المنطقة وهى عشرة آلاف مقاتل من اليهود ، هزمهم وهم أهل العدة والعدد والحصون المنيعة والقلاع الشامخة .. لذلك لم يرهب ﷺ فزارة حينما استعرضت عضلاتها وحشدت قواتها فى طريق عودته ، بل بعث إليها يتحدّاها ويعين مكاناً لملاقاتها فيه ، فما كان منها إلا أن ولت فراراً منه وخلت بينه وبين الطريق الذى قررت اعتراضه فيه .. فاستمر ﷺ فى تحرّكه عائدا إلى المدينة فوصلها دون أن يجرأ أحد من أعراب المناطق على اعتراضه .

قصة الرهان الشيقة فى مكة :

كان رجالات قريش (الموالون منهم والمعادون للمسلمين) ينظرون إلى نتائج معركة خيبر على أنها الفيصل القاطع فى الصراع الدائر بين الكفر والإيمان ، وأنه على ضوء نتائج هذه المعركة – التى هى أعظم وأخطر معركة يخوضها المسلمون فى العهد النبوى – سيتقرر المصير النهائى لكل من المعسكرين المتصارعين لا فى خيبر وحدها بل فى الجزيرة كلها .

لأنه لا توجد هناك فى جزيرة العرب (يومها) قوة تناوئ المسلمين أعظم من يهود خيبر وحلفائهم الغطفانيين ، سواء من ناحية العدد والعدة أو من ناحية متانة وحصانة القلاع والحصون التى يعتصم بها اليهود فى خيبر ، أو من ناحية الشجاعة وقوة البأس والشراسة فى القتال التى يتميز بها يهود خيبر على جميع يهود الجزيرة كلهم .

لذلك كان أهل مكة يترقبون بحساسية بالغة واهتمام شديد أنباء المعارك الدائرة فى خيبر .

الجدل والرهان حول نتائج المعركة :

ولأهمية المعركة فى خيبر كان الحديث عنها وعن نتائجها شغل قريش الشاغل فى أنديتها ، وكثيراً ما يدور الجدل فى أندية قريش بشدة حول أى من الفريقين يكون له النصر فى هذه المعركة الفاصلة .. المسلمون أم اليهود ؟.

ففريق من المشركين فى مكة – وعلى رأسهم حويطب بن عبد العزى (١)– يصرّون على القول بأن النصر سيكون للمسلمين على اليهود وحلفائهم فى هذه المعركة ، وفريق – وعلى رأسهم صفوان بن أمية يصرّون على القول بعكس ذلك وهو أن النصر سيكون لليهود وحلفائهم على المسلمين .

الرهان بمائة ناقة :

وقد بلغ الجدال بالفريقين فى مكة إلى أن يضعوا بينهم رهاناً مائة بعير يأخذها الفريق الذى يتحقق قوله .

كما أن اهتمام سادات مكة بأنباء معارك خيبر قد حملهم على أن يخرجوا كل يوم عدة أميال خارج مكة يتحسسون أنباء هذه المعارك من الركبان .

ولنترك الإمام الواقدى يحدّثنا عن قصة الجدل والرهان والاهتمام الشيقة هذه بكاملها ، قال الواقدى : حدّثنى عبد الرحمن بن عبد العزيز ، عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم ، أنه سئل عن الرهان الذى بين قريش حين سار رسول الله ﷺ إلى خيبر ، فقال : كان حويطب بن عبد العزى يقول : انصرفت من صلح الحديبية وأنا مستيقن أن محمداً سيظهر على الخلق وتأبى حميَّة الشيطان إلا لزوم دينى .

فقدم علينا عباس بن مرداس السلمى (٢) فخبَّرنا أن محمداً سار إلى خيابر

---

(١) هو حويطب بن عبد العزى بن أبى قيس العامرى (أبو محمد) قال فى الإصابة : أسلم عام الفتح وشهد حنيناً ، كان هو الذى جدد أنصاب الحرم فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، كان من أغنياء قريش ، أقرض النبى ﷺ أربعين ألفاً ، تحول حويطب من مكة إلى المدينة ومات بها .

(٢) هو العباس بن مرداس بن عامر السلمى كان سيداً فى قومه ، أسلم قبل الفتح . انضم بسبع مائة مقاتل من قومه إلى النبي ﷺ وهو فى طريقه لفتح مكة فشهد بهم يوم الفتح ، وشهد حنيناً مع النبى ﷺ ويقال إنه ممن حرم الخمر فى الجاهلية .

وأن خيابر (أى يهود خيبر) قد جمعت الجموع ، فمحمد لا يفلت ، إلى أن قال عباس : من شاء بايعته ، لا يفلت محمد ، فقلت : أنا أخاطرك (أى أراهنك) ، فقال صفوان بن أمية : أنا معك يا عباس ، وقال نوفل بن معاوية [١] أنا معك يا عباس ، وضوى (أى مال) إلىّ نفر من قريش فتخاطرنا (مائة بعير) خماساً إلى مائة بعير ، أقول أنا وحيِّزى : « يظهر محمد » ، ويقول عباس وحيِّزه : تظهر غطفان (واليهود) ، فاضطرب الصوت (أى ارتفع لشدة الجدال) فقال أبو سفيان بن حرب : خشيت واللات حيِّز عباس بن مرداس ، فغضب صفوان [٢] وقال : أدركتك المنافية ! فأسكت أبو سفيان ، وجاءه الخبر بظهور رسول الله ﷺ فأخذ حويطب وحيِّزه [٣] الرهن .

قالوا : وكانت الأيمُنُ تُحْلَفُ عن خيبر ، وكان أهل مكة حين توجَّه رسول الله ﷺ إلى خيبر قد تبايعوا بينهم ، منهم من يقول : يظهر الحليفان أسد غطفان واليهود بخيبر ، وذلك أن اليهود أوعبت فى حلفائها ، فاستنصروهم وجعلوا لهم تمر خيبر سنة ، فكانت فى ذلك بينهم بيوع عظام .

قصة الحجاج بن علاط :

وكان الحجاج بن علاط [٤] السلمى ثم البهزى قد خرج يغير فى بعض غاراته ، فذكر له أن رسول الله ﷺ بخيبر ، فأسلم وحضر مع رسول الله ﷺ خيبر ، وكانت أم شيبة بنت عمير بن هاشم أخت مصعب العبدرى امرأته ، وكان الحجاج مكثراً ، له مال كثير ، – معادن الذهب التى بأرض

---

(١) هو نوفل بن معاوية بن عروة الدؤلى البكرى الكنانى ، أسلم يوم الفتح ، قال ابن حجر فى الإصابة : عاش ستين سنة فى الجاهلية وستين سنة فى الإسلام ، توفى بالمدينة فى خلافة يزيد بن معاوية .

(٢) انظر ترجمة صفوان بن أمية فى كتابنا غزوة بدر الكبرى .

(٣) الحيز : بفتح أوله وتشديد ثانيه مع الكسر ، فى الأصل الناحية واستعير هنا للفريق المناصر .

(٤) هو الحجاج بن علاط (بكسر العين) ابن خالد السلمى ثم الفهرى كان أول من بعث إلى رسول الله ﷺ بصدقة من معدن بنى سليم ، حضر معارك الشام وكان مبعوث أهل الشام إلى عمر ابن الخطاب حين كتب إليهم أن ابعثوا إلى برجل من أشرافكم ، مات الحجاج فى خلافة عمر .

بنى سليم[١] - ، فقال : يا رسول الله ، ائذن لى حتى أذهب فآخذ مالى عند امرأتى ، فإن علمت بإسلامي لم آخذ منه شيئاً ، فأذن له رسول الله ﷺ وقال : لابد لى يا رسول الله من أن أقول . فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما شاء .

قال الحجاج : فخرجت فلما انتهيت إلى الحرم هبطت فوجدتهم بالثنية البيضاء ، وإذا بهم رجال من قريش يتسمعون الأخبار ، قد بلغهم أن رسول الله ﷺ قد سار إلى خيبر ، وعرفوا أنها قرية الحجاز ريفاً وَمَنعَة ورجالاً وسلاحاً ، فهم يتحسّسون الأخبار مع ما كان بينهم من الرهان ، فلما رأونى قالوا : الحجاج بن علاط عنده والله الخبر !، يا حجاج ، إنه قد بلغنا أن القاطع[٢] قد سار إلى خيبر بلد اليهود وريف الحجاز . فقلت : بلغنى أنه قد سار إليها ، وعندى من الخبر ما يسرُّكم . فالتبطوا[٣] بجانبي راحلتى يقولون : يا حجاج أخبرنا ، فقلت : لم يلق محمد وأصحابه قوماً يحسنون القتال غير أهل خيبر . كانوا قد ساروا فى العرب يجمعون له الجموع ، وجمعوا له عشرة آلاف ، فهُزِمَ هزيمة لم يسمع قط بمثلها ، وأُسِرَ محمد أسراً . فقالوا : لن نقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة فنقتله بين أظهرهم بمن قتل منا ومنهم ! ولهذا فإنهم يرجعون إليكم يطلبون الأمان فى عشائرهم ويرجعون إلى ما كانوا عليه ، فلا تقبلوا منهم وقد صنعوا بكم ما صنعوا ، قال : فصاحوا بمكة وقالوا : قد جاءكم الخبر ، هذا محمد إنما ينتظر أن يقدم به عليكم وقلت : أعينونى على جمع مالى على غرمائى ، فأنا أريد أن أقدم فأصيب من محمد[٤] وأصحابه قبل أن تسبقنى التجار إلى هناك . فقاموا فجمعوا إلىّ مالى كأحسن جمع سمعت به ، وجئت صاحبتى (زوجته) وكان لى عندها مال فقلت لها : مالى ، لعلى ألحق بخيبر فأصيب من البيع قبل أن يسبقنى التجار إلى من انكسر هناك من المسلمين .

---

(١) بنو سليم الذين منهم الحجاج بن علاط ، تقع منازلهم فى المنطقة التى فيها وادى فاطمة ، وهذا يعنى أن معدن الذهب المشار إليه هو فى هذه المنطقة من الحجاز .

(٢) يعنون قاطع الأرحام أى النبى ﷺ .

(٣) التبط القوم به . قال فى القاموس المحيط : أى طافوا به ولزموه .

(٤) فى سيرة ابن هشام : من فل محمد ، والفل (بفتح أوله) القوم المنهزمون .

وسمع ذلك العبّاس بن عبد المطلب ، فقام ، فانخذل ظهره فلم يستطع القيام ، فأشفق أن يدخل داره فيؤذَى ، وعلم أن سيؤذى عند ذلك ، فأمر بباب داره يفتح وهو مستلق ، فدعا بابنه قثم وكان يشبه النبى ﷺ ، فجعله يرتجز ويرفع صوته ألّا يشمت به الأعداء ، وحضر باب العبّاس بين مَغِيظ محزون ، وبين شامت ، وبين مسلم ومسلمة ، مقهورين لظهور الكفر والبغى ، فلمّا رأى المسلمون العباس طيّبة نفسه طابت أنفسهم واشتدت منّتهم[1] ودعا غلاماً يقال له أبو زبينة ، فقال له : إذهب إلى الحجاج فقل : يقول العباس : « الله أعلى وأجل من أن يكون الذى تخبر خقاً » فجاءه فقال الحجاج : قل لأبى الفضل : أجلّنى فى بعض بيوتك حتى آتيك ظهراً ببعض ما تحب فاكتم عنى . فأقبل أبو زبينة يبشر العباس « أبشر بالذى يسرّك » فكأنه لم يمسه شيء ، ودخل عليه أبو زبينة فاعتنقه العبَّاس وأعتقه وأخبره بالذى قال ، فقال العباس : لله علىَّ عتق عشر رقاب ! فلمَّا كان ظهراً جاءه الحجاج فناشده الله : لتكتمَنَّ علىَّ ثلاثة أيام . فواثقه العبَّاس على ذلك قال : فإنى قد أسلمت ولى مال عند امرأتى ودين على الناس ، ولو علموا بإسلامى لم يدفعوا إلىَّ ، تركت رسول الله ﷺ قد فتح خيبر ، وجرت سهام الله ورسوله فيها وانتثل ما فيها[2] ، وتركته عروساً بابنة حيىّ بن أخطب وقتل ابن أبى الحُقيق .

قال : فلمَّا أمسى الحجاج من يومه خرج ، وطال على العبَّاس تلك الليالى ، وجعل العبَّاس يقول : يا حجاج ، انظر ما تقول فإنى عارف بخيبر هى ريف الحجاز أجمع وأهل المَنعَة والعُدَّة فى الرجال . أحقّ ما تقول ؟ قال : أى والله ، فاكتم عنى يوماً وليلة .

قال الواقدى : حتى إذا مضى الأجل والناس يموجون فى شأن ما تبايعوا (أى تراهنوا) عليه ، عمد العبَّاس إلى حلَّة فلبسها وتخلَّق الخلوق (أى تطيَّب) وأخذ فى يده قضيباً ثم أقبل يخطر حتى وقف على باب الحجاج بن عِلاط ، فقرعه فقالت زوجته : لا تدخل ، أبا الفضل ! قال : فأين

---

(١) المنة بضم الميم : القوة .

(٢) انتثل الشيء : استخرجه وأخذه .

الحجاج ؟ قالت : انطلق إلى غنائم محمد ليشترى منها التى أصابت اليهود منه قبل أن تسبقه التجار إليها .

فقال لها العباس : فإن الرجل ليس لك بزوج إلا أن تتبعى دينه ، إنه قد أسلم وحضر الفتح مع رسول الله ﷺ وإنما ذهب بماله هارباً منك ومن أهلك أن يأخذوه . قالت : أحقاً يا أبا الفضل ؟ قال : أى والله ! قالت : والثواقب إنك لصادق ، ثم قامت تخبر أهلها .

وانصرف العباس إلى المسجد ، وقريش يتحدّثون بما كان من حديث الحجاج ، فلما نظروا إلى العباس وإلى حاله تغامزوا ، وعجبوا من تجلده ، ثم دخل فى الطواف بالبيت ، فقالوا : يا أبا الفضل هذا والله التجلد لحرّ المصيبة ! أين كنت منذ ثلاث لا تطلع ؟.

قال العباس : كلا والذى حلفتم به ، لقد فتح خيبر وترك عروساً على ابنة ملكهم حيىّ بن أخطب ، وضرب أعناق بنى أبى الحقيق البيض الجعاد الذين رأيتموهم سادة النضير من يثرب ، وهرب الحجاج بماله الذى عند امرأته . قالوا : من خبَّرك بهذا ؟ قال العباس : الصادق فى نفسى ، الثقة فى صدرى ، فابعثوا إلى أهله ! فبعثوا ، فوجدوا الحجاج قد انطلق بماله واستكتم أهله حتى يصبح ، فسألوا عن ذلك كله فوجدوه حقاً ، فكُبِتَ المشركون وفرح بذلك المسلمون ، ولم تلبث قريش خمسة أيام حتى جاءهم الخبر بذلك (١) .

---

(١) مغازى الواقدى ج ٢ ص ٧٠٢ وما بعدها .

نظرة وتحليل

مقارنة بين الجيشين المسلم واليهودى :

إذا كانت معركة الأحزاب من وجهة النظر المصيرية هى أهم وأخطر معركة خاضها المسلمون فى العهد النبوى .. لأن الغزو كان يستهدف الكيان الإسلامى واقتلاعه من الجذور .. فاعتبر نجاح المسلمين فى صد عدوان الأحزاب (بالنسبة لحماية الكيان من الانهيار) أعظم نصر يحققه المسلمون . لأن به رسخ الكيان الإسلامى وضرب بجذوره بعيداً فى أعماق الوجود . بعد أن كان يهتز فى مهب العاصفة مائلاً نحو العدم ... إذا كان انتصار المسلمين فى معركة الأحزاب هكذا كانت منزلته فإن انتصارهم على اليهود فى معركة خيبر ، هو (فى حساب المقاييس الحربية) أعظم من أىّ انتصار حققه المسلمون فى العهد النبوى .

فالمسلمون فى معركة الأحزاب إذا كانوا قد انتصروا بعد العدوان . فإنهم فعلوا ذلك وهم يمتازون على ما كانوا عليه فى معركة خيبر بما يلى :

١ - كانوا يحتمون وراء خندق طويل واسع عميق . ومثل هذا الخندق الذى حُفِرَ فى أهمّ المواقع الصالحة لعبور جيوش الأحزاب ، يعتبر (بين خطط الدفاع الحربية) أكبر عامل من عوامل الصمود ، وأخطر عائق يواجهه العدو ذو القوات الكثيفة الغامرة الذى وضع خطته على أساس

القيام بحرب خاطفة تقوم بها أكثرية ساحقة ضد قلة قليلة كما هى خطة قادة عدوان الأحزاب الثلاثى الفاشل .. فقد اعترف قادة جيوش الأحزاب أن أكبر سبب مادى أحبط خططهم لاحتلال المدينة هو الخندق الذى فوجئوا به حتى قالوا – وهم يقفون على مشارفه مدهوشين – : « مكيدة والله ما كان العرب يعرفونها » .

٢ – كانت قوات الأحزاب هى المهاجمة .. وكان المسلمون هم المدافعين .. وعادةً يكون المهاجم أكثر كُلْفة .. أما المدافع المتحصن فتكون كُلْفته أقل بكثير من كلفة المهاجم . حتى وإن كانت قواته أقل من قوات المهاجم .. هذا شىء معروف فى حساب الموازين الحربية فى كل عصر وزمان .

٣ – ومع كون الأحزاب هم المهاجمين فقد كانت نسبة قوات أعدائهم المسلمين المدافعين إلى قواتهم واحداً لعشرة . بينما كانت نسبتهم إلى اليهود فى خيبر واحداً لخمسة عشر .

٤ – كانت قوات الأحزاب الغازية لفيفاً من الأعراب أكثرهم مرتزقة ، ليسوا فى مقام الدفاع عن النفس والأهل والولد . كما أنه ليس لهم باعث عقائدى حتى يستبسلوا فى القتال . وإنما جاؤوا وشاركوا فى هذا الغزو ليحصلوا على المغنم دون أن يتعرَّضوا لأى مغنم يذكر . لذلك رأوا أنَّ ما سيحصلون عليه من غنائم – فيما لو اقتحموا الخندق عنوةً واحتلوا المدينة – لن يساوى شيئاً بالنسبة لما سيفقدون من القتلى بسيوف المسلمين على مشارف الخندق قبل أن يقتحموه . تقاعسوا عن الهجوم على المدينة واكتفوا من الغنيمة بالإياب .

٥ – أمَّا المسلمون الذين يربضون وراء الخندق . فقد كانوا فى قتالهم ينطلقون من مفهوم عقائدى ، وهو ما يسمَّى بلغة هذا العصر (بالأيديولوجية) .. فقد كانوا يدافعون (بالإضافة إلى الدفاع عن الحرمات والأعراض والأموال والأرواح) عن كيان وليد .. قيامه وبقاؤه ، أعزّ عليهم (فى قرارة أنفسهم) من أرواحهم وأبنائهم وأموالهم وهو كيان الإسلام .. ولذلك (مع احتمائهم بالخندق الحصين) قاتلوا الغزاة بشراسة

وضراوة أبطلت عامل التفوّق العددى الذى كانت قوات الأحزاب تمتاز به .

أمّا الحالة فى معركة خيبر فقد كانت عكساً ، حيث لم يكن هناك (من وجهة النظر العسكرية المجرّدة) أى عامل مادى يتفوق به المسلمون على اليهود . بل كان يبدو واضحاً أن اليهود فى خيبر كانوا فى وضع حربى ممتاز ، يمكن القول معه – وحسب المقاييس العسكرية المادية المجرّدة – أن لديهم كل العوامل والأسباب التى يحتاجونها للانتصار على المسلمين . وأهم هذه العوامل والأسباب هى :

١ – **التفوّق العددى** .. فقد كان عدد قوات اليهود عشرة آلاف مقاتل ، يساندهم حوالى خمسة آلاف من حلفائهم غطفان ظلوا لهم كالاحتياطى ضد المسلمين حتى انتهت معركة خيبر ، بل وحاولوا ضرب المسلمين من الخلف لحساب حلفائهم اليهود .

٢ – **إزاء هذا العدد الهائل** ، كانت قوات المسلمين لا تزيد على ألف وأربعمائة مقاتل .. وهذا يعنى أن نسبة المسلمين لليهود وحلفائهم فى هذه المعركة واحد لخمسة عشر . وهو تفوّق عددى هائل لا يشك عسكرى خبير – يتوقع نتائج المعارك حسب المقاييس المعتادة – فى أنَّ الانتصار الحاسم سيكون لليهود على المسلمين .

٣ – **التفوّق الساحق فى العتاد والسلاح** .. فقد كان اليهود مع كثرتهم العددية الغامرة يتفوقون على المسلمين فى ذلك تفوّقاً ساحقاً . حيث كان اليهود على غاية من جودة التسليح واستكمال عدة الحرب الدفاعية والهجومية .. وذلك لما تحت أيديهم من ثروات هائلة تمكّنهم من الحصول على أى نوع من أنواع السلاح والعتاد .

٤ – **الاستراتيجية الممتازة** التى كان يتمتع بها المحارب اليهودى فى خيبر .. فقد كان اليهود – مع تفوّقهم العددى الساحق ووفرة العتاد لديهم وجودة التسليح بينهم – متحصنين داخل حصون وقلاع كبيرة منيعة ، بنيت على قمم جبال وتلال حسب تخطيط حربى مدروس ، بحيث يكاد يكون من المستحيل الإقدام على مهاجمتها فضلاً عن اقتحامها وافتتاحها لأن هذه

القلاع والحصون تقع فى مرتفعات عالية وبها ابراج يكشف المرابطون فيها كلّ ما حواليها ويتمكنون بسهولة من أن يصبّوا سهامهم القاتلة على كل من يقترب منها .

٥ - **وفرة المواد الغذائية** .. فقد خزن اليهود فى قلاعهم وحصونهم (استعداداً للقتال) كميات هائلة من المواد الغذائية المختلفة ، تكفى لتموينهم عدة سنوات ، كما دلّ على ذلك إحصاء الغنائم التى غنمها المسلمون عند استيلائهم على هذه الحصون والقلاع . أما الماء فقد كان متوفراً فى جميع الحصون والقلاع بصفة دائمة ، الأمر الذى يمكنّهم من الاستمرار فى القتال سنوات عديدة .

٦ - **الشجاعة** .. كان يهود خيبر (وهذا يعترف لهم به التاريخ) أشجع يهود الجزيرة العربية على الإطلاق .. فلم تكن الشجاعة تنقصهم وهم يحاربون المسلمين .. أثبت ذلك سير المعارك الضارية التى خاضوها وهم يدافعون عن حصونهم وقلاعهم حيث يمكن القول : أنهم لم يتخلّوا للمسلمين عن حصن أو قلعة إلا بعد أن دافعوا دفاعاً شرساً عن كل شبر منها .. وخاصة قلاع وحصون الشطر الأول من مدينة خيبر .. ولا أدلَّ على هذه الحقيقة من أن جميع قادتهم - مثل مرحب وياسر وأسير والحارث وعامر - قتلوا وبأيديهم السيوف فى ساحة الوغى .

٧ - **الدفاع عن الدين** .. كان لليهود دين عريق فى القدم .. وهو وإن كان ديناً مدخولاً أصابه الشيء الكثير من التحريف والتبديل .. إلا أنهم ظلّوا متمسكين به ومتعصّبين له إلى درجة أنهم يفضّلون التضحية بكل شيء على التخلىّ عنه ومفارقته .. وتعصب اليهود الشديد لدينهم ، يؤكده واقعهم المشهود فى كل عصر وزمان .. وزاد اليهود تعصباً لدينهم أنه دين عنصرى يعتبر بنى إسرائيل وحدهم شعب الله المختار . وهو أمر يجعلهم لا يحتملون وجود أى دين إلى جانب دينهم .

فيهود خيبر إذن لهم عقيدة يتعصبون لها أشد التعصب .. وانطلاق المحارب من مفهوم عقيدة راسخة (حتى وإن كانت غير صحيحة) يجعله شديد العناد والضراوة فى قتاله ، وخاصة إذا توهّم أن خطراً يهدد دينه

وعقيدته .. وهذا هو الذى فعله محاربو اليهود فى خيبر .

٨ - **عامل الحفاظ على المال والزوجة والولد والجاه والسلطان ..** فقد كان يهود خيبر يقاتلون وبينهم نساؤهم وأطفالهم وهم أعز ما يحافظ عليه الإنسان .. كذلك كان اليهود ذوى ثروات طائلة وأموال عظيمة منقولة وغير منقولة .. كما أنهم ذوى عزة وسلطان مطلقين فى منطقة خيبر لا ينازعهم فيها منازع .. وكل هذه الأمور العزيزة لديهم يعلمون حق العلم أنهم (بموجب شرعة الحرب المعمول بها عالمياً فى ذلك العصر) سيفقدونها إذا ما تغلَّب عليهم المسلمون واحتلوا مدينتهم .. لهذا كان من البدهى أن يكون قتال اليهود (تحت تأثير عوامل الحفاظ على كل هذه الأمور) قتالاً عنيداً شرساً لا هوادة فيه ولا تساهل .. وهو أمر يجعل وجعل (بالفعل) مهمة المسلمين المهاجمين شاقة إلى أبعد الحدود حيث واجه الجيش الإسلامى من يهود خيبر نوعاً من القتال لم يشهد مثله فى الضراوة والشراسة فى أية معركة خاضها مع الأعداء فى العهد النبوى ، اللهم إلا معركة حنين .

٩ - **كان الجيش الإسلامى هو المهاجم** .. وكان الجيش اليهودى هو المدافع .

ومن المعلوم (عسكرياً) أن مهمة المهاجم هى أشق من مهمة المدافع . كما يتوجب - بدهياً - على من يريد القيام بهجوم فى حرب شاملة أن تكون قواته أكثر عدداً من قوات عدوه . وإذا علمنا أن اليهود يتحصنون خلف أسوار وأبراج وحصون وقلاع منيعة وأن عددهم عشرة آلاف مقاتل وأن عدد المسلمين المهاجمين لا يزيد على ألف وأربعمائة مقاتل أدركنا مدى الصعوبة العظيمة التى واجهها الجيش الإسلامى وهو يهاجم اليهود فى حصونهم وقلاعهم .

وأمام كل هذا التفوق الشامل لدى اليهود فى العدد والعتاد والسلاح والاستراتيجية والتمتع بالمواقع الدفاعية الحصينة الممتازة . وتوفر كل العوامل المادية التى يحتاجونها لتحقيق النصر على المسلمين . كان المسلمون ينقصهم كل شىء مادى .

فقد كان الجيش الإسلامى - بالإضافة إلى قلة عدده - ليس لديه أية أسلحة وقائية كبيرة كالدروع الضخمة ، وهى صفائح كبيرة من الحديد تبلغ عدة أمتار وتسمى فى ذلك العصر بـ (الدبابات) لأن الجنود يحتمون بها ويدبون خلفها وهم يهاجمون القلاع والحصون .

بل إن أغلبية الجيش النبوى ليس لديهم الدروع العادية التى يلبسها المحارب العادى ساعة القتال حيث كان أكثرهم حاسراً . وكانوا مع ذلك يقومون بالهجوم وهم مكشوفون أمام حصون اليهود وقلاعهم .

كذلك ليس لدى الجيش النبوى الصغير أى شىء من الأسلحة التدميرية الثقيلة التى لابد من توفّرها لدى من يريد مهاجمة مثل حصون اليهود فى خيبر .. كالمنجنيقات القاذفات بالنار والراجمات بما يخرّب الحصون . وهى أسلحة معروفة فى ذلك العصر وخاصة لدى الرومان والفرس . وكان لدى اليهود أنفسهم كميات منها استولى عليها الجيش الإسلامى ، ثم استخدموها لضرب بعض الحصون التى كانت آخر ما فتح فى خيبر .

وهكذا فقد كان كل شىء (حسب المقاييس المادية والتقديرات العسكرية المجرّدة) يشير إلى أن يهود خيبر سيتمكنون - بكل سهولة - من دحر المسلمين والتغلب عليهم ، عندما يقومون بالهجوم .

لأن كل الأسباب والوسائل المادية وغير المادية التى يحتاجها المحارب لكسب النصر كانت متوفرة (تماماً) لدى هؤلاء اليهود .

ولكن الذى حدث هو العكس وهو انتصار المسلمين القلة القليلة التى ينقصها كل شىء مادى على الكثرة اليهودية الغامرة التى توفرت لديها كل الإمكانات المادية لكسب النصر .

فكان ذلك مفاجأة مذهلة أبطلت المقاييس العسكرية التقليدية . وأثبتت (عملياً) أن القوة الحربية (مهما عظمت) ليست وحدها كافية لكسب النصر فى المعارك .

كما أثبتت انتصار المسلمين على اليهود فى خيبر أن النقص فى السلاح والعتاد ، والقلة فى عدد الرجال لا يكونان - دائما وفى كل الأحوال -

سبباً فى الانهزام أو عدم تحقيق النصر المطلوب .

ولعلنا هنا (وعلى ضوء هذه الحقائق) لسنا بحاجة إلى القول : أن العقيدة المستقيمة الحقة الراسخة التى كان المحارب المسلم يلتزم بها ويقاتل (بصدق ووفاء) تحت لوائها هى التى قلبت موازين القوى فى معركة خيبر وكانت العامل الحاسم الأول فى انتصار تلك القلة المسلمة القليلة على تلك الكثرة اليهودية الغامرة التى (مع كثرتها) العددى تتفوق تفوقاً ساحقاً فى كل شىء مادى يحتاجه المحارب .

دروس فى معركة خيبر :

إن فى طيات تفاصيل (معركة خيبر الحاسمة) من نماذج البطولة والتضحية وزخم العقيدة وصدق الجهاد وقوة الإيمان ما يجب أن يتفهمه ويعيه ويجعله شعاعاً يستضىء به على دروب الجهاد وصون الكرامات واستعادة الحقوق المسلوبة كل الذين تضع الأقدار فى أيديهم مسؤولية حماية الأمة وغسل العار الذى لحق بها ولطخ جبينها ودنّس مقدساتها وأذل كرامتها بأيدى اليهود اليوم .

لقد التحم فى معارك خيبر ألف وأربعمائة من أصحاب محمد ﷺ بعشرة آلاف يهودى كانوا يتحصنون فى قلاع منيعة وحصون عالية ، وتسناندهم (كقوات احتياطية) حوالى خمسة آلاف مقاتل من أعراب نجد ذوى القوة والشجاعة والبأس ، واستمرت المعارك كأعنف ما يكون طوال شهرين كاملين .

كان اليهود – كما قلنا – يتفوّقون على المسلمين فى كل شىء مادى ، القوة البشرية .. السلاح .. التموينات .. الاستراتيجية ، والتكنولوجيا أيضاً ، إذا صح هذا التعبير .

وكان المسلمون (مع هذا التفوّق اليهودى الساحق) مكشوفين أمام حصون اليهود ومستعمراتهم المحصنة أحسن تحصين .

ومع ذلك فقد كان النصر فى النهاية للمسلمين على اليهود الذين قاتلوا المسلمين داخل قلاعهم وخارجها قتالاً شرساً ضارياً لم يعهد المسلمون مثله

عَبْر صراعاتهم المسلحة مع الفئات اليهودية وغير اليهودية فى جزيرة العرب فى العهد النبوى .

وهذا دليل عملى قائم يؤكد أن التفوق الساحق فى العدد ووفرة السلاح وجودة التسليح والعلوم الحربية (التكنولوجيا) ليس وحده الذى يضمن النصر فى المعارك ، وإنما الذى يضمن ذلك ويحققه هو (فى الدرجة الأولى) رسوخ العقيدة الصادقة فى نفس المحارب والسير فى دروب الكفاح على هدى نورها والتسلح بها قبل حشد الرجال وتكديس السلاح الذى لا قيمة حربية له إذا لم تحمله يد يحرّكها قلب ملئ بالإيمان بالله تعالى . هذا بالنسبة لنا نحن المنتسبين إلى الإسلام : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبِّت أقدامكم ﴾ ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ . « ومن طلب العزة بغير الإسلام أذله الله »[1] .

فانتصار ألف وأربعمائه من المسلمين على عشرة آلاف مقاتل من اليهود فى خيبر إنما عامله الأول رسوخ عقيدة الإسلام فى نفس المحارب المسلم إلى درجة كان من أثر رسوخها وزخمها أن يرفض بعض الجند فى الجيش النبوى المحارب حظه فى الغنيمة (بعد النصر) ليكون جهاده جهاداً مثالياً خالصاً لوجه الله تعالى كما فصلناه فى هذا الكتاب .

فلولا عامل العقيدة السليمة لما تمكن المسلمون من التغلب على اليهود لأن كل مقوّمات النصر (من وجهة النظر العسكرية المجرّدة) متوفرة لدى اليهود حيث كان هؤلاء اليهود يتفوّقون على المسلمين فى كل شيء تفوقاً ساحقاً .

خرافة التفوق التكنولوجى :

إن انتصار المسلمين على اليهود فى خيبر هو دليل حى على بطلان خرافة معزوفة القول : إن سبب انتصار اليهود علينا فى حرب الأيام الستة فى حزيران سنة ١٩٦٧ م هو تفوّق اليهود فى التكنولوجيا ، خرافة وأية خرافة هذا القول .

لقد كان المحاربون اليهود فى معارك خيبر يتفوقون على أجدادنا المسلمين

---

(١) من أقوال الخليفة الفاروق المأثورة .

فى كل شيء مادى يحتاجه المحارب لكسب النصر ، بما فى ذلك ما يسمونه اليوم بـ (التكنولوجيا) حيث كان لدى يهود خيبر من الوسائل الحربية الفنية للدفاع والهجوم ما ليس لدى المسلمين منه شيء ، ومع ذلك فقد هزم أولئك اليهود هزيمة ساحقة . بينما انتصر اليهود علينا فى حرب حزيران ، وأنزلوا بنا تلك الهزيمة المخزية مع تفوقنا الساحق عليهم ، فى العدد ووفرة السلاح ، وكل شيء مادى يحتاجه المحارب لكسب النصر .

وعليه ؛ فإنه لا يمكن لعاقل منصف قبول دعوى التفوق التكنولوجى لدى اليهود ، تفسير مبرر لهزيمتنا الفاضحة ، وإنما التفسير الصحيح لأسباب هذه الهزيمة هو أن الإسلام (كدين ودولة وخلق ومعاملة ومهذب وحافز شريف كان غائباً كلياً عن المعركة حيث حرصت جهات مخصوصة على إخماد صوته ومحو أىّ أثر له فى نفوس المحاربين منذ الحشد لهذه المعركة – طوال عشرين عاماً – وحتى نهايتها الفاضحة المخزية . فى حين أُفسِحَ المجال لشعارات مذاهب ومبادئ دخيلة مستوردة هى والإسلام على طرف نقيض لتحل محل الإسلام فى التوجيه المعنوى والإعداد التربوى بين المحاربين طوال كل هذه المدة ، الأمر الذى صنع الهزيمة لنا على النحو الفاضح الذى لم يشهد مثله تاريخ الأمة العربية والإسلامية فى جميع العصور .

ولا شك أن ما أصابنا إنما هو بمثابة انتقام من الله وتذكير لكى نعود إلى جادة الإسلام الذى بمعاداته ومحاربة تعاليمه والاستهزاء بها لا يمكن أن يتم لنا النصر على اليهود حتى ولو خضنا معهم ألف معركة .

ولعل أقبح ما سمعنا فى دنيا الدجل والمغالطة والافتراء ما يردده عملاء الشيوعية فى بلاد العرب من أن هزيمة الخامس من حزيران إنما يتمثل فى تمسك العرب ببقايا الأيديولوجية الغيبية (الدين) ، وأن العرب إذا ما أرادو تحقيق نصر حاسم على إسرائيل فإن عليهم (أولاً) أن يقطعوا كل صلة تصلهم بالماضى بما فى ذلك الدين ، ليبنوا حاضرهم على الواقع التقدمى المستمد من تعاليم ماركس ولينين [1] لأن اتباع هذه التعاليم (بزعمهم) هو

---

(١) انظر كتاب (من النكسة إلى الثورة) للدكتور نديم البيطار ، وكتاب نقد الفكر الدينى لمؤلفه جلال العظم .

الكفيل بتحقيق النصر الساحق على اليهود .

ولست أدرى كيف يتم للعرب النصر على اليهود باتباع تعاليم هى من صنع اليهود أنفسهم ، ابتدعوها وعملوا بدهاء وخبث على نشرها لتخريب المجتمعات ، بينما صانوا أنفسهم عن مزالق اتباعها .. وهل الماركسية التى وفدت على بلاد العرب فى أقنعة مختلفة إلا من اختراع الصهيونية ؟؟ أليس كارل ماركس يهودى لحماً ودماً وأماً وأباً وصهيونى فكراً ومعتقداً ؟. فكيف إذن يريد منا هؤلاء المفكرون العملاء أن نسير على هدى تعاليم يهودية لننتصر على اليهود . إن هؤلاء الشيوعيين العرب ، لو أنصفوا لرأوا أن العكس هو الصحيح ، وهو أنه ليس من سبب لهزيمة الخامس من حزيران سوى الحجر على الإسلام وقطع الصلة بينه وبين جيل العشرين سنة لتحل محله فى مختلف القيادات الفكرية والتربوية وفى جميع قطاعات الجماهير من سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية نفس التعاليم الماركسية التى أغرقت روافدها (تحت مختلف الشعارات) أكثر أقطار العالم العربى ، إلى درجة أنه عندما نشبت حرب الأيام الستة لم يكن أى وجود للأيديولوجية الغيبية (العقيدة الإسلامية كما هى) فى أى قطاع من قطاعات الدولة العسكرية أو السياسية أو التربوية ، فى أكثر البلاد العربية . وإنما الوجود والسلطان والنفوذ والسيادة والقيادة فى جميع هذه القطاعات للأيديولوجية الماركسية أو مشتقاتها .

ومن هنا يتضح أن السبب فى هزيمة الخامس من حزيران ليس التمسك بالعقيدة الإسلامية (كما يزعم سماسرة الشيوعية فى بلادنا) هذا التمسك الذى لا وجود له بين مختلف القطاعات فى الأقطار المعنية إياها ، وإنما السبب هو الاعتصام بالأيديولوجية الماركسية على حساب نبذ العقيدة الإسلامية ، هذا الاعتصام الذى بلغ من الشدة إلى درجة اعتُبرَ معها الجهر بالأيديولوجية الإسلامية والدعوة إلى العمل بموجبها (فى بعض الأقطار) جريمة تستحق عقوبة الموت ، وقد لاقى رجال حتفهم على أعواد المشانق فى البلاد العربية لاتهامهم بأنهم ممن يدعون إلى العمل فى بلادهم المسلمة بالأيديولوجية الإسلامية .

فهل بعد هذا يحق لهؤلاء المفكرين من السماسرة اليساريين (عملاء

الشيوعية فى بلاد العرب) القول أن سبب هزيمة الخامس من حزيران هو التمسك بالأيديولوجية الإسلامية ؟ ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ .

لقد تركت الجماهير العربية (أكثرها عن طواعية واختيار وقليل منها عن كراهية) قيادها لخصوم الأيديولوجية الإسلامية المبشرين بالأيديولوجية الماركسية طوال عشرين عاماً ، فماذا كانت النتيجة ؟؟ كانت النتيجة قيام خصوم العقيدة الإسلامية هؤلاء بصنع أشنع هزيمة عرفها العرب فى تاريخهم ولم يحدث ذلك فى ظل التمسك بالأيديولوجية الغيبية (عقيدة الإسلام) .

حتى يحمل المفكرون من عملاء الشيوعية ، هذه العقيدة مسؤولية هزيمتهم هذه . وإنما حدث فى ظل الاعتصام بالعقيدة الماركسية نفسها .

فلا أظن عاقلاً يستطيع القول : إن القيادات المسؤولة عن هزيمة الخامس من حزيران كانت تنطلق (فى حربها وسلمها وسلوكها الخاص والعام وأساليبها التربوية والتوجيهية بين محكوميها) من مفهوم العقيدة الإسلامية .

وإنما كانت – ولازالت – تنطلق فى كل ذلك من مفهوم عقيدة ماركس ولينين .. فصحَّ يقيناً أن الهزيمة إنما نزلت بهم فى غياب الإسلام عن المعركة غياباً كلياً .. وفى حضور العقيدة اليسارية المنبثقة من الفلسفة الماركسية التى كانت ولازالت هى الرائد والموجِّه لهذه القيادات فى السلم والحرب والسياسة والاقتصاد والتربية والتوجيه .

فلا معنى (إذن) لدعوة المفكرين اليساريين إلى أن ينسلخ الذين صنعوا هزيمة الخامس من حزيران عن الأيديولوجية الإسلامية . إذ أن انسلاخهم عن هذه الأيديولوجية كان تاماً قبل أن يخوضوا حرب الخامس من حزيران .

ولا معنى كذلك للقول أيضاً بأن الانسلاخ عن العقيدة الإسلامية واستبدالها بالعقيدة الماركسية سيضمن النصر المؤزر للعرب على اليهود فى المعركة القادمة .. إذ لو كان ذلك صحيحاً لتم النصر على اليهود فى حرب حزيران لليساريين العرب الذين تمثل جيوشهم أقوى قوة ضاربة فى الشرق

الأوسط لأنه لم يكن لهؤلاء اليساريين (ومنذ عشرين عاماً) أى ارتباط بالعقيدة الإسلامية فى أى مجال من مجالات الحياة والسلوك الخاص والعام . وإنما ارتباطهم طيلة هذه المدة وحتى اليوم (فكراً وعقيدة وسلوكاً) كان بالعقيدة الماركسية فحسب .

ولو أنصف هؤلاء المفكرون ؛ لدعوا إلى نبذ الماركسية وردم روافد الشعارات المنبثقة منها ، فى العالم العربى . لأن التجربة العمليه أثبتت (على محك معركة حزيران) إفلاس هذه الشعارات حيث كان الالتزام بها (لا بالإسلام) السبب الأول فى تمزيق الأمة العربية وتفجير براكين الحقد والبغضاء بين مختلف طبقاتها . وبالتالى كان السبب المباشر فى ضياع شرف وهيبة وكرامة الأمة العربية والإسلامية على يد اليهود يوم أنزلوا بنا تلك الهزيمة الفاضحة التى ما كانت لتنزل بنا (والله) لو أن العرب تمسكوا بالإسلام تمسكاً حقيقياً ، وجعلوا عقيدته السامية – لا العقيدة الماركسية الفاسدة – منطلقها إلى المعركة .

اللهم ألهم قادتنا الرشد والسداد من كانوا وأينما كانوا ليعودوا إلى المنبع الصافى ؛ منبع الإسلام فينهلوا وشعوبهم منه كما نهل محمد ﷺ وأصحابه فتم لهم العزة والنصر على أعدائهم فى كل موطن رغم قلتهم وكثرة أعدائهم .

أهم مراجع هذا الكتاب

اسم الكتاب	اسم المؤلف
تفسير ابن كثير	ابن كثير
فتح القدير (تفسير)	محمد بن علي الشوكانى
فى ظلال القرآن (تفسير)	سيد قطب
الكشاف	الزمخشرى
صحيح البخارى	البخارى
صحيح مسلم	مسلم
زاد المعاد	ابن القيم
تاريخ العرب قبل الإسلام	الدكتور جواد على
سيرة ابن هشام	محمد بن [illegible]حاق
الأغانى	أبو الفرج الأ[illegible]انى
الصداقة والصديق	أبو [illegible] [illegible]حيدى
صبح الأعشى	أحمد بن على النقشبندى
المغنى فى الفقه	ابن قدامة
الإنصاف فى معرفة الراجح من الخلاف	علاء الدين المرداوى
كشاف القناع	منصور بن يونس البهوتى
شبهات حول الإسلام	محمد قطب
جمع الفوائد	محمد بن محمد بن سليمان
زاد المسلم (تفسير)	ابن الجوزى
سقوط الجولان	خليل مصطفى
غاية المنتهى	الشيخ مصطفى السيوط الرحيبانى

اسم الكتاب	اسم المؤلف
الطبرى (تاريخ)	محمد بن جرير الطبرى
القانون الدولى العام	الدكتور سموحى فوق العادة
محمد نبى ورجل دولة	الدكتور مونتجمرى وات
حقائق الإسلام وأباطيل خصومه	عباس محمود العقاد
ما يقال عن الإسلام	عباس محمود العقاد
فقه السنَّة	السيد سابق
الرسول القائد	اللواء الركن محمود شيت خطاب
الأدب المفرد	البخارى
تفسير الإمام محمد عبده	السيد رشيد رضا
حياة محمد ورسالته	مولانا محمد على
السيرة الحلبية	ابن برهان الدين
قصة السيرة	محمد الغزالى
سمط النجوم العوالى	عبد الملك بن حسين العصامى
البداية والنهاية	إسماعيل بن كثير
الكامل فى التاريخ	محمد بن الأثير
جوامع السيرة	على بن حزم
آثار المدينة	عبد القدوس الأنصارى
وفاء الوفاء	على بن أحمد السمهودى
دائرة معارف القرن الرابع عشر – العشرين	محمد فريد وجدى
لسان العرب	ابن منظور الأفريقى المصرى
نيل الأوطار	محمد بن على الشوكانى
اليهود فى القرآن	عفيف عبد الفتاح طبارة
الطبقات الكبرى	ابن سعد
معجم البلدان	ياقوت الحموى
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع	صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق
معجم النساء	عمر رضا كحالة

اسم الكتاب	اسم المؤلف
الأعلام	خير الدين الزركلى
ديوان الحماسة	أبو تمام الطائى
العرب قبل الإسلام	جورجى زيدان
الأبطال	توماس كارليل
حضارة العرب	جوستاف لوبون
التشريع الجنائى فى الإسلام	الشهيد عبد القادر عودة
الإصابة	ابن حجر العسقلانى
الاستيعاب	ابن عبد البر
أيام العرب فى الإسلام	محمد أبو الفضل على النجاوى
الروض الأنف	السهيلى
نهاية الأرب	القلقشندى
معجزة محمد رسول الله	عبد العزيز الثعالبى
قصص الأنبياء	عبد الوهاب النجار
تاريخ ابن خلدون	عبد الرحمن بن خلدون
مروج الذهب	المسعودى
معجم قبائل العرب	عمر رضا كحالة
معجم البكرى	البكرى
تاريخ الإسلام السياسى	الدكتور حسن إبراهيم حسن
تاريخ الأمة العربية	محمد أسعد طلس
عجائب الأقاليم السبعة	محمد بن موسى الخوارزمى
حياة محمد (ﷺ)	محمد حسين هيكل
بهجة المحافل	يحيى بن أبى بكر العامرى
إمتاع الأسماع	المقريزى
تهذيب تاريخ ابن عساكر	عبد القادر بن أحمد بن مصطفى الدمشقى
عصر النبى (ﷺ)	محمد عزة دروزة
البدء والتاريخ	أبو زيد أحمد بن سهل البلخى
مغازى الواقدى	محمد بن عمر بن واقد
صورة الأرض	ابن حوقل

اسم الكتاب	اسم المؤلف
الآثار الباقية من القرون الخالية	محمد بن أحمد البيرونى
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم	المقدسى المعروف بالبشارى
أنساب الأشراف	أحمد بن يحيى البلاذرى
جمهرة أنساب العرب	على بن أحمد بن حزم
جمهرة رسائل العرب	أحمد زكى صفوت
مجمع البيان فى تفسير القرآن	الفضل بن الحسن الطبرسى
جامع الأصول من أحاديث الرسول	المبارك بن محمد بن الأثير الجزرى
مسند الإمام زيد	زيد بن على بن الحسين
نصب الراية	عبد الله بن يوسف الحنفى الزيلعى
النهاية فى غريب الحديث	المبارك بن محمد بن الأثير الجزرى
منهاج السنة النبوية	أحمد بن تيمية
جزيرة العرب	حافظ وهبه
صفة جزيرة العرب	الهمدانى
نسب قريش	المصعب بن عبد الله الزبيرى
المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول	شكرى فيصل
فتوح البلدان	أبو الحسن البلاذرى
الحرية عند العرب	إبراهيم حداد
تاريخ اليعقوبى	أحمد بن أبى يعقوب
جزيرة العرب	جان جاك بيرلى
الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة	الدكتور محمد حميد الله
لمحات من تاريخ العالم	جواهر لال نهرو
المحبّر	محمد بن حبيب بن أمية الهاشمى
قصة الحضارة	ول. ديورانت
فجر الإسلام	أحمد أمين
عيون الأخبار	محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة
معالم تاريخ الإنسانية	هـ. ج. ولز
تاريخ الشعوب الإسلامية	كارل بروكلمان
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام	محمد بن أحمد بن على الفاسى

اسم الكتاب	اسم المؤلف
تاريخ الأمم الإسلامية	محمد الخضرى
المختصر فى تاريخ البشر	
نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر	شمس الدين محمد بن أبى طالب الأنصارى
عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
غزوة بدر الكبرى	المؤلف
غزوة أحد	المؤلف
غزوة الأحزاب	المؤلف
غزوة بنىّ قريظة	المؤلف
تهذيب الصحاح	محمود بن أحمد الزنجانى
مجمع الزوائد	على بن أبى بكر الهيتمى
الجامع الصغير	الإمام السيوطى
صحيح الأخبار عما فى بلاد العرب من الآثار	محمد بن عبد الله بن بليهد
صحيح الترمذى	الإمام الترمذى
سنن أبو داود	الإمام أبو داود
الفاروق القائد	محمود شيت خطاب
تاج العروس من جوامع القاموس	محمد مرتضى الزبيدى

فهرس الأعلام

— ب —

— ث —

— ج —

— ح —

— ط —

— ع —

فهرس الموضوعات

كتب للمؤلف

سلسلة من معارك الإسلام الفاصلة

١ ــ غزوة بدر الكبرى	(الطبعة الرابعة)
٢ ــ غزوة أُحد	(الطبعة الثالثة)
٣ ــ عزو الأحزاب	(الطبعة الثانية)
٤ ــ غزوة بنى قريظة	(الطبعة الأولى)
٥ ــ صلح الحديبية	(الطبعة الأولى)
٦ ــ غزوة خيبر	(الطبعة الأولى)

كتب أخرى

٧ ــ القومية فى نظر الإسلام	(الطبعة الثالثة)
٨ ــ صراع مع الباطل	(الطبعة الثانية)
٩ ــ لا .. يافتاة الحجاز	(الطبعة الثالثة)
١٠ ــ لهيب الصراحة	(الطبعة الثانية)
١١ ــ إسكات الرعاع	
١٢ ــ أكذوبة الاشتراكية	
١٣ ــ هل هذا من العروبة ؟	
١٤ ــ الإسلام ونظرية داروين	(الطبعة الثانية)

